

الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية

في ضوء الإثبات والتنزيل

للدكتور محمد أمان بن علي الجامي

رئيس شعبة العقيدة بالدراسات العليا بالجامعة

<http://www.saaid.net>

<http://www.mediu.org>

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على نعمه التي لا تُحصى، وعطائه الذي لا يستقصى، أَحْمَدَهُ كَمَا يَنْبُغِي لِجَلَالِهِ، وَكَرِيمَ عطائِهِ، وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، وَصَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.

أما بعد: فلما كانت معرفة الله تعالى أول ما يجب على الإنسان في دينه، وكانت هذه المعرفة - لا تتم على الوجه الأكمل - إلا بـمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله في خلقه، والإيمان بتلك الأسماء والصفات والأفعال، وإقرارها، إذ بها تعرف الله إلى عباده سبحانه.

وعلى الرغم من هذا كله قد تعرض باب الأسماء والصفات لعواصف شديدة هوجي من ذ زمن طويل، فنقلت تلك العواصف أشياء كثيرة من أماكنها، وألقت بها في غير مواضعها، فتغيرت بسبب ذلك مفاهيم عديدة، فالتبست مسائل هذا الباب على كثير من الناس، حتى عجز أغلب طلاب العلم عن التمييز، بين الحق والباطل، فربما انعكس عليهم الأمر فرأوا الحق باطلًا، والباطل حقاً، مع العلم أن معرفة الله التي لا تتم إلا بـمعرفة أسمائه وصفاته، هي زبدة دعوة الرسل، وخلاصتها، وعندما تلتقي جميعها مع اختلاف مناهجها وشرائعها، لأن جميع الرسل إنما أرسلوا ليعرفوا الناس ربهم وحالاتهم فيعبدوه في ضوء تلك المعرفة، فلما كان بباب الأسماء والصفات بهذه الثابتة، وله هذه المكانة - وقد تعرض مع ذلك للعواصف التي وصفتها، وووصرت آثارها - جعلت موضوع رسالي لنيل درجة (الدكتوراه) إن شاء الله معالجة مباحث هذا الباب، بعنوان: (الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء التنزيه والإثبات)، نعم هذا هو السبب الذي من أجله اخترت هذا الموضوع، لأنني تأكدت أن مسائل هذا الباب لم تكن محل عناية ودراسة اليوم - كما يجب - وأن العقيدة السلفية صار يجهلها كثير من شبابنا، ويتصورونها بغير صورتها، ليس العقيدة السلفية (التفويض المطلق) كما يظن كثير منهم، وليس هي تلك الحيرة التي يسمونها (الوقوف) كما يظن البعض الآخر، بل هي شيء

آخر وراء ذلك كله، ولكنها سهلة وواضحة كل الوضوح إذا فهمت على حقيقتها، إذ ليس فيها أدنى غموض وهي بريئة من التعقيد والتفلس夫.

وهي أن يفهم التالي لكتاب الله معاني نصوص الصفات التي تصف الله تعالى بأنه سميع بصير مثلاً، ويثبتها على ظاهرهما كما يليق بالله، ويثبت له كلاماً حقيقياً يسمع، ووجهاً كريماً يرى يوم القيمة ويدين مبسوطين، إلى آخر الصفات التي سوف تمر بنا في هذه الرسالة، يثبتها ولا يؤولها، فيحرفها بالتأويل (مفوضاً) إلى الله عز وجل حقيقتها وكيفيتها، كيلاً يتورّم أن حقيقة سمعه وبصره كحقيقة سمع المخلوق وبصره، ولئلا يتورّم أن إثبات الكلام الحقيقى له سبحانه يلزم منه إثبات مخارج الحروف المعتادة كاللسان والشفتين، ولئلا يظن أيضاً أن إثبات الوجه والقدم واليدين مثلاً يعني إثبات الجوارح له سبحانه، كل ذلك غير وارد، لأن لوازم صفات المخلوق لا تلزم صفات الخالق، كما أن لوازم ذوات المخلوق لم تلزم ذاته سبحانه، إذ لا مناسبة بين الخالق والمخلوق **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**¹.

بل الواجب إثبات هذه الصفات على الوجه الذي يليق بالله عز وجل دون تمثيل، أو تشبيه، لأنه تعالى له يد حقيقة يأخذ بها، ويقبض، ويعطي، ويطوي بها السموات كما يليق به سبحانه.

وفي ضوء هذا الشرح والبيان لعقيدة السلف بالاختصار، يلزم كل من يريد أن يفهم هذه العقيدة أن يفرق بين التفويضين اللذين سبق أن أشرنا إليهما.

أحدهما: تفويض المعنى والحقيقة والكيفية معاً بحيث يكون حظ التالي لكتاب الله مجرد سرد النصوص دون فهم معاناتها بالنسبة لنصوص الصفات، وهو الذي سميـناه - فيما تقدم - التفويض المطلق، فنسبة هذا التفويض إلى السلف خطأ، ومنشأ هذا الخطأ أن هذه العقيدة ليست محل عنابة ودراسة - كما قلت - وإنما يتحدث الناس عنها حديثاً عابراً وعادياً لا مصدر له، فيقول القائل: إن السلف الصالح لا يفهمون معانـي آيات الصفات وأحاديث الصفات، ثم تتناقل الناس هذا النوع من الثناء (الفرـيد) ومعنى ذلك أن عقيدة السلف لا يتصورـها كثيرـ من الناس في الوقت الحاضـر، وهذا ما يشغل بال المصلـحين المـهتمـين بشـئون

¹ سورة الشورى آية: 11.

ال المسلمين، ويحزنهم كثيراً لأن جهل المرء ما يعتقده نحو ربه و خالقه ومعبوده ليس بالأمر الهين، بل هو من الخطورة بمكان.

أما النوع الثاني من التفويض: فهو تفويض الحقيقة والكيفية مع فهم معانى النصوص وتدبرها وتعقلها، وهذا ما يدين الله به السلف قديماً وحديثاً، فلِيُفْهَمْ جيداً، لنفرق بين التفويضين، ولبيان هذه الحقيقة لا بد من عرض العقيدة السلفية كما فهمها السلف الذين نزل فيهم القرآن بلغتهم، ويجانب ذلك لا بد من عرض ما يقابلها من الآراء المحدثة المخالفة لأن الأشياء تعرف بأضدادها، كما تعرف بنظائرها - كما يقولون - هذه هي الغاية التي نسعى إليها ونريد - تحقيقها من وراء هذا البحث بإذن الله، وهي تتلخص في نقطتين اثنتين:

1- عرض العقيدة السلفية على حقيقتها كما فهمها السلف، لذا استخدمنا هذا المنهج التاريخي الاصطلاحي.

2- عرض الآراء المخالفة لها لأجل المقارنة من باب معرفة محسن الأشياء بأضدادها، فكان المنهج المقارن هو وسيلي في هذا المعنى.

ثم إنني حاولت في عرضها أن أجعل الصفات الخبرية وصفات الأفعال التي اختلف فيها السلف والخلف كثيراً نقطة ارتكاز للبحث في موضوعات الرسالة مع عدم إهمال بقية الصفات.

وقد حرصت هذا الحرص للأمور الآتية مستعيناً بالله وحده:

الأمر الأول: هو رجاء أن ينفع الله بما سجلت في هذه الرسالة من المسائل والمناقشات لتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة لدى طلبة العلم الذين قد يحتاجون إلى مثل هذه البضاعة المتواضعة، وهم الذين نخاف عليهم من التأثر بذلك الخلط بين منهج السلف ومنهج أهل التفويض والوقف والحقيقة.

الأمر الثاني: الرغبة الشديدة في المساهمة في تخفيف حدة الخلاف بين الفريقين: السلف والخلف المعاصرين ببيان منهج السلف على حقيقته في باب الأسماء والصفات عامة، وفي الصفات المختلفة فيها خاصة، لأن منهج السلف أصبح مجھولاً لدى كثير من شبابنا كما قلت، وأن القضاء على الخلاف أو تخفيفه إنما يكون بعد توفيق الله وعونه ببيان الحقائق

بأسلوب صريح وواضح، وذكر المحسن والمثالب للطرفين، وتنوير الناس في ضوء الواقع، ولقصد النصح والإصلاح والتصحيح.

الأمر الثالث: المساهمة – بالمستطاع – في نشر التراث السلفي الذي خلفه لنا أولئك الرجال الذين صدقوا عزائمهم، وخلصت نياتهم في خدمة هذا الدين، فخلفوا لنا تراثاً عظيماً تحب المحافظة عليه، ونشره بين الناس، ورد الشبه عنه بكل ما نملك من أساليب ووسائل، هنا يحس المرء بالتقدير العام نحو هذا التراث، ولكن ليس هذا محل الحديث عنه فلندعه جانباً.

هذا هو سر ابجاهي إلى هذا الموضوع الذي بين أيدينا كما قلت، إذ تتبع نصوص الصفات في الكتاب والسنة فحاولت فهمها، كما فهمها السلف الصالح مستنيرةً بآثارهم وتفاسيرهم، ثم عرضتها جاعلاً الأدلة النقلية هي الأساس في الاستدلال مع عدم إهاد الأدلة العقلية، هذه طريقي التي سلكتها في عملي ومنهجي الذي سرت عليه بتوفيق الله. فشملت محتوياتها مدخلاً للبحث، وبسبعة أبواب، وخاتمة.

أما المدخل فقد اشتمل على تسعه مباحث، وتشتمل بعض المباحث على فصول وفقرات.

فتتناولت في البحث الأول بيان معنى السنة لغة واصطلاحاً مع سوق الأدلة اللغوية والشواهد.

كما تحدثت في المبحرين الثاني والثالث عن مسألتي حجية القرآن والسنة في باب العقيدة، وحجية أخبار الآحاد في إثبات الصفات.

ثم تعرضت بالنسبة في البحث الرابع لإبطال شبه الذي يزعمون الاكتفاء بالقرآن دون السنة في باب العقيدة وغيره، وبينت بطلان زعمهم عقلاً وشرعياً.

ثم تحدثت في البحث الخامس عن منهج السلف في إثبات صفات الله تعالى واستعمالهم للأدلة النقلية والعقلية في ذلك، وذكرت القواعد التي ينبغي عليها منهجهم، القاعدة الأولى: تقديم النقل على العقل، وقد تحدثت عن هذه القاعدة بإسهاب، القاعدة الثانية: رفض التأويل في باب الأسماء والصفات، خيصة القول على الله بغير علم، وحذر من الزيف، لأن المعنى المؤول إليه ظني قطعاً بالاتفاق، القاعدة الثالثة: عدم التفريق بين الكتاب والسنة، لأنهما وحيان من

عند الله على تفصيل مذكور في صلب الرسالة.

ثم انتقلت إلى المبحث السادس لأنتحدث عن مفهوم الذات الإلهية عند علماء الحديث والسنّة، ثم تحدثت في الفقرات التي بعدها عن مفهوم الإلهية لغة واصطلاحاً، ثم تكلمت عن معنى الصفة والنعت لغة واصطلاحاً، والفرق بينهما، ثم تحدثت عن مفهوم الذات في القرآن، ومفهوم الذات في السنة النبوية.

ثم انتقلت إلى المبحث السابع فتحدثت فيه عن بعض كبار أئمة المسلمين الذين دافعوا عن منهج السلف، وجددوا للناس دينهم وعقيدتهم، وذكرت نماذج من كلامهم، وهم:

- الإمام أحمد بن حنبل.

- والإمام البخاري.

- والإمام الدارمي.

- والإمام تقي الدين أحمد بن تيمية.

- والإمام محمد عبد الوهاب التميمي الذي تحدثت عن آثار دعوته في العالم المعاصر، واستمراريتها.

ثم انتقلت إلى المبحث الثامن، فناقشت فيه المعتزلة والأشاعرة في موقفهم من نصوص الصفات.

وأما في المبحث التاسع فقد تحدثت عن أسباب انتشار العقيدة الأشعرية على الرغم من رجوع الإمام أبي الحسن الأشعري عنها، ثم تحدثت عن توبة كبار شيوخ الأشاعرة الذين رجعوا إلى منهج السلف في آخر المطاف بعد أن قضوا جل حياهم في علم الكلام، وذكرت منهم أبو الحسن الأشعري والجويني الأب والجويني الابن، والشهرستاني، والفارخر الرازي، والغزالى رحمهم الله.

ثم انتهيت إلى الأبواب الرئيسية في الرسالة، فتناولت في الباب الأول: الأسماء الحسنى، والصفات على بالحديث بإسهاب مبيناً الفرق بين الصفات والأسماء، وتلازمهما.

ثم تحدثت عن أنواع الصفات عند السلف والخلف، في أربع فقرات في الباب الثاني، تحدثت في الفقرة الأولى عن الصفات السلبية، وفي الفقرة الثانية عن الصفات الثبوتية، وتناولت

في الفقرتين الثالثة والرابعة صفات الذات، وصفات الأفعال.
وأما في الفصل الأول من هذا الباب فقد تحدثت عن الصفات الشرعية العقلية، والصفات الخبرية.

وفي الفصل الثاني تكلمت على مسألة التجدد في الصفات والأفعال.
ثم تناولت في الفصل الثالث بيان معاني الصفات الخبرية، وصفات الأفعال عند السلف والخلف بالجملة.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن معانٍ منها بالتفصيل بعد أن أطلقت عليها: (الصفات العشرون المختاره) تحدثت في فقرة (أ) عن صفات الأفعال، صفة صفة وهي اثنتا عشرة صفة - وفي الفقرة (ب) - تكلمت عن الصفات الخبرية وهي ثمان صفات، وتحدثت عن كل صفة على حدة، مستنداً في كل ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة، وقد بينت سبب اهتمامي بهذه الصفات المختاره هناك.

ثم انتقلت إلى الباب الثالث لأننا نتناول بالبحث العلاقة بين الصفات والذات.
وفي الباب الرابع تحدثت عن طبيعة علاقات الصفات بعضها بعض من حيث الآثار والمعانٍ.

وأما في الباب الخامس، فقد بينت في فقرة (أ) حكم من نفى صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وفصلت القول في ذلك، وأما في فقرة (ب) فتحدثت عن حقيقة الإلحاد في الأسماء والصفات، مع بيان أنواعه مدعماً كل ما ذكرت بأدلة من الكتاب والسنة وذكر الأمثلة من الواقع المشاهد.

ثم تكلمت في الباب السادس عن خلاصة المقارنة بين موقف السلف وموقف الخلف من معانٍ للصفات بصفة عامة.

ثم انتقلت إلى الباب السابع فبينت فيه آثار الصفات الإلهية في النفس البشرية والكون.
ثم انتهيت إلى الخاتمة بتوفيق الله تعالى فسجلت فيها النتائج التي أسفـر عنها البحث بتفصيل وإسـهاب، هذا ما اشتـملت عليه الرسـالة من المباحثـ في أبوابـها وفـصـولـها.
فأرجـو أن أكون قد وفـقتـ في عـرضـ مـحتـويـاتـهاـ كـمـاـ وـرـدـتـ فـيـهاـ.

وبعد، فلا يسلم - في الغالب الكبير- أي بحث من صعوبات تواجهه، ولكن من فضل الله عليّ و توفيقه لم يصادف بحثي أي صعوبة عرقلت سيره، أو أثرت في نتائجه، وكل الذي يمكن اعتباره صعوبة هو ما صادف الباحث أحياناً من صعوبة العثور على بعض المراجع والمصادر لبعض النقاط والمسائل فشغل وقته بالتفكير والبحث عنها، في مظانها في المكتبات، ولا سيما بعض المصادر المخطوطة، ولكنني لم أضطر إلى شد الرحل من المدينة المنورة بحثاً عنها خارج المدينة، بل استطعت - بتوفيق من الله- التغلب على ذلك النوع من الصعوبة بتعاون من مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تلك المكتبة الحافلة بالمصادر المطبوعة والمخطوطة، وبعض المكتبات الأخرى في المدينة.

هكذا انتهيت من هذا العمل الذي أسأله الله تعالى أن يجعله مباركاً ومقبولاً لديه سبحانه، أحده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأسأله المزيد من فضله، إنه خير مسئول وأكرم معط.

هذا... وإن كنت قد أصبت وقدمت ما يحقق الغرض المنشود من بحثي هذا فذلك من فضل الله و توفيقه سبحانه - وله الحمد والمنة - وإن كانت الأخرى فمن زلات قلمي و تقصيرى - وما أكثر تقصيرى - فأستغفر الله الغفور الرحيم.
وصلى الله وسلم وبارك على أفضل رسله، وصفوة أنبيائه محمد وآلـه وصحبه...

المدخل

المبحث الأول: معنى السنة لغة واصطلاحاً

السنة لغة:

السنة، والسنن بمعنى واحد، يقال: استقام فلان على سنن واحد، ويقال: امض على (سننك) أي على وجهك، وتنح عن (سنن) الطريق، و(سننه) ثلاث لغات (السنة) السيرة². (السنة): الطريقة قبيحة كانت أو حسنة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من سن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيمة، ومن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة"³.

ومن الطريق سنها سنا سار عليها، وقال خالد بن عتبة:
فلا تخزعن من سيرة أنت سرتها
فأول راض سنة من يسيرها

وقال الأزهري: "السنة الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة أي من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة" اهـ⁴.

والسنة من النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها (حكمه، وأمره، ونفيه) مما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، أو نهى عنه، أو ندب إليه قولًا وفعلاً، مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال: أدلة الشرع: الكتاب والسنة، أي القرآن والحديث.

ومن ذلك حديث في الموطأ: "إِنِّي لَأَنْسَى أَوْ أَنْسَى لَأَسْنَ" ⁵، أي إنما أدفع إلى النسيان لأسواق الناس بالهدایة إلى الطريق المستقيم، وأبين لهم ما يحتاجون أن يفعلوه إذا عرض لهم النسيان، ويجوز أن يكون من سنت الإبل إذا أحسنت رعيتها، والقيام عليها.

ومنه نزل الحصب، "ولم يسنَه" أي نزول الحصب، أي لم يجعله سنة يعمل بها، وقد يفعل

² مختار الصحاح.

³ رواه مسلم في 2059/4 رقم 1017، وأحمد 357/4، 358 من حديث جرير بن عبد الله.

⁴ تاج العروس.

⁵ رواه مالك في الموطأ بлага 1/121.

الشيء لسبب خاص فلا يعم غيره، وقد يفعل لمعنى، فيزول ذلك المعنى، ويبيّن الفعل على حاله متبعاً، كقصر الصلاة في السفر للخوف، ثم استمر القصر مع عدم الخوف، صدقة من الله على عباده، كما ورد في السنة.

ومن حديث ابن عباس: "رمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسنه" أي لم يسن فعله لكافة الأمة، ولكن لسبب خاص، وهو أن يرى المشركين قوة الصحابة، وهو مذهب ابن عباس، وأما غيره فيرى أن الرمل في طواف القدوم سنة باقية، وعليه العمل بين المسلمين.

ومن ذلك: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب"⁶، يعني المحوس فيأخذ الجزية منهم، وقد ساق أبو السعادات (ابن الأثير) طائفة كبيرة من أمثلة هذا النوع، وقال الراغب: سنة النبي صلى الله عليه وسلم طريقة التي كان يتحرّأها، وسنة الله عز وجل طريقة حكمه وطريقة طاعته، نحو قوله تعالى: {سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلٍ}⁷، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}⁸، وقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءُهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ}⁹.

وقال الزجاج: أي معاينة العذاب، وقال شمر: (السنة في الأصل) سنة الطريق، وهي طريقة سنها أوائل الناس، فصارت مسلكاً لمن بعدهم¹⁰.

ورجل مسنون الوجه ملمسه، وقيل: حسنه وسهله، وقيل: الذي في وجهه وأنفه طول، (والسنين) كأمير ما يسقط من الحجر إن حككته¹¹ اهـ.

المعنى الاصطلاحي:

يطلق جمهور علماء الحديث (السنة) على ما يقابل البدعة، فيقولون: فلان على السنة إذا كان عمله وتصرفاته الدينية وفق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم كما يقال: فلان على خلاف السنة، أو فلان مخالف للسنة إذا كان مبتدعًا، وعاملاً على خلاف هديه عليه الصلاة والسلام.

⁶ أخرجه مالك في الموطأ 207/1.

⁷ سورة الفتح آية: 23.

⁸ سورة فاطر آية: 43.

⁹ سورة الكهف آية: 55.

¹⁰ تاج العروس.

¹¹ المصدر السابق.

يقول الإمام النووي رحمه الله: "السنة) سنة النبي عليه الصلاة والسلام وأصلها الطريقة، وتطلق سنته عليه الصلاة والسلام على الأحاديث المروية عنه صلى الله عليه وسلم"¹² اهـ. هذا إطلاق من إطلاقات السنة عند المحدثين، وتطلق السنة على المندوب، وهو خلاف الواجب. قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات: "قال جماعة من أصحابنا في أصول الفقه: السنة، والمندوب والتطوع والنفل، والمرغب فيه والمستحب، كلها بمعنى واحد، وهو ما كان فعله راجحًا على تركه، ولا إثم في تركه يقال: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا أي: شرعه، وجعله شرعاً"¹³ اهـ.

هذا اصطلاح جمهور الفقهاء على اختلاف مذاهبهم غالباً، وقد يتسع في استعمال السنة حتى تشمل فعل الخلفاء الراشدين المهديين، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي"¹⁴، إلا أنها إذا أطلقت عند المحدثين تنصرف - غالباً - إلى أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، وأفعاله وتقريراته.

والسنة بهذا المعنى أحد قسمي الوحي الإلهي الذي أوحاه الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهي القسم الثاني.

فالسنة إذا صنوا القرآن، ومنزلة من عند الله (معنى)، ويشهد لما ذكرنا القرآن الكريم نفسه إذ يقول الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}¹⁵، والآية كما ترى صريحة في أن كلام الرسول وحديثه فيما يبلغ عن الله من التشريع ليس حديثاً عادياً ينطق به عليه الصلاة والسلام كما يشاء، ولكنه كلام ينطق به بوحي من الله، فأمره عليه الصلاة والسلام من أمر الله سبحانه، ونهيه من نهيه، وما أحله مثل ما أحل الله، وما حرمته مثل ما حرم الله وهكذا.

وأما القسم الأول من قسمي الوحي فهو القرآن الكريم، وهو من عند الله لفظاً ومعناً، لأنه كلامه الذي خاطب به نبيه محمدأ عليه الصلاة والسلام، وهو المصدر الأول للعقيدة

¹² تهذيب الأسماء واللغات 2/156.

¹³ المصدر نفسه 2/156.

¹⁴ أخرجه أحمد 4/126، والدارمي 1/44، وأبو داود 5/14، والترمذى 5/44، وابن ماجه 1/15، 16، وابن أبي عاصم في السنة 1/31، والحاكم 1/95-97 في حديث طويل من حديث العرباض بن سارية، وصححه الترمذى والحاكم والذهبي والألباني.

¹⁵ سورة النجم آية: 3، 4.

والشريعة والحججة القاطعة.

الفرق بينهما:

الفرق بين القرآن والسنة واضح كما يظهر مما ذكرنا آنفًا من حقيقة واحدة، وهي أن القرآن كلام الله لفظه ومعناه، متبع بتألوته، ولا تصح الصلاة إلا به، وهو من المعجزات الخالدة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد أعجز بلغاء العرب وأقعدهم.

وأما السنة فهي من عند الله من حيث المعنى، وأما ألفاظها فمن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يتبع بتألوتها، ولا تصح الصلاة بها، وليس بمعجزة ويجوز روایتها بالمعنى بشرطها.

وأما من حيث ثبوت الأحكام بها، والاستدلال بها في فروع الشريعة وأصولها فلا فرق بين القرآن والسنة من هذه الحقيقة، إذا ثبتت السنة عند أهلها بالطريقة المعروفة عندهم.

وأما الأحاديث القدسية - وإن كانت من عند الله لفظاً ومعنى - على خلاف في ذلك لأنهم مختلفون في تعريف الحديث القدسي - إلا أنها مثل الأحاديث النبوية في عدم التبعد بتلاوتها، وعدم صحة الصلاة بها، وأما من حيث ثبوت الأحكام والعقائد بها فهي مثل القرآن والسنة الصحيحة على ما تقدم¹⁶.

هذا ما سنتناوله بالبحث إن شاء الله.

المبحث الثاني: حجية القرآن والسنة في باب العقيدة

إنه لموقف يثير تساؤلاً؟!!

هل من الجائز أن يبحث مسلم استسلم لربه، وتعاليم نبيه عن حجية القرآن والسنة، أو عدم حجيتها وهو لا يزال مسلماً؟!!

هل من الجائز أن يتوقف كاتب مسلم في صلاحية القرآن والسنة للاستدلال بهما في باب العقيدة، بينما هو يستدل بما يظن أنه معقول العقليين دون أدلة توقف؟!!
الجواب: لا.

¹⁶ راجع المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام ابن القيم ص 40 تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار السلام - القاهرة.

إن هذه النهاية التي انتهى إليها أمر العقيدة الإسلامية هي التي تجعلنا نكتب تحت هذا العنوان حيث أصيب كثير من المثقفين من أبناء المسلمين باضطراب في عقائدهم. ذلك الاضطراب الذي أسسه إعراضهم عن كتاب ربهم، وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام¹⁷، إذ صار حظهما عندهم تقديس ألفاظهما تقديساً شكلياً مع هجرانها في العمل والتحكيم وعدم الرجوع إليها لأخذ أساس العقيدة منها.

هـما اتجاهان متناقضان: العناية التامة بـألفاظ القرآن والسنة يحفظهما عن ظهر قلب، وطبعهما أحسن طباعة، ونشرهما بين القراء، وتخصيص مدارس ومعاهد وكليات لهما، وتخصيص إذاعة خاصة تعرف بـ(إذاعة القرآن الكريم) في بعض العواصم العربية والإسلامية، وهو أمر لم يسبق له نظير في التاريخ، وهو اتجاه كريم يستحق التقدير والإعجاب، ويقابل ذلك إعراض تام عنهما، وعزلهما عن حياة الأمة العامة والخاصة، مع الانحلال التام والبعد عن تعاليمهما ومبادئهما إلا من شاء الله، وقليل ما هـم، وإذا أردنا أن نعرف تاريخ بدء هذا الانقسام، فلا بد من الرجوع إلى الوراء.

وبعد نشأة (علم الكلام) في العصر العباسي، في أواخر عصر بنى أمية انقسم الناس ثلاـث فرق في هذا الباب:

1- أتباع السلف الصالح التابعون لصحابـة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن سلك مسلكـهم، واقتـفى أثـرـهم من أهلـ الحديثـ في كلـ عـصرـ ومـصرـ، الذينـ نـرجـوـ أنـ يـكونـواـ هـمـ الفـرقـةـ النـاجـيـةـ. وطـريقـتهمـ الإـيمـانـ بـكـلـ ماـ جـاءـ فـيـ الـكتـابـ وـالـسـنـةـ مـنـ شـرـيعـةـ وـعـقـيـدةـ، وـإـثـبـاتـ صـفـاتـ اللهـ الـوارـدةـ فـيـهـماـ عـلـىـ ظـاهـرـهـاـ الـلـائـقـ بـالـلـهـ دـوـنـ التـورـطـ فـيـ التـأـوـيلـ ظـنـاـ وـتـخـمـيـناـ، وـدـوـنـ تـشـبـيهـ وـتـمـثـيلـ جـرـأـةـ عـلـىـ اللهـ إـذـ {لـيـسـ كـمـثـلـهـ شـيـءـ وـهـوـ السـمـيـعـ الـبـصـرـ}ـ¹⁸ـ، وـهـمـ أـيـضاـ يـقـولـونـ بـالـآـيـاتـ الـكـوـنـيـةـ الدـالـةـ عـلـىـ وـجـودـ اللهـ الـعـلـيمـ الـحـكـيمـ، وـأـفـعـالـهـ الـصـادـرـةـ عـنـ حـكـمـةـ بـالـغـةـ كـمـ لـاـ يـهـمـلـونـ الـأـدـلـةـ الـعـقـلـيـةـ، إـذـ لـاـ يـجـوزـ تعـطـيلـ الـعـقـلـ فـيـ مـحـالـ الـعـقـيـدةـ وـغـيـرـهـاـ، لـأـنـ الـعـقـلـ أـسـاسـ التـكـلـيفـ، وـمـنـاطـ الـأـهـلـيـةـ، إـلاـ أـنـهـ لـاـ يـجـوزـ أـنـ يـتـجاـوزـ حدـودـهـ وـيـتـحـاـلـلـ وـظـيـفـتـهـ، وـيـجـمـعـ

¹⁷ وربما يعود أيضاً إلى أثر الثقافة الغربية والمناهج التعليمية التي خططتها ونفذها دعاة التغريب في العالم الإسلامي. ولعل أول أهدافـهمـ توـهـينـ الـصـلـةـ بـالـكـتـابـ وـالـسـنـةـ وـإـعـادـهـمـاـ عـنـ الزـادـ الـعـلـمـيـ وـالـثـقـافـيـ الـذـيـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـصـبـحـ فـيـ الـمـكـانـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ اـهـتـمـامـ الـمـسـلـمـ.

¹⁸ سورة الشورى آية: 11.

في مجال الخيال الفاسد، والأوهام الكاذبة بعيداً عن نور الوحي.
والخيال والوهم لا يصلحان أساساً للعقيدة والمعرفة الصحيحة حتماً¹⁹، علمًا بأن العقل
الصريح لا يخالف النقل الصحيح²⁰.

2- فريق يؤمن بالجملة بالله وبكلامه (القرآن)، وبسنة نبيه إيماناً فاتراً حالياً عن الحرارة
والحلاؤة. وهذا الفريق يستدل على ما آمن به من كمالات الله - في حدود تصوره- بالأدلة
العقلية التي يسميها بالبراهين القطعية، ولا يرى الاستدلال بأدلة الكتاب والسنة، بدعوى أنها
أدلة ظنية لا تفيد العلم اليقيني. وهو موقف أهل الكلام بالجملة علمًا بأنهم فرق شتى، وقد
تسربت بعض عقائدهم، ودخلت على الأشاعرة المتأخرین من حيث لا يعلمون، وسيأتي
تفاصيل ذلك إن شاء الله.

3- فريق يبدأ عقيدته من ذهن خال، فيأخذ في التفكير والبحث الدقيق ليصل بتفكيره
وبحثه إلى الإيمان، بعد أن يقطع أشواطاً طويلاً في الثاني والسير خطوة خطوة حتى يصل للإيمان
بأي شيء، أدى إليه تفكيره، فيؤمن به ويسميه حقيقة. يشبه بعض الكتاب هذا الفريق بقاضٍ
عدل عرضت عليه قضية ما وهو خالي الذهن، فجعل يستمع إلى أقوال الخصوم وحججهم،
حتى يدرك موقع الحق من عرض حججهم، فيحكم بينهم بما أدى إليه اجتهاده، بعد ذلك
العرض الطويل من أقوال الخصوم وحججهم، وهؤلاء هم الفلاسفة الذين يسمون أنفسهم
(بالحكماء) في الوقت الذي يسمون فيه غيرهم بالعوام، وقد يثبتون واسطة أحياناً، وهم علماء
الكلام كما يقول أبو الوليد بن رشد: (إن علماء الكلام ليسوا بالعلماء - الحكماء- وليسوا
من العوام) بل يسمونهم (جدلين).

هكذا تفرق المسلمون في موقفهم من أدلة الكتاب والسنة، وهو الذي دعانا للكتابة في
هذا الموضوع (حجية القرآن والسنة في مبحث العقيدة).

وبعد: فالقرآن والسنة هما المصادران الأساسيان لكل بحث في العقيدة، لأنهما وحيان من
الله، ويمثلان الرسالة التي كلف الله بها رسليه المختارين من البشر، لتكون رابطة بين السماء

¹⁹ أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام ص: 67.

²⁰ وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه القاعدة كتاباً، وهو مطبوع على هامش منهاج السنة باسم (موافقة العقل
للنقل، وهو كتاب درء تعارض العقل والنقل الذي حققه الدكتور محمد رشاد سالم، وتم طبعه ونشره بواسطة جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية بـالرياض).

والأرض، وتحمل إلى سكانها أخبار السماء، أحکاماً ربانية وتعليمات وتوجيهات إلهية.

وقد كانت تلك الرسالات متحدة في أصول الدين والإلهيان، إذ كانت كلها تنادي أول ما تنادي: {أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} ²¹.

إذ كانت كلها تخرج من مشكاة واحد أي (من عند الله)، ولو كانت من مصادر متعددة لاختلفت وتضاربت، ولكنها كانت متنوعة و مختلفة في الشريعة والمناهج. حيث جعل الله لكل نبي ورسول شرعاً ومنهاجاً، يناسب أحوال وظروف أمته رحمة منه سبحانه ولطفاً، إنه لطيف بعباده.

ولقد كان كل نبي يبعث إلى قومه وبلسان قومه في ضوء منهج معين، وتشريع محدود ومؤقت. {وَإِنْ مَنْ أَمَّةٌ إِلَّا خَلَّا فِيهَا نَذِيرٌ} ²² واستمرت هذه السنة هكذا مدة من الزمن طويلة لحكمة يعلمها العليم الحكيم {سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلٍ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} ²³.

ولما حان الوقت الذي أراد الله أن يختتم فيه رسالته إلى أهل الأرض اختار من بين عباده نبيه المصطفى محمدًا من أمة أمية (العرب)، وقد كانت على فطرتها السليمة دون أن تتأثر بأي حضارة من الحضارات القائمة في ذلك الوقت، الحضارة الفارسية، والرومانية، والهندية، وغيرها، اختاره ليرسله إلى الناس كافة، وليختتم به الرسالات، وبعد تمهيدات وإرهادات مررت عليه في صباح بعثه إلى الناس كافة، وأنزل عليه كتابه الأخير الذي ختم به الكتب السماوية (القرآن الكريم).

وقد وصفه بأنه كتاب مبارك ²⁴، وأنه {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ²⁵. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام وينخرج به الناس من الظلمات إلى النور {وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ²⁶، ولقد تكفل الله حفظ هذا الكتاب، إذ

²¹ سورة الأعراف آية: 59.

²² سورة فاطر آية: 24.

²³ سورة الفتح آية: 23.

²⁴ انظر: سورة الأنعام آية: 6، وسورة الأنبياء آية: 21، وسورة ص آية: 29.

²⁵ سورة فصلت آية: 42.

²⁶ سورة المائدة آية: 16.

يقول عز من قائل: {إِنَّا نَحْنُ نَرَكُنُ الدَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}²⁷، ووكل تبیانه إلى رسوله، وخاتم أنبيائه محمد صلی الله عليه وسلم، إذ يقول جل وعلا: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ}²⁸، وشهد له سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى في بيانه هذا وأداءأمانة الرسالة: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}²⁹، ولما كانت هذه مكانته وهذا شأنه أوجب الله طاعته، وحرم معصيته، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، إذ يقول عز من قائل: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}³⁰، ويقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}³¹، فأمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلی الله عليه وسلم.

يقول بعض أهل العلم عند تفسير هذه الآية: "أعاد الفعل مع طاعة الرسول إعلاناً بأن طاعته عليه الصلاة والسلام تجب استقلالاً، من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه صلی الله عليه وسلم أوي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول صلی الله عليه وسلم، إلى أن قال: ثم أمر الله تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله، إن كانوا مؤمنين، وأنخبرهم أن ذلك الرد خير لهم في العاجل وأحسن تأويلاً في العاقبة".

و(شيء) في قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ}، نكرة في سياق الشرط، تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دُقَهْ وَجُلَّهُ، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه، فإنه من الممنوع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، وهو إجماع بين أهل العلم، وهذا

²⁷ سورة الحجر آية: 9.

²⁸ سورة النحل آية: 44.

²⁹ سورة النجم آية: 5، 4.

³⁰ سورة محمد آية: 33.

³¹ سور النساء آية: 59.

يدل على أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكنهم بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة³² اهـ.

هذا.. ولا يشك مسلم مهما انحطت منزلته العلمية، وضعفت ثقافته، وضحلت معرفته أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ ما أنزل الله عليه من القرآن، ذلك لأن الإيمان بـأن الله أنزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه بلغه كما نزل، وأنه يَبْيَن للناس، وأوضح ما يحتاج إلى البيان والإيضاح، وأنه دعا الناس إلى معرفة الله بصفات الكمال، ولم يفتر عن الدعوة إلى الله وإلى تعريف العباد بربهم حتى التحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم. إن هذا المقدار من الإيمان من أصول هذا الدين وأساسه الذي يبني عليه ما بعده من واجبات الدين وفروضه، إذا كنا نؤمن هذا الإيمان - ويجب أن نؤمن - فأين بحث بيانه عليه الصلاة والسلام، الذي به يتحقق امتحانه لتلك الأوامر؟

{بلغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ}³³، **{إِنَّمَا نُذَكِّرُ النَّاسَ مَا نُنْذِلُ إِلَيْهِمْ}**³⁴، **{إِذْ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ}**³⁵.

الجواب: بحث ذلك في سنته المطهرة التي هي خير تفسير للقرآن بعد القرآن، والتي قيس الله لها من شاء من عباده فصانوها، وحفظوها من كل قول مختلف، وكل معنى مزيف، ودونوها منقحة مصداقاً لقوله تعالى: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}**³⁶ كما تقدم. والذكر المنزلي المحفوظ هو القرآن الكريم في الدرجة الأولى، والسنة تدخل في عموم الذكر عند التحقيق، وإنعام النظر وبيان ذلك:

إذا كان القرآن الكريم محفوظاً بنص الآية السابقة، فإن السنة المطهرة محفوظة أيضاً بدلاتها نفسها، وتوضيحه كالآتي:

1 - إنها داخلة في عموم الذكر، لأنها تذكر، كما أن القرآن يُذَكَّر.

³² إعلام الموقعين للحافظ ابن القيم بتصرف 48/1.

³³ سورة المائدة آية: 67.

³⁴ سورة النحل آية: 44.

³⁵ سورة النحل آية: 125.

³⁶ سورة الحجر آية: 9.

2- حفظ الله للقرآن الكريم يتضمن حفظ السنة لأنها بيان وتفسير له فحفظها من حفظه، وعلى كل حال فإن السنة المطهرة محفوظة ولا شك، وهو أمر يكاد أن يكون ملماًً لمس اليد، إذ قيضاً الله لها رجالاً أمناء ونقاذاً أذكياء يدركون من العلل الخفية ما يعجز عن إدراكها غيرهم، منهم من قاموا بدراستها وحفظها سندًاً ومتناًً، وجمعها، ومنهم من عمدوا إلى غربلتها وتصفيتها حتى يتبيّن المقبول من المردود. ومنهم من دققوا في أحوال الرواية حتى إنهم يدرسون أحواهم راوياً راوياً، بل حتى إنهم ليعرفون آباءهم وأجدادهم ومشايخهم، وتلامذتهم الذين حدثوا عنهم إلى آخر تلك الخدمة الفريدة التي قدمت ولا تزال تُقدم للسنة المطهرة، والله الحمد والمنة.

ومن خدمتهم للسنة أنهم قسموا الأحاديث إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: الحديث الصحيح، وهو الحديث المسند القوي الذي يتصل بإسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط، من أول السند إلى منتهاه، وقد سَلِمَ من العلل والشذوذ، ومتى قالوا: هذا حديث صحيح، فمعناه: أنه اتصل سنه مع توافرسائر الأوصاف فيه، وقد يختلفون في صحة بعض الأحاديث لاختلافهم في توافر هذه الصفات فيه، أو لاختلافهم في اشتراط بعض هذه الأوصاف.

ثم إن الحديث الصحيح نفسه ينقسم إلى متفق عليه، ومختلف فيه، كما يتتنوع إلى مشهور وغريب.

ويتفاوت الصحيح من حيث القوة أيضاً، فأقواه ما اتفق عليه البخاري ومسلم، ثم ما انفرد به البخاري وحده ثم ما انفرد به مسلم، وهكذا.

وقد يحكم بعضهم على سند بعينه أنه أصح الأسانيد على الإطلاق، فيرى الإمام إسحاق بن راهويه أن أصح الأسانيد كلها ما رواه الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر، ويوافقه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل.

ويرى أبو بكر بن أبي شيبة أن أصح الأسانيد كلها: الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي.

بينما يرى الإمام البخاري صاحب الصحيح - وهو أول من صنف في الصحيح - أن

أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر، وبنى على ذلك الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي أن أجل الأسانيد: الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر، واحتج بإجماع أصحاب الحديث على أنه لم يكن في الرواية عن مالك أجل من الإمام الشافعي رحمهم الله ورضي عنهم³⁷.

هذا نوع من تلك الأنواع الكثيرة من خدمة السنة النبوية والاهتمام بها.

القسم الثاني: الحديث الحسن وقد عرفه بعضهم بأنه الذي عرف مخرجه واشتهر رجاله، بينما عرفه البعض الآخر بأنه الذي اشتهر رواته بالصدق والأمانة غير أنهم لم يبلغوا درجة رجال الصحيح، أي قد نقصت درجاتهم في الحفظ والإتقان عن درجات رجال الصحيح³⁸.

فهذا النوعان يحتاج بهما عند جمهور أهل العلم، لأن المدار عندهم على صحة الإسناد، وقد تحقق ذلك في النوعين مع التفاوت المشار إليه، ولا فرق عند الاحتجاج بين الصحيح والحسن لما ذكرنا من أن المدار على الصحة.

أما القسم الثالث: فهو الحديث الضعيف بأقسامه الكثيرة، وهو الحديث الذي لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح، ولا صفات الحديث الحسن المذكورات³⁹. وقد بلغت أقسامه عند بعضهم إلى خمسين قسماً.

وهذا القسم مستبعد عن الاحتجاج به لا في الأصول ولا في الفروع اللهم إلا إذا كان الضعف يسيراً وتعددت طرقه فيرتفع عنده إلى درجة الحسن، فيقال له الحسن لغيره للتفريق بينه وبين الحسن لذاته⁴⁰.

وهذه العناية بالشطر الأول من الحديث (وهو الإسناد) إذا أضيفت إلى الاهتمام بالشطر الآخر وهو (المتن) تدلنا دلالة واضحة على أن الله قد حفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم كما حفظ كتابه لأنها شارحة لكتابه، وتفسير له، كما تقدم بيان ذلك، وتعتبر المحافظة على الإسناد، وضبط الأحاديث بباباً مهماً من الدين، حيث لا تجوز الرواية إلا عن الثقات وأن

³⁷ مقدمة ابن الصلاح ص: 9-8.

³⁸ قال الإمام ابن تيمية: والترمذى أول من قسم الأحاديث إلى صحيح وحسن وغريب وضعيف، لم يعرف قبله عن أحد، لكن يقسمون الأحاديث إلى صحيح وضعيف، كما يقسمون الرجال إلى ضعيف وغير ضعيف آه.

شرح الحديث: إنما الأعمال بالنيات، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية 2 في الحديث، مكتبة المعارف الطائف ص: 20.

³⁹ المصدر السابق ص: 20.

⁴⁰ انظر مقدمة ابن الصلاح ص: 17.

جرح الرواة بما هو فيهم جائز، بل قد يكون واجباً فضلاً من أن يعد من الغيبة المحرمة⁴¹ ، لأن هذا الجرح نوع من النصح والذب عن الشريعة المطهرة، فيقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: "الدين النصيحة"، وقد روى عبادان بن عثمان عن ابن المبارك أنه كان يقول: "الإسناد من الدين، ولو لا الإسناد لقال من شاء ما شاء"، ويقول العباس بن أبي رزمه⁴²: "سمعت عبد الله بن المبارك يقول: بينما وبين القوم القوائم يعني الإسناد".

فتشبه الحديث بالحيوان ذي القوائم، فكما أن الحيوان لا يقوم بغير قوائم، فكذلك الحديث لا يقوم بغير الإسناد، فتحت هذه العناية البالغة بالإسناد والمتن معاً وصلت إلينا السنة المطهرة، ثم إن هذا الإسناد الذي ينقل إلينا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة الدقيقة لا تتمتع به أية ملة أخرى، لا اليهودية ولا النصرانية، بل الإسناد من خصوصيات هذه الأمة الحمدية.

يقول صاحب كتاب (الوضع في الحديث): "والإسناد بنقل الثقة عن مثله إلى النبي صلى الله عليه وسلم خصوصية لهذه الأمة الحمدية، امتازت به عن سائر الأمم، فإن اليهود ليس لهم إلى نبيهم إلا الإسناد المعرض، ولا يقربون إلى نبيهم موسى عليه السلام قربانا لنبينا عليه الصلاة والسلام، بل الانقطاع بينهم وبينه بأكثر من ثلاثين نفساً، فغاية أسانيدهم تبلغ إلى شعرون ونحوه. وأما النصارى فلا يعرفون الإسناد إلا ما قيل في تحريم الطلاق".⁴³

قال محمد بن حاتم بن المظفر: "إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم قد يها وحديتها إسناد موصول".⁴⁴

فإذا كان كتاب الله محفوظاً - كما علم - وإذا كانت سنة نبيه محفوظة أيضاً - كما شرحتنا، ثم عرفنا موقف خير هذه الأمة - وهم الصحابة والتابعون من نصوص الكتاب والسنة، حيث لا يعمدون إلى غيرها للاستدلال، ولا يلتمسون الهدى فيما سواها. ونحن على يقين أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأولها إنما صلح بالتمسك الصادق للهدي الكتاب والسنة عقيدة وشريعة كما نحن على يقين ثابت أنه لا يصبح اليوم ديناً ما لم يكن ديناً

⁴¹ النووي، شرح مسلم 1/86.

⁴² رزمه بكسر الراء وسكون الزاء وفتح الميم، مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي 1/88.

⁴³ د. عمر بن حسن فلاتة الوضع في الحديث 2/11.

⁴⁴ المصدر السابق.

أمس، فإذا كان ذلك كذلك فقد وجبت حجية كتاب الله، وحجية سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بما لا يترك مجالاً للشك والتردد وأن تلك الحجية ثابتة في الأحكام والعقيدة على حد سواء إذ لا يوجد مبرر أو مصور للتفريق بين الأحكام والعقيدة حتى تصبح للعقيدة فئات خاصة من الأدلة غير الفئات التي يستدل بها في إثبات الأحكام، وتتخصص العقيدة في الأدلة العقلية ولا حظ لها في الأدلة النقلية إلا ما كان من باب الاتفاق أو الاستئناس لها.

وفي اعتقادي الجازم أن هذا التصرف من مبتدعات العصر العباسى وما بعده، وهو من منتجات مدرسة (علم الكلام) الذى لا يتجاوز تاريخ ميلاده العهد العباسى، ويدركنى هذا التصرف ما كان يقوله عبد الله بن مسعود لتلامذته: "عليكم بالأمر العتيق"⁴⁵، ويقول أيضاً: "اتبعوا ولا تبتدعوا، وقد كفيتكم"⁴⁶، والذي نعتقده وندين الله به - وهو المعقول أيضاً - أن كل ما صح الاستدلال به على الأحكام من النصوص الصريحة، والأحاديث الصحيحة، يصح الاستدلال بمثله في العقيدة في إثبات صفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله، وما يتعلق بأفعال العباد، بل على كل ما يجب الإيمان به في الدين، ومن يفرق بين هذه الأبواب في أدلةها فيطلب بالدليل ولا دليل، فإذاً يصح الاستدلال بكل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقيدة كما صح في الأحكام، وهذا هو المطلوب.

وأما دعوى المعارض (علماء الكلام) أنها أدلة لفظية عرضة للنسخ والتخصيص والتقييد، فلا يتم الاستدلال بها في هذا الباب، فهي ثرثرة نحفظها لعلماء الكلام الذين شغلهم الكلام عن العلم، فلا ينبغي أن يلقى لها بال، لأن جانب العقيدة لا يمكن أن يقع فيه نسخ وتغيير، وهذا التصرف لا يعرف قبل العصر العباسى، ولا يكاد يدور في رأس أحد من المسلمين قبل ذلك، إذ ليس من الدين ولا من مقتضى العقل الصريح، والفطرة السليمة ألا يستدل في المطالب الإلهية بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ليستدل عليها بقول العلّاف، والنظام، وابن أبي دؤاد وأمثالهم، وما ذلك إلا لترهيد الناس في نصوص الكتاب والسنة، بينما الواجب

⁴⁵ السنة لمحمد بن نصر المروزى ص: 23، مطباع دار الفكر بدمشق، وانظر أيضاً: سنن الدارمى 1/54، والفقىه والمتفقه للخطيب البغدادى، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 2/7.

⁴⁶ أخرى وکیع فی الزهد رقم 315، وأحمد فی الزهد ص: 162، والدارمى 1/69، ومحمد بن وضاح القرطبي فی البدع ص: 10، وأبو خيثمة فی العلم ص: 122.

قال الهيثمي: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وقال الألبانى: إسناده صحيح.

الذي يقتضيه الإيمان دعوة الناس إلى الاعتصام بهما فقط دون التفات إلى غيرهما، ولا سيما في باب العقيدة وهو باب يجب ألا يتتجاوز فيه الكتاب والسنة، كما قال الإمام أحمد رحمه الله في أثناء المناقشة أيام المخنة.

وما أحسن ما حكاه الحسن بن صالح العباداني عن أحد العباد (سهل بن عبد الله التستري) قال: دخلت على سهل بن عبد الله التستري فقلت له: أوصني أيها الشيخ يرحمك الله فإني أريد الحج، فقال لي: أوصيك، وواعظك معك؟ فقلت: ومن واعظي يرحمك الله؟ قال: الكتاب المنزل، فقلت له: الكتاب كبير وفيه مواعظ وتحنيف، فعظني يرحمك الله قال: بسم الله الرحمن الرحيم {مَا يَكُونُ مِنْ جُوَارٍ إِلَّا هُوَ رَابِّهِمْ وَلَا خَمْسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} ⁴⁷، قال: ثم قال: استمسك بما سمعت ترشد، قال: فوالله لقد دلتني هذه الآية على كل خير ⁴⁸ ا.هـ يستفاد من هذه القصة ما يأتي:

1 - إصرار ذلك العابد الكبير على أن كتاب الله خير واعظم ولا ينبغي العدول عنه إلى غيره وأن كل من طلب علمًا ينتفع به في دينه، يجب أن يرشد ويشجع على التمسك بكتاب الله، ولا ينبغي للوعاظ والعلماء والمشايخ تزهيد الناس في كتاب الله بترغيبهم في التماس الحق والمهدى والعقيدة السليمة في غيره، بل الواجب ترغيب الناس في التمسك بكتاب الله المنزل مشرحاً بالسنة المطهرة التي لا يستغني عنها كل مفسر لكتاب الله لأنها صنو القرآن، ووحى مثله في باب التشريع ووجوب الاتباع.

2 - حسن اختيار سهل بن عبد الله التستري، حيث اختار للسائل (آية المعية) ليشعر السائل عند تلاوتها أن الله معه بعلمه، والاطلاع عليه، ومحيط به، ولا يخفى عليه من أمره وتصرفاته شيء حيالاً كان في سفره وحضره، وهي معية عامة، وسيأتي الكلام مفصلاً عن صفة المعية إن شاء الله.

هكذا يجب أن يكون الوعاظ والعلماء والدعاة، لئلا ينصرف الناس عن كتاب الله وسنة

⁴⁷ سورة المجادلة آية: 7.
⁴⁸ المعارضة والرد لسهل بن عبد الله التستري تحقيق ونقد وتعليق الدكتور محمد كمال جعفر، ص: 75.

نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى السفسطة والجدل الكلامي الذي أصبح حجابةً منيعاً بين كثير من المتأخرین وبين كتاب ربهم وسنة نبیهم.

وما أروع قول الإمام مالك إمام دار الهجرة وأحد أئمة الدنيا الأربعة في عصر تابع التابعين، إذ يقول رحمه الله: "أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد صلی الله علیه وسلم بجدل هؤلاء"⁴⁹، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى إن شاء الله.

ومن كل ما تقدم يتضح أن علماء المسلمين في هذا الشأن -سلفاً وخلفاً- ينظرون إلى السنة نظرهم إلى الكتاب من حيث الاستدلال بها، فيستدلون بالسنة حيث يستدلون بالقرآن دون أن يفرقوا بين الآحاد والمتواتر، وسوف نتحدث في المبحث التالي في هذه النقطة مستعينين بالله.

المبحث الثالث: مدى حجية أخبار الآحاد في إثبات الصفات

الأخبار المقبولة التي ثبتت بها الأحكام والأمور الخبرية العلمية تنقسم إلى أربعة أقسام: أحدها: أخبار متواترة لفظاً ومعنى.

وهي الأخبار التي يرويها عدد كبير غير محصور في عدد معين، ولكنه يستحيل عادة تواظؤهم على الكذب، وهم معروفون بالضبط والعدالة والثقة وغيرها من الصفات المعتبرة عند علماء هذا العلم الشريف.

والحديث الذي يرويه هذا العدد بهذه الصورة يسمى متواتراً لفظاً ومعنى، وله أمثلة كثيرة معروفة في موضعها ومن أبرزها حديث الرؤية، وقد رواه ثلاثون صحاحياً كما ذكر الحافظ ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح)، وساق كل حديث بعد أن أفرد له فصلاً مستقلاً في الكتاب المذكور.

وثانيها: أخبار متواترة معنى، وإن لم تتواتر بلفظ واحد، وله أمثلة كثيرة مثل أحاديث العلو والاستواء، وأحاديث إثبات العرش نفسه حيث نقلت هذه الأخبار بعبارات مختلفة من طرق كثيرة، يمتنع معها التواظؤ على الكذب عقلاً وعادة، وأمثلتها كثيرة، وقد تناقلها خيار

⁴⁹ انظر: حلية الأولياء 324/6، وسير أعلام النبلاء 88/8، ورسالة الفتوى الحموية الكبرى ص: 32، بتصحيح وتعليق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة.

من خيار من سلف هذه الأمة واستمر الأمر إلى يوم الناس هذا.
وثالثها: أخبار مستفيضة متلقة بالقبول بين الأمة، وهي من قبيل الآحاد عند علماء هذا الشأن.

رابعاً: أخبار الآحاد مروية بنقل رواة عدول ضابطين من أول السند إلى آخره.
أما القسم الأول والثاني، فحجتهم محل إجماع عند أهل العلم، من سلف هذه الأمة إلا ما كان من العقليين الذين لا يقيمون وزناً للأدلة النقلية مهما تواترت، قال في شرح الطحاوية: قسمت المعتزلة والجهمية والرافض والخوارج الأخبار إلى قسمين:

1- المتواتر

2- الآحاد.

فالمتواتر وإن كان قطعياً السند لكنه غير قطعياً الدلالة، لأن الأدلة اللفظية لا تفي باليقين، ولهذا قد حوا في دلالة القرآن على الصفات.

وأما الآحاد فلا تفي بالعلم، ولا يحتاج بها من جهة طرقها، ولا من جهة متنها، "ثم قال الشارح رحمه الله: فسدوا على القلوب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية، وبراهين يقينية، وهي في الحقيقة كسراب بقيعة بحسبه الظمآن ماء" إلى آخر كلامه⁵⁰.

هذا موقف كبرى الطوائف الإسلامية - كما يقولون - هنا يحق لي أن أسأله: ما الفرق بين قول الذين يقولون: إن شريعة القرآن غير صالحة اليوم لتطبيقها. إذ هناك قوانين وضعها الخبراء المختصون، وهي من أصلح ما يوجد لهذا الوقت، إذ هي تساير الحياة المتطورة التي نعيشها، وإن كنا نؤمن بأن القرآن من عند الله، وأن السنة النبوية المطهرة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، ولكننا لا نرى تطبيق شريعتهما للظروف التي ذكرناها أو ذكرنا بعضها.

ما الفرق بين هذا الموقف وبين موقف الذين يقولون: إن الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة لا نشك أنها قطعية الثبوت عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة

⁵⁰ شرح الطحاوية ص: 256 ط الامتياز القاهرة.

لالأحاديث، ولكننا نعتقد أن هذه الأدلة اللفظية ظنية لا تفي باليقين فلا نرى الاستدلال بها - على سبيل الاستقلال - في باب العقائد بل نرى وجوب الاستدلال بالأدلة القطعية، وهي الأدلة العقلية.

هل هناك فرق بين الموقفين؟! لا يمكن أن يحاب إلا بـ (لا).

إذاً فما معنى الإيمان بالقرآن وبمن أنزل عليه القرآن؟! إن لم يكن معناه التصديق بأن القرآن كلام الله، وأن السنة وهي من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأن الغرض من إنزالهما هو العمل بهما عقيدة وأحكاماً وأخلاقاً وسلوكاً ثم تطبيق ذلك عملياً، هذا هو المعنى الصحيح للإيمان بالكتاب والسنة.

ولهذا نرى أن عبارة القوم ينقض آخرها أو لآخرها، إذ لا معنى لكونها قطعية الثبوت ظنية الدلالة إلا رفض النصوص بهذا الأسلوب المخدر، هذا ما نفهمه من تلك العبارة التقليدية التي يرددوها بعض علماء الكلام، وبعض الأصوليين الذين تأثروا بعلم الكلام، وهي قولهم: (إن الأدلة اللفظية قطعية الثبوت ظنية الدلالة) فخلافهم لا تأثير له في الإجماع لأنهم قد اتبعوا غير سبيل جمهور أهل العلم الذين يرون أن الأدلة النقلية هي العمدة في جميع المسائل الدينية، وتعتبر الأساس في هذا الباب وغيره، والأدلة العقلية تابعة لها، وسوف لا تختلفها عند حسن التصرف فيهما.

وأما القسمان الثالث والرابع فالذى عليه عمل المسلمين في الصدر الأول وما يليه من عصور التابعين الاحتجاج بهما إذا صحت، وتلقتها الأمة بالقبول مستدلين بها في كل باب في الأمور الخبرية وغيرها، وقد كان مدار الاحتجاج بالأخبار عندهم الصحة فقط، ولا شيء غير الصحة.

ولو رجعنا إلى الماضي إلى ما كان عليه العمل في عصر النبوة، والعصور التي تلت ذلك العصر لرأينا الشيء الكثير مما يشهد لما ذكرنا، وإليك بعض تلك الشواهد والأمثلة:

1- حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نضر الله أمرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها، فرب حامل فقهه غير فقيه، ورب حامل فقهه إلى من هو أفقه منه، ثلات لا يغل عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل

الله، والنصيحة لل المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم".

قال الإمام الشافعي معلقاً على هذا الحديث: "فلم ندب رسول الله إلى استماع مقالته، وحفظها وأدائها (أمرأ) يؤديها و (الامرأ) واحد⁵¹: دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه، لأنه إنما يؤدي عنه حلال وحرام يجتنب، وحد يقام ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا".

واستدلال الإمام الشافعي بهذا الحديث على قبول أخبار الآحاد في غاية الوضوح حيث لم يشترط الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه عدداً قليلاً أو كثيراً، بل ندب شخصاً واحداً ليسمع حديثه ويؤدي ما سمع، ويشمل ذلك الأحكام والعقائد بما في ذلك إثبات صفات الله تعالى⁵².

بـ- حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهم في قصة تحويل القبلة قال: " بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ أتاهم آت فقال: إن رسول الله قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة".⁵³

والملصون في مسجد قباء جماعة من الصحابة وهم أهل سابقة في الإسلام، وأصحاب فقه في الدين، وقد كانوا متوجهين إلى قبلة يؤدون فريضة الصلاة، والاستقبال فيها شرط لصحتها، وقد استقبلوا قبلتهم تلك بفرض من الله، ولو كانوا يعتقدون أن خبر الواحد لا يفيد العلم، لما تركوا قبلتهم القديمة إلى قبلة جديدة لم يعلموها إلا بخبر شخص واحد، وهم لم يلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد، ولم يسمعوا الآية التي نزلت لتحويل القبلة.

وهذا التصرف من أولئك السادة يدل دلالة واضحة -وهم يعيشون في عصر نزول الوحي- أن خبر الواحد الثقة تقوم به الحجة، وهو مفيد للعلم قطعاً، والله أعلم.

والفرق بين الأحكام والعقيدة من حيث الاستدلال يطالب بنص صحيح وصريح وأن له

⁵¹ ولفظة (أمرأ) هذه التي وردت في حديث نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها... فيها الهمزة همزة وصل، المراد به الرجل، ومؤنته: امرأة، وقد تطلق اللفظة ويراد بها الإنسان، ويكون شاملًا للذكر والأنثى، وحركة الراء تابعة لحركة الهمزة، فضم وتفتح وتكسر تبعاً للراء، فيقال: جاء امرأ، ورأيت امرأ، ومررت بامرأ، مثل قوله تعالى: {إِنْ امْرُؤٌ هَلْكَ}، قوله: {كُلُّ امْرَءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، وقوله: {مَا كَانَ أَبُوكَ امْرُؤٌ أَمْرَأٌ سُوءٌ}.

⁵² انظر: دراسة حديث: "نصر الله امرأ..." للشيخ عبد المحسن العياد.
الحديث صحيح متواتر، أخرجه الحميدي في مسنده 47، والشافعي في الرسالة ص: 401، 402، وبدائع المتن 1/14، وأحمد رقم 4517 بتحقيق أحمد شاكر، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ص: 988، والترمذى 34/5، وابن ماجه 1/85.
راجع للتفصيل: دراسة نصر الله امرأ سمع مقالتي تأليف الشيخ عبد المحسن العياد، ط المدينة المنورة.
⁵³ أخرجه مالك في الموطأ 1/506، وأحمد 2/16، 113، والبخاري 8/173، 375، 175، 174، وأبي حماد 13/232، ومسلم 1/86.

ذلك؟!!

— حديث أنس بن مالك في تحريم الخمر قال: "كنت أسقي أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب شراباً من بطيخ وتمر، فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الجرار فاكسرها، فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت".⁵⁴

فهؤلاء نخبة من أصحاب رسول الله كانوا على شراب كان حلالاً لهم لأن يشربوا، فجاءهم آت يخبرهم بتحريمه، فبادر صاحب الجرار أبو طلحة بتكسيرها دون توقف، وقبل أن يقول هؤلاء، أو أحد من الحاضرين لمن أخبرهم بتحريم الخمر أفهم على حلها حتى يلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتبينوا الأمر، لأن المخبر واحد، وخبر الواحد لا يفيد العلم. كل ذلك لم يقع، ولكن الذي وقع أن القوم علموا بأن الحجة قائمة عليهم بحرمة الخمر، وأنه لا يجوز لهم أن يشربوا منها بعد هذا الخبر، فأقلعوا عن شرب الخمر بل كسروها جرارها وأرقوها امثلاً للتحريم الذي علموه بخبر الواحد.

— حديث بعث معاذ بن جبل إلى اليمن داعية ومفتياً وحاكمًا، وفي مقدمة ما يدعو الناس إليه توحيد الله بالعبادة، وهو أصل الأصول وأساس الدين، وهو فرد واحد في منطقته التي يقوم فيها بالدعوة، وتعليم الناس ما فرض الله عليهم ويأخذ منهم ما وجب عليهم من الزكاة، بينما يعمل علي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري في مناطق أخرى في اليمن، كل على حدة، وكل واحد تقوم به الحجة في جهته.⁵⁵

وهناك عدد كبير من رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهم في الآفاق دعاةً وولاةً ومفتين، ومبليغين عن رسول الله ما بعث به، ومن هذا القبيل أمراء السرايا وحملة كتبه، ورسائله عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والأمراء في الأقطار والأقصارات، وهم عدد كبير جداً. يقول الإمام الشافعي في رسالته: "بعث في دهر واحد اثني عشر رسولاً إلى اثني عشر ملكاً يدعوهم إلى الإسلام".

⁵⁴ أخرجه البخاري 1/ 36 - 37 و 241/ 13، ومسلم 3/ 1572.

⁵⁵ أخرجه البخاري 8/ 60 و 13/ 347.

ومن راجع السنة وكتب السير يجد أمثلة كثيرة لهذا النوع من الأخبار التي يحملها شخص واحد أو أشخاص معدودون بعثوا إلى المسلمين في عهد النبوة وبعده، ولم يقل أحد من المبعوث إليهم للمبعوثين، والرسل والأمراء: "نحن لا نقبل أخبار الآحاد، أو لا تقوم علينا الحجة بأنباءكم هذه لأنها دون التواتر"، كل ذلك لم يقع ولا بعضه.

وهؤلاء الدعاة المبعوثون مثل معاذ وزملائه كعلي بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري إلى مناطق مختلفة في اليمن، وأولئك الأمراء والرسل إنما يبلغون عن رسول الله جميع ما بعث به من الدين، فروعاً وأصولاً في الأمصار.

وبسبق أن قلت في بعض النقاط السابقة: أن من يدعى أو يزعم أن للعقيدة من إثبات الصفات وغيرها أدلة معينة غير الأدلة التي يستدل بها على الأحكام، فعليه دليل فيما يدعى، وليس هناك دليل ولا بينة، وكل دعوة ليست عليها بينة فهي غير مقبولة قطعاً، والله الموفق. ذكر نصوص بعض الأئمة في إفادة خبر الواحد العلم:

وقد ذكر عدد غير قليل من أهل هذا الشأن أن أخبار الآحاد تفيد العلم نذكر منهم

الأئمة التالية أسماؤهم:

1- الإمام مالك بن أنس إمام دار المحرقة، المتوفى سنة 179هـ.

2- الإمام الشافعي، المتوفى سنة 204هـ.

3- أصحاب الإمام أبي حنفية مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

4- داود بن علي الظاهري وأصحابه كأبي محمد بن حزم.

5- أحمد بن حنبل في رواية عنه،⁵⁶ المتوفى سنة 241هـ.

يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن مكانة علم الحديث عند السلف وأهل الحديث: "إذا اجتمع في قلب المستمع لهذه الأخبار العلم بطريقتها، ومعرفة حال روائهما، وفهم معناها، حصل له (العلم الضروري) الذي لا يمكنه دفعه، ولهذا كان أئمة الحديث الذين لهم لسان صدق في الأمة قاطعين بمضمون هذه الأحاديث شاهدين بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم جازمين بأن من كذب بها، أو أنكر مضمونها فهو كافر مع علم من له اطلاع على

⁵⁶ مختصر الصواعق المرسلة ص: 474

سيرتهم وأحوالهم بأنهم من أعظم الناس صدقاً وأمانة وديانة، وأوفرهم عقولاً وأرشدهم تحفظاً وتحرياً للصدق، وبمحابية للكذب، وأن أحداً منهم لا يحيي في ذلك أباه ولا ابنه، ولا شيخه ولا صديقه، وأنهم حرروا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريراً لم يبلغه أحد سواهم، لا من الناقلين عن الأنبياء، ولا من غير الأنبياء، وهم شاهدوا شيوخهم على هذه الحال وأعظم، وأولئك شاهدوا من فوقهم كذلك وأبلغ حتى انتهى الأمر إلى من أثنى الله عليهم أحسن الثناء، وأخبر برضاه عنهم، واختياره لهم واتخاذه إياهم شهداء على الأمم يوم القيمة... إلى أن قال رحمة الله: قول هؤلاء الكاذبين في أخباره وسنته يجوز أن يكون رواة هذه الأخبار كاذبين أو غالطين، بمنزلة قول أعدائه يجوز أن يكون الذي جاءه به شيطان كاذب، وكل أحد يعلم أن أهل الحديث أصدق الطوائف كما قال عبد الله بن المبارك: (ووجدت الدين لأهل الحديث)، والكلام للمعتزلة، والكذب للرافضة، والحيل لأهل الرأي، وسوء الرأي والتبييد لآل بني فلان".

وإذا كان أهل الحديث عالمين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال هذه الأخبار وحدث بها في الأماكن والأوقات المتعددة، وعلمهم بذلك ضروري، لم يكن قول من لا عنایة له بالسنة والحديث: وأن هذه أخبار آحاد لا تفيق العلم مقبولاً عليهم، فإنهم يدعون العلم الضروري وخصومهم إما أن ينكروا حصوله لأنفسهم أو لأهل الحديث، فإن أنكروا حصوله لأنفسهم لم يقدح ذلك في حصوله لغيرهم، وإن أنكروا حصوله لأهل الحديث كانوا مكابرین لهم على ما يعلمونه من أنفسهم بمنزلة من يكابر غيره على ما يجده في نفسه من فرحة وألم، وخوفه وحبه⁵⁷.

ومن كل ما ذكرنا يتضح دون شك أن أخبار الآحاد تقوم بها الحجة في إثبات الصفات، وهو ما عليه المحققون من الأئمة الأربع، وغيرهم كثير كما تقدم، ولا عبرة لفلسفة المتكلمين وثرثرة أتباعهم من المعتزلة الذين شغلتهم الكلمات عن النظر في نصوص الكتاب والسنة والاهتداء بهما، بل أخذوا يلتمسون الهدى في غيرهما حتى استولت عليهم الحيرة، وانتهت حياة كبارهم إلى الحسرة والندم، وتحذير الناس عن الخوض في علم الكلام، والتوصية بالرجوع إلى الفطرة،

⁵⁷ مختصر الصواعق المرسلة ص: 471، 472

حتى قال قائلهم: (من حرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفي)⁵⁸ ، وسيأتي مزيد بحث لهذه النقطة إن شاء الله.

هكذا ثبت بتوفيق الله حجية القرآن والسنة في باب الأحكام الفقهية والعقيدة على حد سواء، وأنه لا يفرق بين الكتاب والسنة من حيث الاستدلال بهما، كما أثبتنا أنه لا فرق في كل ما ذكرنا بين المتواتر وبين الآحاد.

المبحث الرابع: إبطال شبه الزاعمين الاكتفاء بالقرآن

بعد أن استعرضنا الأدلة النقلية والعقلية لإثبات حجية القرآن والسنة في باب العقيدة، بل أثبتنا أنه لا فرق بين الأحاديث المتوترة وبين أخبار الآحاد في هذا الباب.

نرى أن نتبع ذلك بمناقشة موقف أولئك الذي ضل سعيهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم الذين زعموا وجوب الاكتفاء بالقرآن دون السنة، أو جواز ذلك في باب الأسماء والصفات خاصة وفي إثبات جميع الأحكام عامة، فنقول وبالله التوفيق:

إبطال شبه الزاعمين الاكتفاء بالقرآن دون السنة:

على الرغم من إجماع الأمة الإسلامية على أن السنة صנו القرآن، وأنها هي الحكمة المذكورة في القرآن في عديد من الآيات، وعلى الرغم مما هو معروف من أن الدين الإسلامي مستمد من الكتاب والسنة معاً عقيدة وأحكاماً، على الرغم من كل ذلك لم تسلم السنة من أقلام بعض المتهورين المتطرفين، ولفرط جهلهم أطلقوا على أنفسهم (القرآنيون) أي العاملون بالقرآن - في زعمهم - المكتفون به، المستغلون عن السنة، هذا تفسير كلمة (القرآنيون) بناء على زعمهم، ولكن التفسير المطابق لواقعهم إذا نظرنا إلى تصرفاتهم أنهم المحالفون للقرآن، اتباعاً للهوى، وتقليداً لبعض الزنادقة⁵⁹، التقليد الأعمى، لأنهم في واقعهم قد خرجوا على القرآن بخروجهم على السنة، لأنهما كالشيء الواحد من حيث العمل بهما، إذ السنة تفسير القرآن، ولأن القرآن نفسه يدعو إلى الأخذ بالسنة والعمل بها إيجاباً وسلباً، إذ يقول الله عز وجل: {وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}⁶⁰ ، والأمر بأخذ ما جاء به

⁵⁸ انظر: رسالة فتوى الحموية الكبرى، وشرح العقيدة الطحاوية.

⁵⁹ الزنديق: من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، القاموس المحيط. وبهذا المعنى الزنديق والمنافق لفظان مترادافان.

⁶⁰ سورة الحشر آية: 7.

الرسول صلى الله عليه وسلم يشمل كل ما صحت به السنة المطهرة من الأحكام وإثبات صفات الله وإثبات المعاد وغير ذلك، ورد في القرآن أو لم يرد لأن ذلك من مقتضى الإيمان بالرسول ورسالته، وما لا شك فيه أنه لا يتم الإيمان بالقرآن إلا بالإيمان الصادق. من أنزل عليه القرآن، والإيمان به صلى الله عليه وسلم إنما يعني تصديقه في أخباره واتباع أوامره ونواهيه، وقد أوجب الله طاعته على وجه الاستقلال في قوله تعالى: **{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَعْلَمُ**⁶¹.

وهو أمر لا يختلف فيه اثنان مسلمان، وأما هؤلاء القرآنيون الجدد فليس لهم سلف فيما ذهبوا إليه إلا غلاة الروافضة⁶² والزنادقة الذين في قلوبهم مرض كراهة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عن أصحاب رسوله.

وهو هؤلاء الروافض مرضى القلوب زعموا - وبئس ما زعموا - وجوب الاكتفاء بالقرآن والاستغناء عن السنة مطلقاً في أصول الدين وفروعه، لأن الأحاديث في زعمهم رواية قوم كفار حيث كانوا يعتقدون أن النبوة إنما كانت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأن جبريل أخطأ فنزل بها إلى محمد صلى الله عليه وسلم بدل أن ينزل بها إلى علي رضي الله عنه، وهذا الزعم الفاسد والقولة الجريئة هي أساس شبهة الروافض في رد الأحاديث التبوية، وهي شبهة مختلقة كما ترى.

ومن لوازم رأيهم الفاسد هذا أن أمر الوحي مضطرب، فلا يصدر من لدن عليم حكيم الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بل يتصرف فيه ملك الوحي كما يشاء ويختار، ينزل بالوحي على من يشاء ويعدل عنمن يشاء بالوحي، كما يفهم من قول هؤلاء الروافض أن ملك الوحي نفسه غير معصوم أو غير أمين على الوحي وعلى أداءأمانة الرسالة، إذاً فما مدى إيمان الروافض بالله أولاً، ثم بالملائكة والنبيين عامة، وبخاتم النبيين خاصة، وبالكتاب الذي نزل عليه؟!!

وبعد: فلقد حاول هؤلاء الزنادقة والروافض إزالة السنن من الوجود والقضاء عليها - لو

⁶¹ سورة النساء آية: 59.

⁶² الروافضة: فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي، ثم قالوا له: تبرا من الشيوخين فأبى، وقال: كانا وزيرين لجدي، فتركوه ورفضوه وانفضوا عنه، والنسبة راضي، وهذا سبب تسميتهم الروافضة.

استطاعوا- أو أن يجعلوا وجودها شكلياً فاقداً للقيمة، إلا أنهم لم ينالوا خيراً، ولم يستطعوا أن ينالوا من السنة شيئاً، فانقلبوا خاسرين ومهزومين، مثلهم كمثل الذي يحاول قلع جبل أحد مثلاً فأخذ يوم حوله وفي سفحه لينقل من أحجاره حجراً حجراً ظناً من أنه يمكنه بصنعيه هذا قلع الجبل وإزالته من مكانه، أو كالذي يغترف من البحر اغترافاً بيده أو بدلوه محاولاً بذلك أن ينفذ البحر أو ينقص.

وما من شك أن هذا المسكين سوف تنتهي أوقاته ويجيء أجله المحدود والمحظى، والجبل باق مكانه شاخحاً ليصعد أصحاب الخبرة ويترددوا بين شعابه، ليعشروا على ما قد يخفي على غيرهم، بين تلك الشعاب المتنوعة التي لا يفطن لها غيرهم إذ لكل ميدان رجال.

كما يبقى البحر ثابتاً مكانه ليغوص الغواصون من رجال هذا الشأن، فيخرجوا للناس الآلئ والدرر من مسائل علم الحديث النافعة، ذلك فضل الله يؤتى من يشاء، هذه نهاية محاولة الروافض ومن يسرون في ركابهم وقد أرادوا أن يجدوا ما يتعللون به من الأخبار التي تشهد لما ذهبوا إليه من قريب أو من بعيد، فعشروا في أثناء بحثهم على كلام باطل بطلان مذهبهم ونصله هكذا: "ما جاءكم عني فاعرضوه على الكتاب، مما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فإني لم أقله"، وكل من له نظر في هذا العلم الشريف يدرك أن هذا الكلام ليس من منطق الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا يظهر عليه نور النبوة كما ترى، وعلى الرغم من ذلك فإن القوم قد طاروا به فرحاً، ظناً منهم أنه نافع لهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفلتوا بحديثهم هذا من أيدي حراس السنة الذين لم يتم عيونهم الساهرة حفاظاً على السنة بل عشروا على حديثهم ذلك، فأعلنوا عنه أنه من أباطيلهم ودسائسهم، حتى عرفه الناس على حقيقته بعد أن سحلوه في كتبهم، فأجروا له عمليتهم الخاصة، وفندوه وجرحوه وعرووه أمام القراء حتى انكشف حاله، فللهم الحمد والمنة.

يقول السيوطي في رسالته الطليقة (مفتاح الجنة)⁶³: "قال البيهقي: باب بطلان ما يحتاج به بعض من رد السنة من الأخبار التي رواها بعض الضعفاء في عرض السنة على القرآن، قال الشافعي رحمه الله: احتج على بعض من رد الأخبار بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: "ما جاءكم عني فاعرضوه على الكتاب، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فأنا لم أقله"⁶⁴، فقلت له: ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير أو كبير، وإنما هي روایة منقطعة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الروایة. اهـ كلام الشافعي.

قال البيهقي: أشار الإمام الشافعي إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا اليهود، فسألهم فحدثوه حتى كذبوا على عيسى عليه السلام، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فخطب الناس فقال: "بأن الحديث سيفشو عني، مما أتاكم يوافق القرآن فهو عني، وما أتاكم يخالف القرآن فليس عني".

قال البيهقي: خالد مجهول، وأبو جعفر ليس صحابياً، فالحديث منقطع⁶⁵.

وقال الشافعي: ليس يخالف الحديث القرآن، ولكن الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين معنى ما أراد خاصاً أو عاماً، وناسخاً ومنسوخاً. ثم التزم الناس ما سن بفرض الله، فمن قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن الله قبل، ثم ذكر السيوطي بقية كلام البيهقي حول الحديث، وقد نقل البيهقي عن الإمام الشافعي نقولاً كثيرة في هذا الصدد نختار منها الآتي:

1 - قال البيهقي: قال الإمام الشافعي رحمه الله: "سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أوجه: أحدها: ما أنزل الله فيه نص كتاب، فمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل نص الكتاب.

ثانيها: ما أنزل فيه جملة كتاب، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله معنى ما أراد بالجملة وأوضح كيف فرضها عاماً أو خاصاً، وكيف أراد أن يأتي به العباد.

ثالثها: ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نص كتاب، فمنهم من قال: جعله الله له بما افترض من طاعته، وسبق في علمه من توفيقه له ورضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب، ومنهم من قال: لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب، كتبين عدد الصلاة

⁶⁴ قال ابن مهدي: الزنادقة والخوارج وضعوا الحديث، وانظر كلام أهل العلم حول الحديث في إرشاد الفحول ص: 33.

⁶⁵ خالد بن أبي كريمة، قال الحافظ ابن حجر: صدوق يخطئ ويرسل. التقريب 1/218.

أبو جعفر هو: عبد الله بن صور المدائني، قال أحمد وغيره: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك. ميزان الاعتدال 2/504.

و عملها على أصل جملة فرض الصلاة، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من التشريع، لأن الله تعالى ذكره قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ} ⁶⁶، وقال: {وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا} ⁶⁷، فما أحل وحرم مما بين فيه عن الله كما بين في الصلاة، ومنهم من قال: بل جاءته به رسالة الله فثبتت سنته بفرض الله تعالى ⁶⁸.

و منهم من قال: كل ما سن، و سنته هي الحكمة التي أقيمت في روعه من الله تعالى "انتهى كلام الشافعي".

وقال الشافعي في موضع آخر: "كل ما سن فقد ألزمنا الله تعالى اتباعه، وجعل اتباعه طاعته، والعدول عن اتباعه معصيته، التي لم يعذر بها خلقاً، ولم يجعل له في اتباع سنن نبيه مخرجاً".

قال البيهقي: "باب ما أمر الله به من طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والبيان أن طاعته طاعته"، ثم ساق الآيات التالية: قال الله: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ تَكَثَ فِإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ⁶⁹، وقال عز من قائل: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدِ أطَاعَ اللَّهَ} ⁷⁰، إلى غيرهما من الآيات البينات التي مضمونها أن طاعة رسوله طاعته سبحانه، وأن معصيته معصيته تعالى.

ثم أورد البيهقي رحمه الله: حديث أبي رافع رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مُتَكَبِّرًا عَلَى أَرِيكَتَهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مَا أَمْرَتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهِ يَقُولُ: لَا أَدْرِي؟ مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ" ⁷¹.

و من حديث المقدم بن معدى كرب قال: "إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَمَ أَشْيَاءَ يَوْمِ خَبِيرَ كَالْحَمَارِ الْأَهْلِيِّ وَغَيْرِهِ" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ أَنْ يَقْعُدَ رَجُلٌ

⁶⁶ سورة النساء آية: 29.

⁶⁷ سورة البقرة آية: 275.

⁶⁸ وللإمام الشافعي كلام مقارب في الرسالة ص: 20 تحقيق أحمد شاكر.

⁶⁹ سورة الفتح آية: 10.

⁷⁰ سورة النساء آية: 80.

⁷¹ أخرجه أحمد 6/8، وأبو داود 5/12، والحاكم 1/108، والترمذى 5/36، وصححه الترمذى، كما صححه الحاكم على شرط الشيختين وأقره الذهبى.

على أريكته يحدث بحدishi فيقول: بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمته، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله".⁷²

ثم قال البيهقي رحمه الله: وهذا خبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يكون بعده من رد المبتدعة حدسيه، فوجد تصديقه فيما بعد.

وما قاله الإمام البيهقي في هذا المقام: "ولولا ثبوت الحجة بالسنة لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته بعد تعليمه من شهده أمر دينهم: "ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أو عى من سامع".⁷³

هذا... وإذا كانت شبهة الروافض والزنادقة في رد أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم زاعمين الاكتفاء بالقرآن ما تقدم ذكره من موقفهم العدائى من الصحابة فما حجة القرآنين الجدد؟ فليس لهم شبهة تذكر إلا ما كان من حب الظهور، ولو على حساب الكفر برسول الله، أو مجرد التقليد الأعمى، أو ما كان من عداء كامن للإسلام لم يمكن إظهاره إلا في هذه الصورة، ومهما يكن من أمرهم فإن القرآنين الجدد أصل مذهبهم راجع إلى ما كان عليه غالة الروافض.

وقد عرفت شبهتهم فيئس التابع والمتبوع أو المقلّد والمُقلّد.

وبعد أن ذكر الإمام السيوطي في رسالته (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) شبهتهم تلك قال مستهجناً لها ومستقبحاً: "ما كنت أستحل حكایتها لو لا ما دعت إليه الضرورة من بيان أصل هذا الرأي الفاسد الذي كان الناس في راحة منه من أعصار إلى أن قال: وقد كان أهل هذا الرأي موجودين بكثرة في زمن الأئمة الأربع، وتصدى الأئمة وأصحابهم للرد عليهم في دروسهم ومناظراتهم وتصانيفهم".⁷⁴

ثم ساق من نصوص كلامهم الشيء الكثير في الرسالة المذكورة، ولا بن خزيمة كلام نفيس في هذا المعنى.⁷⁵

⁷² أخرجه أحمد 131/4، 132، وأبو داود 12/5، والترمذى 36/5، وابن ماجه 6/1، والحاكم 109/1، وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه.

⁷³ من حديث أبي يكر في خطبة حجة الوداع، أخرجه: أحمد 37/5، 39، والبخاري 157/1، 158، ومسلم 3/1306، والدارمي 67/2، وابن ماجه 1/85.

⁷⁴ مفتاح الجنة للسيوطى ص: 3.

⁷⁵ التوحيد لابن خزيمة ص: 47، مراجعة خليل هراس وتعليقه.

وبعد: فدعوى الاكتفاء بالقرآن ومحاولة الاستغناء عن السنة إنما تعني الاستغناء عن الإسلام، أي تعني (الكفر) بأسلوب ملتو غير صريح لأمر ما، فأصحاب هذه الفكرة لا حظّ لهم في الإسلام ما لم يراجعوا الإسلام من جديد.

وبعد أن استعرضنا أدلة من الكتاب والسنة وأقوال بعض أهل العلم في أن السنة صنوا القرآن، ولا يفرق بينهما، فلنناقش هؤلاء الراعمين عقلياً ومن واقع حياة المسلمين في عبادتهم ومعاملاتهم، فهل يمكنهم الاكتفاء بالقرآن دون أن يجدوا أنفسهم مضطربين لمراجعة السنة في كثير من عبادتهم ومعاملاتهم حيث يجدون في السنة تفصيل ما أجمل في القرآن وما أكثره، وتقييد ما أطلق وعمم فيه.

بل ربما وجدوا أحكاماً جديدة هم بحاجة إليها لم يرد ذكرها في القرآن كما يجدون بعض الصفات الإلهية جاءت بها السنة ولم يرد لها ذكر في القرآن، إن الواقع الذي يعيشه المسلمون يجبر على هذا التساؤل وفي القرآن آيات يأمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس القرآن الذي أنزل عليه إذ يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلْغْ مَا أُنذِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} ⁷⁶، ويقول سبحانه: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} ⁷⁷، ويقول سبحانه أمراً لتابعه وحاثاً لهم على طاعته: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} ⁷⁸، {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} ⁷⁹.

وهذه الأوامر القرآنية والتوجيهات الإلهية تشير إلى أن هناك بياناً يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن على أتباعه طاعته، وأن يأخذوا ما يأتي به ويرسل لهم به، وعليهم أن يتبعوها عمما ينهاهم عنه، لأن طاعته من طاعة الله عز وجل، ولأنه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}.

وإذا أردنا أن نسوق أمثلة للأحكام التي أشرنا إليها لوجدنا الشيء الكثير منها: أن الصلاة للأحكام التي أشرنا إليها لوجدنا الشيء الكثير منها: أن الصلاة التي هي الركن الثاني

⁷⁶ سورة المائدة آية: 67.

⁷⁷ سورة النحل آية: 44.

⁷⁸ سورة الحشر آية: 7.

⁷⁹ سورة النساء آية: 80.

من أركان الإسلام، جاءت في القرآن مجملة هكذا: **{أَقِيمُوا الصَّلَاةَ}**، فما ترى كيف يقيم القرآنيون الصلاة؟! فسوف لا يجدون صفة الصلاة وكيفيتها، وبيان عدد ركعاتها ومحل الجهر والسر فيها، وغير ذلك من هيئات الصلاة إلا في السنة الفعلية أو القولية، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى هذا المعنى: "صلوا كما رأيتموني أصلني" ⁸⁰.

ولو تركنا الكلام في الصلاة، وانتقلنا إلى الزكاة لوجدنا القرآن قد أجمل أمر الزكاة كما أجمل أمر الصلاة، إذ نجد القرآن يقول: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}** ⁸¹، **{وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}** ⁸²، تقوم السنة ببيان الأموال التي تجب فيها الزكاة، وبيان أنصبة الزكاة، والمقدار المأخذ من كل نصاب على اختلاف الأموال، وهكذا نجد في باب الصيام أحكاماً لم ترد في القرآن، وبيتها السنة، منها: حكم من أتى امرأته في نهار رمضان وهو صائم ما الذي يجب عليه؟ ومن أكل في رمضان أو شرب ناسياً ماذا يصنع؟ هل يتم صيامه أو يفطر؟

أما الحج فمؤتمر إسلامي عام وضع له القرآن الخطوط العريضة، فقامت السنة ببيان تفاصيله من أوله إلى آخره، ولو تتبعنا الأبواب الفقهية من باب الطهارة إلى آخر باب في الفقه لوجدنا السنة وهي تبين ما أجمل في القرآن، أو تأتي بجديد على ضوء الآيات السالفة الذكر.

ولو تركنا الأحكام الفقهية وانتقلنا إلى مباحث العقيدة لوجدنا للسنة دورها الذي لا ينكره إلا من يجهلها أو لا يؤمن بها إذ نجد صفات الله تعالى إما ثابتة بالكتاب والسنة معاً، مع الدليل العقلي التابع للدليل الناطقي، وإما ثابتة بالسنة الصحيحة، ولم يرد لها ذكر في القرآن الكريم مثل الفرح والضحك والنزوول والقدم مثلاً.

فلا أظن الزاعم الاكتفاء بالقرآن يجد مفرأً بعد هذا البيان إلا إلى أحد أمرين:

1- الإيمان والاستسلام وهو خير له وأسلم بأن يعامل السنة معاملته للقرآن باعتبارها تفسيراً للقرآن.

2- الكفر بالقرآن والسنة معاً دون محاولة تفريق بينهما وهو غير عملي، كما ترى ويمكن أن يقال: إنه إيماني شكلي ببعض الوحي، وكفر سافر ببعض.

⁸⁰ صحيح البخاري الأذان 252 مع الفتح.

⁸¹ سورة النور آية: 56.

⁸² سورة الأنعام آية: 141.

المبحث الخامس: منهج السلف في إثبات صفات الله تعالى وأسمائه

بعد أن أثبتنا حجية كل من الكتاب والسنة في باب العقيدة دون تفريق بين الأحاديث المتوترة وأخبار الآحاد من حيث الاستدلال بها، ثم ناقشنا الزاعمين الاكتفاء بالقرآن دون السنة وأبىّن بطلان منهجهم. فجدير بنا أن نتحدث عن منهج السلف في إثبات صفات الله تعالى وأسمائه، وقبل أن نشرع في شرح المنهج وذكر قواعده فلنعرف من هم السلف؟

عندما نطلق كلمة السلف إنما يعني بها من الناحية الاصطلاحية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حضروا عصره فأخذوا منه هذا الدين مباشرة غصاً طرياً في أصوله وفروعه. كما يدخل في هذا الاصطلاح التابعون لهم الذين ورثوا علمهم قبل أن يطول عليه الأمد، والذين شملتهم شهادة الرسول لهم وثناؤه عليهم بأفدهم "خير الناس" حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني، ثم الذين يلوفهم، ثم الذين يلوفهم"⁸³، كما يشمل الاصطلاح تابعي التابعين.

وهو لفظ مصطلح عليه، وقد ظهر هذا الاصطلاح، واشتهر حين ظهر النزاع ودار حول أصول الدين بين الفرق الكلامية، وحاول الجميع الانتساب إلى السلف وأعلن أن ما هو عليه هو ما كان عليه السلف الصالح، فإذاً لا بد أن تظهر والحالة هذه أسس وقواعد واضحة المعالم وثابتة للاتجاه السلفي حتى لا يتبس الأمر على كل من يريد الاقتداء بهم، وينسج على منوالهم ويمكن إيجاز تلك القواعد فيما يلي:

القاعدة الأولى: تقديم النقل على العقل:

ولكن تقريرنا بأن النقل مقدم على العقل لا ينبغي أن يفهمن منه أن السلف ينكرون العقل والتوصل به إلى المعرف، والتفكير به في خلق السموات والأرض وفي الآيات الكونية الكثيرة لا، ولكنهم لا يسلكون في استعمال العقل الطريقة التي سلكها علماء الكلام في الاستدلال بالعقل وحده في المطالب الإلهية من محاولة الاكتفاء به أحياناً، لو استطاعوا، أو تقديسه بحيث

⁸³ أخرجه أحمد في مسنده 4/427، والبخاري مكرراً في عدة مواضع 5/285، ومسلم 4/1964، 1965، عن غير واحد من الصحابة عائشة رضي الله عنها وابن مسعود وأبي هريرة وعمران بن حصين.

يقدمونه على كلام الله خالق العقل والعقلاء، وعلى سنة رسوله التي هي وحي الله. بل إن السلف من منهجهم لا يدعون التعارض بين الدليلين، بل ينفون هذا التعارض الذي يصطنعه علماء الكلام المتأثرون بفلسفة اليونان، علماً بأن المسلك الذي سلكه علماء الكلام هو في الواقع مسلك الفلاسفة غير الإسلاميين في الأصل الذين لا يثبتون النبوات، ولا يرون أن إرسال الرسل، وما جاءوا به من نصوص الصفات، ونصوص المعاد أنها حقائق ثابتة. فكان أقوى شيء عندهم في الاستدلال على إثبات الأمور "العقل" ما أثبتته العقل فهو الثابت، وما نفاه العقل فهو المنفي، فورثوا التركة لعلماء الكلام.

أما المؤمنون الذين يؤمنون بالأنبياء وبالكتب المنزلة عليهم وبما جاء فيها، ويؤمنون أن الرسل كلفوا أن يبينوا للناس ما أنزل إليهم من ربهم: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنذِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} ⁸⁴ الآية، المؤمنون الذين يؤمنون هذا الإيمان فلا يجوز لهم أن يعرضوا عما جاءهم من ربهم من الكتاب والحكمة، وعن بيان رسولهم ليتمسوا الهدى في غيره، ويعتمدوا في إثبات الصفات على عقول الفلاسفة، أو عقول تلامذتهم المتأثرين بهم. ولو وصفوها أنها أدلة عقلية قطعية وبراهين يقينية، وهي في حقيقتها بضاعة غير "إسلامية" وهم يعلمون من أين جاءت، ومنى جاءت، ومن جاء بها، كما أشرنا آنفاً، ثم إنهم نصبوا العداء بينها وبين الوحي، فقد أغنى الله المؤمنين بكتابه المبين وسنة نبيه الأمين عن تكلف المتكلفين، ومن الوقوع في العنط معهم .⁸⁵

وبالاختصار: إن السلف إنما يقدمون الأدلة النقلية على الأدلة العقلية إيماناً منهم بأن الله أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب من عنده، وكلفهم بيان ما يحتاج إلى البيان "لأمر له شأنه" وهو أن ما جاء في هذه الكتب، وبلغته الرسل يعني عن كل شيء. وأما غيره فلا يعني عنه. هذه النقطة هي "سر المسألة" فلا يسع الخلف إلا اتباع السلف على أساس أهتم وأعلم وطريقتهم أحكم وأسلم.

وكل خير في اتباع من سلف

⁸⁴ سورة المائدة آية: 67.
⁸⁵ راجع صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام للسيوطى 1/ 223، تحقيق د. سامي النشار وسعاد علي عبد الرازق، مجمع البحوث الإسلامية.

وكل شر في ابتداع من خلف⁸⁶
ما أصدق مضمون هذا البيت علمًا أن قائله خلفي، وكأنَّ الناظم يشير بهذا البيت إلى
ال الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام: "كل محدثة بدعة، وكل
بدعة ضلالة".

وأما ما يسوقه بعض علماء الكلام من مصطلحاتهم الكلامية، فيطلق عليها أنها أدلة
قاطعة، فلا ينبغي أن تسلم هذه الدعوى، ولا سيما إذا عارضوا بها آيات قرآنية أو سنة نبوية
صحيحة، وهو الغالب عليه- للأسباب الآتية:

السبب الأول: أن كبار أئمتهم قد أدرکوا خطورة هذا الموقف على "إيمانهم" فرجعوا في
آخر حياتهم عن هذا المسلك إلى منهج السلف الذي نحن بصدده بيانه وفي مقدمتهم الإمام أبو
الحسن الأشعري الذي عاش أربعين عاماً في الاعتزال، وهو إمامهم ثم تاب الله عليه فتاب.
وسوف يأتي مزيد بيان لهذه النقطة إن شاء الله عند الترجمة لبعضهم.

السبب الثاني: لا يجوز شرعاً، ولا يستساغ عقلاً أن يعارض كلام الخالق العليم
بالمصطلحات التي وضعها المخلوق الجاهل الضعيف. وخاصة إذا تصورنا أن واضعي هذه
المصطلحات من غير المسلمين في الغالب الكثير، كما أشرنا آنفاً.

السبب الثالث: أن موافقتهم فيما ذهبوا إليه تؤدي إلى الاستخفاف بأدلة الكتاب والسنة
 وأنها لا قيمة لها، حيث لا يستدل بها على وجه الاستقلال، وإنما تعرض عرضًا شكلياً - كما
هو الواقع، وللأسف لدى كثير من الكلاميين على الرغم من إيمانهم في الظاهر.

فلا بد من العمل بهذه النصوص بالاستدلال بها ليصدق الإيمان بها، هذا ما يعنيه الإيمان
بالكتاب والسنة.

ومما يوضح ما ذهبنا إليه من أن القاعدة الأساسية عند السلف في باب الأسماء والصفات
"تقدير النقل على العقل" موقف عبد العزيز المكي في حواره مع بشر المرسي بين يدي
المؤمن، حيث حرص عبد العزيز على بيان منهج السلف وتحديده قبل الشروع في الحوار
ليكون هو الأساس والمرجع عندما يختلف هو وبشر أثناء الحوار، ولما طالبه المؤمن أن يوضح

⁸⁶ صاحب جوهرة التوحيد.

أصل ذلك المنهج أبان بإيجاز حيث تلا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} .⁸⁷

ثم يَبْيَنُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةً اخْتَارَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدْبَهُمْ بِهَا وَعَلِمُهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْعُهُمْ عِنْدَ التَّنَازُعِ فِي أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابِهِ وَإِلَى رَسُولِهِ فِي حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِلَى أَخْبَارِهِ وَسِنْتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ لِحلِ النَّزَاعِ. وَكُلُّ مَا خَالَفُهُمَا يُجَبُ رَفْضُهُ وَعدَمُ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: فَقَدْ تَنَازَعْنَا أَنَا وَبَشَرٌ وَبَيْنَنَا كِتَابُ اللَّهِ وَسِنَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمِنْ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ نَفْسَهُ وَجُوبُ الرَّجُوعِ إِلَيْهِمَا. مَكْتَفِيُّنَاهُمَا حَكْمًا لِحلِ نَزَاعِنَا. فَأَفَقَرَ الْمُؤْمِنُونَ هَذِهِ الْمَنْهَاجَ الَّذِي عَرَضَهُ الْمَكِيُّ، وَحَقِيقَتُهُ: تَقْدِيمُ النَّقلِ عَلَى الْعُقْلِ، وَاعتَبَارُ النَّقلِ مَرْجِعًا أَسَاسِيًّا فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ، بَلْ وَفِي كُلِّ بَابٍ.

وَالَّذِي يَدْلِنَا عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ مَنْهَاجُ السَّلْفِ وَمَذَهَبُهُمْ أَنَّ الصَّحَابَةَ نَقَلُوا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ وَأَخْبَارَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. نَقْلٌ مَصْدَقٌ غَيْرُ مَرْتَابٍ فِي صَدْقَةِ قَائِلِهِ وَصَدْقَةِ مَا يَقُولُهُ وَيَنْقُلُهُ، ثُمَّ لَمْ يَؤْوِلُوا مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِالصَّفَاتِ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ، بَلْ كَانُوا يُنْكِرُونَ بَعْنَفٍ عَلَى مَنْ يَتَبَعُ الْغَوَامِضَ مِنْ نَصْوصِ هَذِهِ الْبَابِ، وَرَبِّمَا ضَرَبُوهُ⁸⁸ لِئَلَّا يَفْتَنَ النَّاسَ بِالتَّأْوِيلِ، فَدَلَّ ذَلِكُ عَلَى أَنَّ مَنْهَاجَهُمْ هُوَ اتِّبَاعُ النَّقلِ فَقْطًا مَعَ دُمَّ تَأْوِيلِهِ⁸⁹.

فَخَلَاصَةُ قَوَاعِدِهِمْ:

- 1- تَقْدِيمُ النَّقلِ.
- 2- عَدَمُ التَّأْوِيلِ.
- 3- عَدَمُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالسِّنَةِ.

وَسُوفَ نَفْصُلُ ذَلِكَ فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَقَدْ كَانَ اللاحِقُ مِنْهُمْ يُحرِصُ عَلَى فَهْمِ هَذِهِ الْمَنْهَاجِ مِنَ السَّابِقِ مِنْهُمْ وَيَأْخُذُ بِتَفْسِيرِهِ وَلَا

⁸⁷ سورة النساء آية: 59
⁸⁸ إِشارةٌ إِلَى مَا فَعَلَهُ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِيثُ ضَرَبَ "صَبِيغاً"، ثُمَّ نَفَاهُ إِلَى الْبَصَرَةِ وَأَمَرَ النَّاسَ بِعَدَمِ مَجَالِسِهِ، وَصَبَيَّغَ عَلَى وزَنِ أَمِيرٍ وَهُوَ أَبْنَ عَسَيْلٍ وَقَصْتَهُ مَعْرُوفَةً.

⁸⁹ راجع: مَنْهَاجُ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالسِّنَةِ لِدَكْتُورِ مُصْطَفَى حَلْمِي ص: 122، طِدارِ الدِّعَوةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ.

يخالفه، ويأخذ الأوائل قدوة، لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم، فكانوا أعلم بتفسيره من بعدهم.

وبروي لنا في هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية ما كان يقوله الإمام مالك بن أنس نقلًا عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم جمعاً حيث يقول عمر: "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال الطاعة لله، وقوة على دين الله، وليس لأحد من خلق الله تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها. من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وسأله مصيراً".⁹⁰

وهو كلام يلقي صوغاً واضحاً على ما أشرنا إليه آنفًا أن اللاحق منهم يقتدي بالسابق. ثم إنهم كانوا متفقين غير مختلفين في أصول الدين، ولم تظهر فيهم البدع والأهواء، وهم أهل الحديث وحافظه ورواته وعلماؤه المتبعون للآثار، لا الآراء وذلك سبيل المؤمنين⁹¹، واقفين عند قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} .⁹²

ومن سبيلهم في باب الاعتقاد، الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم لا يزيدون ولا ينقصون ولا يفسرونها فيما يخالف ظاهرها الذي يظهر من وضع اللفظ العربي، ولا يشبهونها بصفات المخلوقين، بل يمرونها كما جاءت ويردون علم حقيقتها إلى قائلها، مع اعتقاد أنها على الحقيقة وكثير ما يحيل التابعون ومن بعدهم من سائهم أو أراد أن يفهم ما أشكل عليهم يحيلونهم على علم الصحابة، والأمثلة على ذلك كثيرة في كلام الأئمة من التابعين ومن بعدهم.

ومن هذا السياق يتبيّن الفرق بين طریقتهم التي تخضع العقل للنقل وبين طریقة المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين يقدمون العقل على النقل، ويؤولون نصوص الكتاب والسنة حتى توافق العقل في زعمهم، والنصوص الصحيحة لا تختلف العقل الصريح كما سيأتي.

⁹⁰ ابن تيمية: الحموية الكبرى ص: 32، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة.

⁹¹ ابن تيمية مجموع الفتاوى 279/9.

⁹² سورة النساء آية: 115.

القاعدة الثانية: رفض التأویل⁹³. ولفظ التأویل قد صار مستعملاً في ثلاثة معان على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بتنوع الاصطلاحات:

أحدها: وهو اصطلاح كثير من المتأخرین - من المتكلمين - أن التأویل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به وهذا هو الذي عنه أكثر من تكلم من المتأخرین في تأویل النصوص، وهو الذي يرفضه أتباع السلف الصالح قديماً وحديثاً، لأنه يؤدي إلى القول على الله بغير علم.

النوع الثاني: التأویل الذي هو بمعنى التفسير والبيان، وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن حجر وغیره.

النوع الثالث: التأویل الذي بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام كما قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} ⁹⁴، وأمثلة هذا النوع كثيرة في القرآن، ولا سيما ما يتعلق بأخبار المعاد.

فالتأویل في اصطلاح المتكلمين إنما يعني اتخاذ العقل أصلاً حتى يكون النقل تابعاً له، فإذا ما ظهر تعارض بينهما - في زعمهم - فينبغي تأویل النص حتى يوافق العقل.

ولم يعلموا - أو هم يتجاهلون - أن الحجة العقلية الصریحة لا تعارض الحجة الشرعية الصحيحة. بل يمتنع تعارضهما إلا إذا كان هناك فساد في أحدهما أو فيهما جميعاً ⁹⁵، علماً بأن العقل إنما هو أمر معنوي يقوم بالعاقل سواء سمي عارضاً أم صفة، وليس هو عيناً قائمة بنفسها كما يعتبرها بعض الفلاسفة⁹⁶.

فالسلف يحتكمون إلى النصوص في كل شيء كتاباً وسنة، ويكتفون بها، ولا يعارضونها بالأدلة العقلية كما ذكرناه آنفاً.

القاعدة الثالثة: عدم التفريق بين الكتاب والسنة

⁹³ لأن المعنى المؤول إليه ظني بالاتفاق، كما قال الشهريستاني نقاً عن بعض أئمة السلف، كإمام مالك وأحمد، فلا يجوز القول في حق الله وفي صفاته بالظن، والتأویل المرفوض هو تأویل علماء الكلام الذي معناه الحقيقي التحريف فالتعطيل، وسيأتي كلامه في صلب الرسالة ص: 433.

⁹⁴ سورة الأعراف آية: 53.

⁹⁵ راجع: ابن تيمية الحموية الكبرى ص: 33.

⁹⁶ ابن تيمية مجموع الفتاوى 279/9 مطباع الرياض.

⁹⁷ د. مصطفى حلمي، قواعد المنهج السلفي ص: 35-46، ط دار الأنصار بالقاهرة 1396هـ/1976م.

يرى السلف أن السنة تبين الكتاب وتوضحه وتفسره، بل السنة خير تفسير يفسر به القرآن بعد القرآن، بل قد يتوقف فهم بعض ما أجمل في القرآن إلا بواسطة السنة، وقد ترد أحكام بل صفات من صفات الله تعالى في السنة غير مذكورة في الكتاب، فيجب الأخذ بها معاً دون محاولة تفريق بينهما، لأنها وحي من عند الله من حيث المعنى. ولقد رأينا السلف كيف استغرقوا في القرآن تلاوة وحفظاً وعکوفاً على تفسيره وفهمه، منفذين أحكامه ومستبطنين منه القواعد في النظر العقلية، ومستمددين منه حقائق عالم الغيب هذا.

ويتضح مما تقدم أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحاً معروفاً يطلق على طريقة الرعيل الأول، ومن يقتدون بهم في تلقي العلم، وطريقة فهمه، وبطبيعة الدعوة إليه، فلم يعد إدراً محصوراً في دور تاريخي معين، بل يجب أن يفهم على أنه مدلول مستمر استمرار الحياة وضرورة انحصار الفرقة الناجية في علماء الحديث والسنّة، وهم أصحاب هذا المنهج، وهي لا تزال باقية إلى يوم القيمة، أخذناً من قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي منصورين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم".⁹⁸

وموقفهم من هذا البحث واضح مما تقدم وهو الاتباع المطلق لأنه مبحث توفيقي لا يخضع للاجتهاد أو الاستحسان أو القياس، بأن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تحريف للنصوص باسم التأويل، ودون تشبيه لصفاته بصفات خلقه، انطلاقاً من قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}⁹⁹، {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}¹⁰⁰، وهنا ثلات نقاط ينبغي أن نعتبرها أساساً في هذا الباب:

1 - إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}{¹⁰¹}، كما لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} * {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}{¹⁰²}.

⁹⁸ أخرجه أحمد 93/4، والبخاري في العلم 164/1، وفرض الخمس 6/217، والاعتصام بالكتاب والسنّة 13/293، ومسلم 4/1524 من حديث معاوية رضي الله عنه.

⁹⁹ سورة الشورى آية: 11.

¹⁰⁰ سورة الإخلاص آية: 4.

¹⁰¹ سورة البقرة آية: 140.

¹⁰² سورة النجم آية: 3، 4.

2- تنزيه الله عز وجل من مشابهة الحوادث في صفاته في ضوء قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ¹⁰³، والآية تشتمل على التنزيه لله والإثبات معاً كما ترى.

3- عدم محاولة إدراك حقيقة صفاته كما لم تدرك حقيقة ذاته سبحانه إيماناً بقوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} ¹⁰⁴، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} ¹⁰⁵.

ومن التزم بهذه الأسس الثلاثة لا يكاد يتورط فيما تورط فيه المعطلون لصفات الله بدعوى التنزيه، ولا يقع في التشبيه بالبالغة في الإثبات بل هو دائماً على الحق الذي هو وسط بين الطرفين. وهو الذي عليه أئمة المسلمين بل كل إمام من الأئمة المشهود لهم بالإمامية يدعو إلى هذا المنهج فإليك نموذجاً من كلام بعضهم وهو شرح لما كان عليه الأمر عند الرعيل الأول:

أ- قال الإمام الأوزاعي: كنا - والتبعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات. نقل هذا التصریح عن الإمام الأوزاعي الإمام البیهقی في كتابه "الأسماء والصفات" ¹⁰⁶، وهو تصریح يدل على إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة المستند إلى صریح الكتاب وصحیح السنة في صفة الاستواء وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

والإمام الأوزاعي - كما يصفه شیخ الإسلام ابن تیمیة - أحد الأئمة الأربع الذين كانوا في عصر تابع التابعين وهم:

1- مالک بن أنس بالحجاج المتوفى سنة 179ھـ.

2- الأوزاعي بالشام المتوفى سنة 157ھـ.

3- الليث بن سعد بمصر المتوفى سنة 175ھـ.

4- الثوري بالعراق المتوفى سنة 161ھـ.

¹⁰³ سورة الشورى آية: 11.

¹⁰⁴ سورة طه آية: 110.

¹⁰⁵ انظر أضواء البيان 304/3، تفسیر سورة الأعراف.

¹⁰⁶ الأسماء والصفات ص: 408.

وصحح ابن تیمیة إسناده في الفتوى الحمویة الكبرى، وأورد ذهبي في سیر أعلام النبلاء 355/8، وفي العلو كما في مختصره للأبانی ص: 138.

وذكر الأوزاعي هذا الإجماع عندما ظهر جهم بن صفوان منكراً كون الله تعالى فوق عرشه، بل نافياً جميع صفات الله تعالى ذكره ليعرف الناس أن ما نادى به جهم مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومصطدم من منهجهم لئلا ينطلي على عامنة الناس دعوه بأن ما انتهى إليه مؤيد بالبراهين العقلية التي هي في واقعها وهميات وخیالات لا حقيقة لها.

بـ- سئل الإمام محمد بن شهاب الزهري "المتوفى سنة 125" والإمام مكحول "توفي وله بضع عشرة سنة بعد المائة" سئلاً عن تفسير أحاديث الصفات؟ فقالا: أمروها كما جاءت.

وروي مثل هذا الجواب عن الإمام مالك، واللثيم، والثوري، فقالوا جميعاً في أحاديث الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف.

والزهري ومكحول -كما يصفهما الإمام ابن تيمية- من أعلم التابعين، ووصف الأربعه الذين تقدم ذكرهم، وهم مالك وزملاؤه أنهم أئمة الدنيا في عصر تابع التابعين. وفي الوقت الذي يحيثون على المنهج السلفي، فإنهم يحدرون الناس عن منهج أهل الكلام. فهذا الإمام الشافعي يقول في ذم أهل الكلام والتنفير عنه: "حكمي في أهل الكلام أن يُطاف بهم في القبائل والعشائر ويضرموا بالجريدة، ويقال: هذا جزء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام" ¹⁰⁷ اهـ.

أما الإمام مالك ¹⁰⁸ فما أروع ما قاله! في هذا الصدد، إذ يقول رحمه الله: "أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء؟!" ¹⁰⁹.

وبعد: فلو أن مسألة من المسائل الفقهية الفرعية نالت مثل هذا الاتفاق من هؤلاء الأئمة الأعلام دون أن يشذ عنهم أو يخالف أحد تضرر مخالفته اعتبرت مسألة إجماعية. وعيب على كل من يخالف هذا الإجماع وأنكر عليه العموم قبل العالم، فلا غرو إذا أنكر أتباع السلف

¹⁰⁷ انظر قوله في مناقب الشافعي للبيهقي 1/462.

¹⁰⁸ تقدم قوله.

¹⁰⁹ ابن تيمية، مجموع الفتاوى 5/29-31 بالمعنى.

على من يخرج على هذا المنهج الذي أجمع عليه الصحابة وعلماء التابعين، كما علمنا من كلام الإمام الأوزاعي رحمه الله.

المبحث السادس: مفهوم الذات الإلهية عند علماء الحديث والسنّة
بعد أن أوضحنا منهج السلف في إثبات صفات الله تعالى وأسمائه، وأبناً أن منهجهم لا يتجاوز الكتاب والسنّة.

سنسنعرض فيما يأتي الاصطلاحات التالية مرتبة:

- 1- مفهوم الذات الإلهية عند علماء الحديث والسنّة.
- 2- ثم تحدث عن معنى الإلهية لغة وشرعاً.
- 3- تتبع ذلك بالكلام على معنى الصفة الإلهية لغة واصطلاحاً.
- 4- ثم تتناول بالبحث مفهوم الذات في القرآن الكريم وفي السنّة المطهرة.

أما مفهوم الذات الإلهية عند علماء الحديث والسنّة:

ف ذاته تعالى كاملة الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد، فلا تشبه ذاته ذوات خلقه بل لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه.

وذاته موصوفة بجميع الكمالات التي لا تعد ولا تحصى، وإلى هذا المعنى يشير رسول المهدى صلى الله عليه وسلم، حيث يقول في بعض دعائه وتضرعاته وهو ساجد لله سبحانه: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"¹¹⁰، وزعمت المعتزلة - وبئس ما زعموا - أن اتصافه تعالى بالصفات يتناهى والوحدانية، أو على حد تعبيرهم أن وصفه تعالى بصفات زائدة على الذات يؤدي إلى تعدد القدماء. وهو ينافي التوحيد، والمراد بالتوحيد هنا "التوحيد" في مفهوم المعتزلة الذي سيأتي ذكره وتفسيره عند الكلام على أصولهم الخمسة المعروفة¹¹¹، وهو مفهوم خاطئ كما لا يخفى على كل من له إلمام بالموضوع.
بل الممنوع الذي لا يساير التوحيد الصحيح هو إثبات ذوات قديمة لا إثبات ذات

¹¹⁰ أخرجه مالك 1/167، وأحمد 6/58، ومسلم 1/352، وأبو داود 1/547، والترمذى 4/524 و5/562، وابن ماجه 2/1263 من حديث عائشة رضي الله عنها.

¹¹¹ انظر ص: 147.

موصوفة بصفات الكمال. قال صاحب المواقف: "إن الكفر إثبات ذات ذوات" ¹¹²، وشبهة المعتزلة - كما ترى - شبهة واهية وغير معقوله، إذ لا يتصور عقلاً موجود في الخارج وهو مجرد عن الصفات، وعلى هذا يكون وجود واجب الوجود عندهم وجوداً ذهنياً لا خارجياً. تعالى الله عما زعموا علوًّا كبيراً.

وأما علم حقيقة ذاته وكيفيتها فأمر لا سبيل إليه لأي مخلوق، إذ ليس من الجائز أن يحيط المخلوق بالخالق علماً وإدراكاً لحقيقة ذاتاً وصفاً، وصدق الله حيث يقول: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} ¹¹³، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ¹¹⁴، قال صاحب المواقف: "إن ذاته مخالفة لسائر الذوات، فهو منزه عن المثل والنل، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً"، ثم قال: "قال قدماء المتكلمين: ذاته تعالى مماثلة لسائر الذوات وإنما تمتاز عن سائر الذوات بأحوال أربعة:

1- الوجوب

2- الحياة.

3- العلم التام

4- القدرة التامة.

وعند أبي هاشم تمتاز بحالة خامسة وهي الموجبة لهذه الأربعة يسمونها "بالإلهية"، ثم قال صاحب المواقف: "لنا لو شاركه غيره في ذاته لخالقه بالتعيين ضرورة الاثنينية، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز" ¹¹⁵ ا.هـ

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد نقاً عن السهيلي اللغوي: "وأما الذات فقد استهوى أكثر الناس ولا سيما المتكلمين، القول فيها أنها في معنى النفس والحقيقة. ويقولون: ذات البارئ هي نفسه، ويعبرون بها عن وجوده وحقيقة. ويختجون في إطلاق ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام في قصة إبراهيم: "ثلاث كذبات كلهن في ذات الله" ¹¹⁶، وقول خبيب: "وذلك في ذات الإله" ¹¹⁷، قال: وليس هذه اللفظة إذا استقررتها في اللغة والشريعة

¹¹² الأيجي في المواقف ص: 280.

¹¹³ سورة طه آية: 110.

¹¹⁴ سورة الإسراء آية: 85.

¹¹⁵ المواقف في علم الكلام ص: 269.

¹¹⁶ أخرجه البخاري 338/6 من حديث أبي هريرة.

¹¹⁷ أخرجه البخاري 379/7.

كما زعموا، ولو كان كذلك لجائز أن يقال عند ذات الله واحذر ذات الله، كما قال تعالى: **{وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**¹¹⁸، وذلك غير مسموع، ولا يقال إلا بحرف "في" الجارة وحرف "في" للوعاء، وهو معنى مستحيل على نفس البارئ تعالى، إذا قلت: جاهدت في الله تعالى وأحببتك في الله تعالى محال أن يكون هذا اللفظ حقيقة، لما يدل عليه هذا الحرف من معنى الوعاء. وإنما هو على حذف المضاف أي في مرضاه الله وطاعته، فيكون الحرف على بابه كأنك قلت: هذا محبوب في الأعمال التي في مرضاه الله وطاعته، وأما أن تدع اللفظ على ظاهره فمحال.

وإذا ثبت هذا قوله في ذات الله أو في ذات الإله إنما يريد في الديانة والشريعة التي هي ذات الإله، فذات وصف للديانة، وكذلك هي في الأصل، موضوعها نعت مؤنث. ألا ترى فيها تاء التأنيث وإذا كان الأمر كذلك فقد صارت عبارة عما تشرف بالإضافة إلى الله تعالى عز وجل، لا عن نفسه سبحانه، وهذا هو المفهوم من كلام العرب، ألا ترى إلى قول النابغة:

يجلهم ذات الإله ودينهم

فقد باع غلط من جعل هذه اللفظة عبارة عن نفس ما أضيف إليه "اهـ" كلام السهيلي. وقال الحافظ ابن القيم معلقاً على هذا الكلام ومستحسناً: "وهذا من كلامه من المرقصات فإنه أحسن فيه ما شاء".

وأصل هذه اللفظة هو تأنيث "ذو" بمعنى صاحب، فذات كذا صاحبة كذا في الأصل. ولهذا لا يقال ذات الشيء إلا لما له صفات ونحوت تضاف إليه فكأنه يقول: صاحبة هذه الصفات والنحوت، ولهذا أنكر جماعة من النحاة منهم ابن "هان" وغيره على الأصوليين قولهم "الذات"، وقالوا: لا مدخل للألف واللام هنا كما لا يقال "الذو" في "ذو" وهذا إنكار صحيح، والاعتذار عنهم أن لفظة الذات في اصطلاحهم قد صارت عبارة عن نفس الشيء وحقيقة وعينه، فلما استعملوها استعمال النفس والحقيقة عرفوها باللام وجدرها، ومن هنا غلطهم السهيلي. فإن الاستعمال، والتحريف أمر اصطلاحي لا لغوي، فإن العرب لا تکاد تقول رأيت الشيء لعينه ونفسه، وإنما يقولون ذلك لما هو منسوب ومن جهته. وهذا كجنب

¹¹⁸ سورة آل عمران آية 28، 30

الشيء. إذا قالوا: هذا في جنب الله لا يريدون إلا فيما ينسب إليه من سبileه ومرضاته وطاعته لا يريدون غير هذا البتة. فلما اصطلاح المتكلمون على إطلاق الذات على النفس والحقيقة، ظن من ظن أن هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث كذبات في ذات الله" وقول خبيب رضي الله عنه: "وذلك في ذات الإله"، فغلط واستحق التغليط، بل الذات هنا كاجنب في قوله تعالى: {مَيَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} ¹¹⁹، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال هاهنا: فرطت في نفس الله وحقيقة. ويحسن أن يقال: فرطت في ذات الله كما يقال: فعل كذا في ذات الله، وقتل في ذات الله، وصبر في ذات الله، فتأمل ذلك فإنه من المباحث العزيزة الغريبة التي يشئ على مثلها الخناصر ¹²⁰.

الفصل الأول: معنى الإلهية لغة وشرعًا

قال أهل اللغة: إن "إله" فعال بمعنى مفعول، مثل كتاب بمعنى مكتوب، وإمام بمعنى مؤتم به، فيكون معناه "معبود" ويقال: "أَلَهٌ" يأله بالفتح فيهما "إله" أي عبادة وفيه قراءة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم **{وبذرك وإلاهتك}** بكسر الهمزة أي عبادتك. وكان يقول: إن فرعون كان "يعبد" ومنه قوله "الله أصله إله" على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي معبود، فلما دخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة في الكلام و"إلهة" اسم للشمس غير مصروف بلا ألف ولا م، وربما صرفوه وأدخلوا عليه الألف واللام، فقالوا: "إلاهة" كأنهم سموها "إلاهة" لتعظيمهم لها وعبادتهم إليها، ومنه بيت لميّة بنت عتبة بن الحارث:

تروحنا من اللعباء قسرا
فأعجلنا إلاهة أن تؤويها
على مثل ابن أمية فانعياه
تشق نواعم البشر الجيويا ¹²¹

¹¹⁹ سورة الزمر آية: 56.

¹²⁰ بدائع الفوائد للحافظ ابن القيم 2/7-8.

¹²¹ تاج العروس.

الآلهة الأصنام سموها بذلك لاعتقادهم أن العبادة مستحقة لها وأسماؤهم تتبع اعتقادهم لا ما عليه شيء في نفسه "التائه" التنسك والتعبد، تقول: "أَلَّهُ أَيْ تَحِيرُ وَبَابَهُ طَرَبٌ" وأصله ¹²² ا.هـ ويعنى: أله بالمكان كفرج إذا أقام، ومنه قول الشاعر:

أَلْهُنَا بَدَارٌ تَبَيَّنَ رِسُومُهَا

كَأَنْ بَقَايَاهَا وَشُوْمَ عَلَى الْيَدِ ¹²³

وإلا ينطلق على المعبود بحق وباطل وأما "الله" لا ينطلق إلا على المعبود بالحق ¹²⁴ ا.هـ.

وهذه المعانى اللغوية تلتقي كلها عند الآتى:

إن لفظة "إله" مأخوذة من التأله، وهو التعبد وجمعه آلهة "وإله والآلهة" ينطلقان على كل ما عبد بأى نوع من أنواع العبادات ولو كان المعبود جماداً.

وأما لفظ الحاللة "الله" فلا ينطلق إلا على المعبود بالحق، وهو خالق السماوات والأرض، ومدبر الأمر فيهما سبحانه.

وهذا ما يعنيه الاستثناء في قولنا نحن المؤمنين: "لا إله إلا الله" لأن المعنى نفي استحقاق العبادة عن جميع الآلهة وإثباها لله وحده، أي لا معبود بحق إلا الله، لأنه الخالق الرازق {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} ¹²⁵، وهو سبحانه موصوف بجميع الكمالات، ومنزه عن جميع النقائص فعيادة غيره معه أو دونه تعتبر تنقصاً له سبحانه، لأن في ذلك تشبيه المخلوق الضعيف العاجز بالخالق القادر على كل شيء القوي المتين الغني عن كل شيء، الغني وصف ذاتي له سبحانه. كما أن الفقر والعجز والضعف أوصاف ذاتية للمخلوق.

من هنا تعلم وجه خطأ أولئك الذين يفسرون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" بـ"لا خالق إلا الله" أو رازق أو شبه ذلك من معانى الربوبية التي لم يختلف فيها أحد من بني آدم عبر التاريخ الطويل.

والتفريق بين توحيد العبادة الذي دلت عليه كلمة التوحيد، وبين توحيد الربوبية الذي لم يقع فيه نزاع كما تقدم أمر ضروري، وتوحيد الربوبية إنما يبحث ليستدل به على توحيد

¹²² مختار الصحاح.

¹²³ تاج العروس.

¹²⁴ المصدر السابق.

¹²⁵ سورة النحل آية: 17

العبادة الذي عجز عن تحقيقه كثير من الناس في هذا العصر، وانحفلت عليهم الأمر، والله المستعان.

فالتفسير المشار إليه مخالف للغة العربية التي نزل بها القرآن كما ترى، فلا يلتفت إليه لأنه يتضمن تجاهلاً لحقيقة التوحيد الذي طبقت عليه دعوة الرسل جميعاً والذي اصطدموا من أجله مع أقوامهم وهو توحيد العبادة أي إفراد الله بالعبادة كما انفرد بالربوبية سبحانه.

يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله: "اسم الله" دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات على بالدلائل الثلاث:

أ- فإنه دال على الإلهية المتضمنة لثبت صفات الإلهية له سبحانه مع نفي أضدادها عنه تعالى، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزه عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى الأسماء الحسنى إلى هذا "الاسم العظيم" كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾¹²⁶، ويقال: الرحمن الرحيم، القدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم، من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

ب- فعلم أن اسم "الله" مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله.

ج- واسم "الله" دال على كونه مألوهاً، معبوداً، تألهُ الخلائق محبة وتعظيمًا وحضورًا وفرعاً إليه من الحاجات والنوايب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المضمنتين لكمال الملك والحمد¹²⁷.

وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم الجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحبي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال أخص باسم "الله" وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة، وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم "الرب" وصفات الإحسان والجود والبر والحنان، والمنة والرأفة واللطف أخص باسم "الرحمن"¹²⁸

¹²⁶ سورة الأعراف آية: 180.
¹²⁷ وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني إن شاء الله.
¹²⁸ مدارج الساكيين 32/1

اهـ.

وكلام الحافظ ابن القيم غني عن التعليق لوضوحيه في بيان العلاقة أو النسبة بين الربوبية والإلهية. وقال رحمه الله في موضع آخر في كتابه مدارج السالكين: "إن توحيد الربوبية بباب توحيد الإلهية، فإن أول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية كما يدعو الله عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتاج به عليهم، ويقررهم به ثم يخبر أنفسهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية، وفي هذا المشهد يتحقق مقام: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، يقول الله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُوكُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّى يُؤْفَكُونَ} "¹²⁹.

هذا، وإن توحيد الربوبية محل إجماع البشر، ولا فرق بين مؤمنهم وكافرهم، بل كلهم يؤتون بربوبيته، وإن أشرك من أشرك في عبادته.

وأما الصراخ المنكر والقول المجنون الذي سمعته الدنيا لأول مرة في الآونة الأخيرة¹³⁰، والذي ينادي بكل وقاحة، بإنكار وجود الله تعالى مكابرة، وأنه ليس هو الذي خلق هذا الكون، وأن الدين إنما يقصد به تحذير الشعوب إلى آخر تلك المغالطة، فإنها تهدف إلى تضليل متعمد إذ لا مستند له من العقل والفطرة السلمية بله الشرع، ولا أرى مناقشته هنا.

وهل يناقش من ينكر وجود الشمس وهي طالعة؟! وكيف ينكر وجود الخالق من هو مخلوق له وآية من آياته؟!!

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

الفصل الثاني: معنى الصفة والنعت لغة واصطلاحاً

معنى اللغوي:

يقال: وصف الشيء يصفه وصفاً أي نعته، وهذا صريح في أن الوصف والنعت متدافعان، وقد أكثر الناس القول في الفرق بينهما ولا سيما علماء الكلام، وهو مشهور، ولا

¹²⁹ سورة الزخرف آية: 87، وانظر مدارج السالكين 1/411.

¹³⁰ هذا الكلام يعني بالنسبة للعصر الحديث، فلا يرد موقف الدهرية الذين أخبر عنهم القرآن حيث كانوا يقولون: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. ومن كانوا في معناهم مثل الطبيعيين القائلين في تفسير الوجود "المادة والصفة" ويعتبر موقف الماركسيين جديداً بهذا الاعتبار أي باعتبار هذا العصر.

داعي للإطالة فيه. وفي اللسان: وصف الشيء له وعليه إذا حلاه، وقيل: الوصف مصدر، والصفة الخلية. وقال الليث: الوصف وصفك الشيء بخليته ونعته، والوصاف العارف بالوصف¹³¹ أهـ.

الوصيف "كأمير" الخادم أو الخادمة، أي غلاماً كان أو جارية، وربما قالوا للجارية: وصيفة والجمع وصائف، وجمع الوصيف وصفاء. وفي الأثر: "نهى عن بيع العُسَفَاءِ وَالْوُصَفَاءِ"، وفيه حديث أم أيمن: "إِنَّمَا كَانَتْ وَصِيفَةً لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ"¹³² أهـ.

استوصف الطبيب لدائنه سأله أن يصف له ما يتعالج به، والصفة كالعلم والجهل والسود والبياض. وأما النحويون فليسو يريدون هذا، بل الصفة عندهم النعت أي المشتقات كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة¹³³ أهـ.

المعنى الاصطلاحي:

والصفة في اصطلاح المتكلمين حال وراء الذات، أو ما قام بالذات من المعاني والنعمات وهي في حق الله تعالى نعمات الحلال والجمال والعظمة والكمال، كالقدرة والإرادة والعلم والحكمة.

والصفة غير الذات وزائدتها عليها من حيث مفهومها وتصورها، ييد أنها لا تنفك عن الذات، إذ لا نتصور في الخارج ذاتاً مجردة عن الصفات، هذا وإن صفات الله تعالى توقيفية فلا مجال فيها للاجتهاد والاستحسان، بل الواجد الوقوف عند ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، قال الإمام أحمد في هذا الصدد: "لا يتجاوز الكتاب والسنة"، إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصفه في خلقه أعلم من رسوله عليه الصلاة والسلام. ولا يقال في صفاته: هي مجاز بل صفاته كلها حقيقة على ما يليق بالله سبحانه، كما أن صفات خلقه حقيقة، حقيقة تناسب حالهم وضعفهم وحدودتهم. فليست الحقيقة بالحقيقة كما هو الشأن في الذات، لأن ذات الله حقيقة، حقيقة تليق به سبحانه، وذوات المخلوقات حقيقة أيضاً، والحقائق مختلفة هنا وهناك.

¹³¹ لسان العرب مادة "وصف".

¹³² تاج العروس، والنهاية لابن الأثير.

¹³³ مختار الصحاح.

فليعلم ذلك لأنه مقام مهم، ومزلة أقدام زلت فيها أقدام كثير من علماء الكلام، والله المستعان.

فإيماننا بصفات الله تعالى على وفق إيماننا بذاته تعالى، وهو إيمان إثبات وتسليم لا تكيف فيه ولا تشبيه، وبالتالي لا تحريف فيه ولا تعطيل، بل إيماننا بالله وبصفاته في ضوء قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ¹³⁴، قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} ¹³⁵، قوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} ¹³⁶، وما في هذا المعنى من نصوص الكتاب والسنة التي تدل على التنزية الكامل مع إثبات الصفات إثباتاً لا يصل إلى التشبيه والتجسيم.

وهذه النصوص تتفق مع الأدلة العقلية التي تدعو إلى الإيمان بجميع كمالات الرب تعالى بالجملة، كمال الذات، وكمال الصفات، وكمال الأفعال.

ولا فرق فيما ذكرنا عند السلف بين صفات الذات كالقدرة والإرادة، والعلم مثلاً، وبين صفات الأفعال كالاستواء والنزول والمجيء لأنها كلها جاءت بها نصوص الكتاب والسنة، والعقل السليم لا يرفض ذلك، بل يبادر إلى قبوله.

فمن غير الجائز إذاً التفريق بين ما جمع الله في كتابه، أو فيما أوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام.

¹³⁴ سورة الشورى آية: 11.

¹³⁵ سورة الإخلاص آية: 4-1.

¹³⁶ سورة مریم آية: 65.

الفصل الثالث: مفهوم الذات في القرآن الكريم

تحدث القرآن عن الذات الإلهية في عديد من الآيات "دون تصريح بلفظ الذات" وكثيراً ما يصدر الحديث باسم "الله" فالله علم على الذات العلية مثل:

- قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذُه سنة ولا نوم}**¹³⁷.

- قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيمة}**¹³⁸.

- قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب}**¹³⁹.

- قوله تعالى: **{الله ولهم الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}**¹⁴⁰.

- قوله تعالى: **{الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض}**¹⁴¹.

- قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنة}**¹⁴².

- قوله تعالى: **{الله نور السماوات والأرض}**¹⁴³.

- قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم}**¹⁴⁴.

- قوله تعالى: **{الله ربكم ورب آبائكم الأوّلين}**¹⁴⁵.

- قوله تعالى: **{الله نزل أحسن الحديث كتاباً مُتشابهاً}**¹⁴⁶.

- قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَانَ}**¹⁴⁷.

فالله الرحمن وغيرهما من أسماء الله إنما هي أعلام دالة على ذات الله تعالى، وهي مع كونها أعلاماً دالة على الذات، وهي أيضاً أوصاف كمال.

وآيات أخرى كثيرة، هذا، وليس بين المؤمنين بالله وبكتابه وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وما جاء به من الهدى خلاف في أن مقام الإلهية فوق كل مقام. وأن ذاته سبحانه

¹³⁷ سورة البقرة آية: 255.

¹³⁸ سورة النساء آية: 87.

¹³⁹ سورة آل عمران آية: 2.

¹⁴⁰ سورة البقرة آية: 257.

¹⁴¹ سورة إبراهيم آية: 2.

¹⁴² سورة طه آية: 8.

¹⁴³ سورة النور آية: 35.

¹⁴⁴ سورة النمل آية: 26.

¹⁴⁵ سورة الصافات آية: 126.

¹⁴⁶ سورة الزمر آية: 23.

¹⁴⁷ سورة الرحمن آية: 4-1.

فوق كل الذوات، وأن له سبحانه الكمال المطلق في ذاته وصفاته.

ثم إنه من غير الجائز عقلاً وشرعًا محاولة إدراك حقيقة ذاته، وصفاته بل العجز عن الإدراك هو الإدراك كما يحكي ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه¹⁴⁸.

هذا... ذات الله - مع أنها فوق أن تدرك، وفوق أن تحد - قد وصفت في القرآن بصفات كثيرة، كالإرادة والعلم، والقدرة وغيرها، وهي صفات كمال الكمال المطلق، ومع هذا فلا بد أن تضاف هذه الصفات إلى "ذات" كما تضاف مثل هذه الصفات وغيرها إلى ذاتنا مع الفارق البعيد بين كمالها في ذات الإله، ونقصها في ذات الإنسان..!!

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تضيف إلى الله صفات فعل تدل على الإيجاد كقوله تعالى: في أول ما نزل من الكتاب: {اقرأ باسم ربك الذي خلقَ خلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ¹⁴⁹، ففي الآيات تعريف بذات الله، وأنها تخلق وتعلم، وكقوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنَشَى وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ} ¹⁵⁰، وقوله تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} ¹⁵¹، وقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ¹⁵²، فذات الإله ذات توصف بالسمع وتوصف بالرؤى وتوصف بالعزة والحكمة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُ كُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ¹⁵³، وأكثر فواصل القرآن تنتهي غالباً بصفة من صفات الله تعالى، أو بالزوجة بين صفتين من صفاته.

¹⁴⁸ مقدمة ابن خلدون ص: 435. يقال إن أبي بكر الصديق رضي الله عنه سئل بم عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى، فقيل له: وهل يتأتى ليشر أن يدركه؟ فقال: "العجز عن الإدراك إدراك". من كتاب حل الرموز ومفتاح الكنوز لشراح الفصوص 21، لانقطع بصحبة القصة لأنها بلا سند، ولكن للاطلاع والبحث.

¹⁴⁹ سورة العلق آية: 1-5.

¹⁵⁰ سورة الرعد آية: 9-8.

¹⁵¹ سورة الشورى آية: 19.

¹⁵² سورة المجادلة آية: 1.

¹⁵³ سورة آل عمران آية: 6-5.

ومن النوع الأول:

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}¹⁵⁴، {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا} .¹⁵⁵

ومن النوع الثاني:

وهو الأعم الأغلب، قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}¹⁵⁶، قوله: {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ

عَلِيهِمْ} .¹⁵⁷

هذا... وقد كان السلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم يتلون كتاب الله ويستمعون إلى آيات الكتاب وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فما وقفوا موقف تساؤل أو حيرة أمام صفة من صفات الله، ولا وقع في تفكيرهم أن "الذات" شيء وأن الصفات شيء، أو أنهما وجهان لحقيقة واحدة، أو غير هذا مما دار حوله الجدل واشتد فيه الخصام بين جماعات المسلمين بعد أن مضى عهد الراشدين ودخلت في الإسلام مذاهب وآراء وفلسفات، مع الذين دخلوا في دين الله من فرس وروم وبربر وهنود وغيرهم.

هكذا نترك هذه الفقرة بهد أن استعرضنا نصوصاً من الكتاب العزيز في ذات الله تعالى مع الإشارة إلى موقف المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين ومن اقتنع بهم منهم من أهل العلم، لنرى في الفصل التالي كيف أفصحت السنة عن "ذات الله"، ولنرى هناك أقوالاً لبعض الأنبياء وبعض الصحابة مع النهي عن التفكير في ذات الله لينحصر التفكير في مخلوقات الله التي هي من آياته تعالى.

الفصل الرابع: مفهومات الذات في السنة النبوية

وقد وردت عدة أحاديث فيها إطلاق لفظ "الذات"، وإثباها الله تعالى ومن ذلك:

أ- حديث أبي هريرة¹⁵⁸ عند البخاري، حيث يقول الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام: "لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات، اثنين منها في ذات الله

¹⁵⁴ سورة النساء آية: 32.

¹⁵⁵ سورة النساء آية: 126.

¹⁵⁶ سورة الفرقان آية: 6 وردت عدة مرات.

¹⁵⁷ سورة البقرة آية: 115.

¹⁵⁸ صحيح البخاري يراجع فتح الباري كتاب أحاديث الأنبياء 7/200، مطبعة البابي الحلبي وأولاده.

عز وجل¹⁵⁹.

1- قوله: إني سقيم.

2- قوله: بل فعله كبيرهم هذا.

3- قوله لسارة هي أخته خوفاً عليها من سلطان جبار وسارة زوجته والقضية مستوفاة في صحيح البخاري.

ب- حديث أبي هريرة في قصة خبيب الأنباري عندما قتله المشركون حيث قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشاء

¹⁶⁰ ببارك على أوصال شلو مزع

والقصة مذكورة ومكررة في صحيح البخاري في كتاب الجهاد، وفي المغازي، وفي كتاب التوحيد أخيراً.

ج- حديث ابن عباس: "تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله" روي مرفوعاً وهو ضعيف، وروي موقعاً، قال الحافظ ابن حجر: وسنه جيد.

د- حديث أبي الدرداء: "لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله"، قال الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات إلا أنه منقطع.

ثم قال الحافظ: ولفظ "ذات" في الأحاديث المذكورة بمعنى من أجل أبو بمعنى حق، وأردف قائلاً: ومثله قول حسان:
وإن أخا الأحلاف إذ قام فيهم
يُجاهد في ذات الإله ويعدل

وهو كقوله تعالى حكاية عن قول القائل: {يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} ثم قال الحافظ: فالذي يظهر أن المراد جواز إطلاق لفظ "ذات" لا بالمعنى الذي أحدثه

¹⁵⁹ خصها بذلك لأن قصة سارة وإن كانت أيضاً في ذات الله، ولكن تضمنت حظاً لنفسه ونفعاً له بخلاف الاثنين الآخرين، فإنهما في ذات الله محضاً، وفي رواية هشام بن حسان: أن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاط كذبات، كل ذلك في ذات الله، راجع فتح الباري 201/7 ط الحلبي.

¹⁶⁰ فتح الباري كتاب التوحيد 17/152.

المتكلمون، ولكنه غير مردود إذا عرف أن المراد به النفس لثبوت لفظ النفي في الكتاب العزيز¹⁶¹ أهـ.

هذا... وقد تقدم تحقيق لفظ "ذات" من حيث اللغة وفي اصطلاح المتكلمين نقاً عن الحافظ ابن القيم في أول هذا المبحث¹⁶².

المبحث السابع: الحديث عن بعض المدافعين عن منهج السلف

إن منهج السلف الصالح في إثبات صفات الله تعالى وأسمائه على الرغم من وضوحيه وعدم غموضه لم يسلم من أقلام غلاة النفاذه الذين يرون أن إثبات صفات الله وأسمائه هو عين التشبيه والتجسيم. ولا يتم تنزيه الله تعالى عما لا تلقي به إلا بنفي الصفات عند بعضهم، وبنفي الصفات والأسماء معاً عند البعض الآخر، بل لم يسلم المنهج حتى من بعض الصفاتية الذين يثبتون بعض الصفات أو أكثرها ولكنهم يرون وجوب تأويل بعض الصفات الأخرى، وقد استهدف منهج السلف هؤلاء جميعهم على اختلاف مناهجهم فنالوا من المنهج، ورموا السلفيين بالتشبيه والتجسيم، وهم بريئون عن ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وفيما يلي تتحدث عما قام به عدد من أئمتنا من الجهد للدفاع عن منهج السلف والسلفيين.

المدافعون عن منهج السلف:

ابتدأت آراء الجهمية في القرن الثاني من الهجرة النبوية، ثم انتشرت في المائة الثالثة، وتولى إذاعتها والدعایة لها والكتابة فيها بشر المرisiي المتوفى سنة 218هـ، ويقال: إنه فقيه ومتكلّم إلا أنه اجتمعت فيه أمراض عدّة ينسب إلى المرجئة أحياناً، وينسب أحياناً أخرى إلى الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان ويدرك الإمام ابن تيمية أن أصل الجهمية يرجع إلى عناصر دخلة على الإسلام، لأن جهم بن صفوان المتوفى سنة 281هـ أخذ مقالته عن الجعد بن درهم، وأن الجعد أخذها عن أبيان بن سمعان، وأخذها أبيان عن

¹⁶¹ فتح الباري 153/17.

¹⁶² راجع ص 74.

طالوت، وأخذها طالوت عن حاله لبيد بن الأعصم اليهودي، ويذكر أنه من يهود اليمن. أما الجعد بن درهم فهو من أرض حران التي كانت فيها عناصر كثيرة من الصابئة والفلسفه، ومن ثم فإن مقالة الجهمية ترجع إلى عناصر فلسفية وصابئية ويهودية.

وقد أخذ الفارابي المتوفى سنة 339هـ نفسه عن فلاسفة حران، كما أخذ جهم بن صفوان عن البوذية أو السمنية¹⁶³.

ولما انتشرت آراء الجهمية ومذهبها في التعطيل وإنكار الصفات وفي القول بخلق القرآن، تصدى لها الأئمة من سلف هذه الأمة بالرد وبيان ضلالها وانحرافها¹⁶⁴.

منهم من كتب في ذلك كتاباً أو كتاباً، ومنهم من نقلت عنه عبارات وجمل تدل على الاستنكار، وكل ذلك يوضح لنا أن أئمة السلف لم يأْلَ جهداً في الرد على منكري الصفات من يوم ظهورها، وسوف نقدم فكرة موجزة عن بعض هؤلاء الأئمة مع ذكر نموذج من كلامهم، وفي مقدمتهم:

أ- الإمام أحمد بن حنبل، وهو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، وقد ترجم لهذا الإمام غير واحد من المؤرخين، وذكروا جميعاً أنه رحمه الله حملته أمه (بمرو) ولدته (بيغداد) في شهر ربيع الأول سنة 164هـ وقد كان أبوه والي بلدة (سرخس) وتوفي والده سنة 179هـ فنشأ بيغداد، وتولت أمه تربيته، وظهرت عليه لواحة النجابة في صباه.

ويذكر المترجمون: أنه من شدة رغبته في أخذ علم الحديث، كان يذهب إلى المساجد مبكراً حتى إن أمه تشفق عليه وتطلب منه أن يتأخر حتى يصبح الناس وينتشر ضوء النهار¹⁶⁵، وذكر بعض من ترجم له أن الإمام أحمد لم يقتصر في طلب العلم على علماء بلده بغداد فقط، بل إنه رحل إلى كل من الكوفة، والبصرة ومكة، والمدينة المنورة، واليمن والشام بل إنه رحل إلى بلاد فارس، وخراسان، وأخيراً عاد إلى بغداد، وتفيد المصادر أيضاً أن الإمام أحمد بدأ في الاشتغال بالحديث، وعمره ست عشرة سنة.

¹⁶³ السمنية: طائفة من أصحاب التناصح. ومن القائلين يقدم العالم، وينكرون المعاد والبعث، مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص: 270.

¹⁶⁴ عقائد السلف د. النشار، د. عمار الطالبي ص: 8-7.

¹⁶⁵ المصدر السابق بتصرف في العبارة ص: 9.

وكان الإمام أحمد كغيره من أهل الحديث والسنّة يذهب إلى أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص، وأن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود يوم يرفعه الله.

وعندما قامت للمعتزلة دولة قوية بتولي الخليفة السابع من خلفاء بني العباس الخليفة (المأمون) بلغ الخلاف بين أهل السنّة والمعتزلة ذروته، وتلك الفتنة التي عرفت في التاريخ باسم (المخنة) كان فيها للإمام أحمد موقف معروف في تاريخ الأمة الإسلامية، إذ وقف فيها موقفاً فريداً عجز كثير من الأئمة والعلماء الثبات فيه. وملخصها ما يرويه المؤرخون والمترجمون للإمام أحمد: أن الخليفة (المأمون) قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق، وأوقعوه في الباطل إذ زينوا له القول (بخلق القرآن)، ونفي صفات الله عز وجل، والخوض في المطالب الإلهية بعيداً عن نصوص الكتاب والسنة، بل إنه ضرب صفحاتٍ من النصوص زاعماً بأنها لا تفيد اليقين متأثراً بفكرة المعتزلة¹⁶⁶.

قال البيهقي: "ولم يكن في خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف، ومنهاجهم، فلما تولى المأمون الخلافة اجتمع به هؤلاء المعتزلة فحملوه على نفي الصفات والقول بخلق القرآن" اهـ.

وكل الذين تحدثوا عن المخنة يتفق كلامهم بأن الخليفة المأمون أتيَ مِنْ قَبْلِ بطانة السوء، من أئمة الاعتزال، وتورط في مشكلة هزت خلافته لأنه لم يأخذ الأمر بِرُوِيَّة وحكمة حل المشكلة، وهي مشكلة يحلها العلماء بالمناقشة وال الحوار الحر، ومقارعة الدليل بالدليل، بل نصب نفسه داعية لا يرد له قول، ولا يعصى له أمر مستغلاً في ذلك سلطانه العريض. وفي عام 218هـ كتب المأمون إلى نائبه وواليه ببغداد (إسحاق بن إبراهيم بن مصعب) يأمره أن يدعو الناس إلى القول (بخلق القرآن) هكذا بهذه الجرأة ودون مقدمة أو تمهيد.

ولم يسع الوالي إلا الامتثال فجمع مجموعة من أئمة الحديث، وبعض القضاة

¹⁶⁶ استقينا هذه المعلومات (بالمعنى) عن ابن كثير في البداية والنهاية وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد. ترجمة الإمام أحمد.

وبالنسبة لانتشار آراء أهل البدع، صرخ الإمام أحمد وأوضح موقفه من نصوص الصفات فيما يرويه ابنه عبد الله بن أحمد، ومن ذلك قوله رحمه الله: "هذه الأحاديث نرويها كما جاءت"، وقوله: "إن ما يرجع إلى عالم الغيب لا ينبغي الخوض فيه، وإنما نفوض أمره إلى الله". ومن كلامه: "من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله"، كما جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الجنة يرون ربهم"، فيصدقها ولا يضر لها الأمثال، ووقف الإمام من أهل الكلام موقفاً معارضًا فقال: "لا تحالسو أهل الكلام وإن ذبّوا عن السنة"، وقال أحمد: "صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة: من شهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأقر بجميع ما جاءت به الأنبياء والرسل. وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه ولم يشك في إيمانه ولم يكفر أحداً من أهل التوحيد بذنب. وأرجأ من غاب عنه من الأمور إلى الله. وفوض أمره إلى الله"... الخ.

وقد عدد الإمام صفات كثيرة يرى أنها من صفات أهل السنة والجماعة لئلا يلتبس

الأمر على من يريد معرفتهم ويميز بينهم وبين أهل البدع الذين يتصفون عادةً بأضداد هذه الصفات.

وإذا ما تحدثنا عن الحسنة وصبر الإمام أحمد فيها يَحْدُرُ بنا أن نذكر نموذجاً من أسئلة الامتحان ليتصور القارئ صورة الحسنة ولو بعض التصور، والي بغداد يسأل الإمام أحمد

يجيب:

إسحاق: ما تقول في القرآن؟

الإمام أحمد: هو كلام الله.

إسحاق: أخلوق هو؟

الإمام أحمد: هو كلام الله لا أزيد على هذا.

إسحاق: ما معنى أنه تعالى سميع بصير؟

الإمام أحمد: هو كما وصف نفسه.

هذه بعض الأسئلة التي يوجهها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب والي بغداد الذي كلف من طرف المأمون بامتحان العلماء وشيخ الحديث والسنّة، وقد ثبت الإمام أحمد أمامها ونجح في الامتحان بنجاحاً نال به أعلى (وسام) يناله عالم سلفي وهو (وسام الإمامة) إذ لقبه أهل عصره العارفون بموقفه لمعرفتهم كيف أبقى الله تعالى العقيدة بصبره وثباته (بإمام أهل السنّة وقائم البدعة).

هكذا نوجز ترجمة هذا الإمام اقتصاراً على ما يتلاءم وبختنا، رحمه الله وجراه عن السنّة وأهلها خير الجزاء.

وقد خلف الإمام أحمد للمكتبة الإسلامية كتاباً ورسائل كثيرة ونافعة، ومن أبرزها (مسند الإمام) المعروف، الذي تغنى شهرته عن التعريف قوله كتاب الفريد الذي كتبه ردًا على الزنادقة والجهمية إذ يعتبر من أهم ما كتب في مجده، وقد ناقش فيه الإمام المشككين في القرآن الذين يتأولونه على خلاف ظاهره، وقد دافع الإمام في هذا الكتاب عن المنهج السلفي خير دفاع، فجزاه الله خيراً ما جازى به المجاهدين.

مواقف الإمام

وبعد أن استعرضنا نبذة من حياة الإمام أحمد واستعرضنا أيضاً طرفاً من المخنة، وما جرى بينه وبين خصومه في مشكلة حلق القرآن، فلنسمع صوت الإمام وهو في حوار (حيّ) مع الجهمية حيث يدافع عما يعتقد السلف في صفات الله، فلنأخذ مقتطفات من كلامه في مبحث الرؤية، وصفة العلو، والمعية فتعال بنا لنحضر الحوار ثم لنستمع إليه بقلب حاضر وكأنك تسمع الصورة الصوتية للإمام وهو يناقش بأسلوبه الخاص ولغته القوية. وقد بوب الإمام لكل موضوع يجري فيه الحوار إذ يقول مثلاً:

بيان ما جحدت الجهمية من قول الله: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْسِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}**¹⁶⁷، قال الإمام أحمد رحمه الله: فقلنا لهم: لم أنكرتم أن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم؟! فقالوا: لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى ربه لأن المنظور إليه معلوم موصوف. لا يرى إلا شيء يفعله. فقلنا: أليس الله يقول: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْسِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}**، قالوا: إن معنى **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}**¹⁶⁸، أنها تنظر¹⁶⁹ الشواب من ربهما وإنما ينظرون إلى فعله وقدرته، وتلوا آية من القرآن: **{أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَ الظِّلُّ}**¹⁷⁰، فقالوا: إنه حيث قال: **{أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ}**، إنهم لم يروا ربهم، ولكن المعنى ألم تر إلى فعل ربك، فقلنا: إن فعل الله لم يزل العباد يرونه، وإنما قال: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْسِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}**، فقالوا: إنما تنظر الشواب من ربهما، فقلنا: إنها مع من تنظر الشواب هي ترى ربهما. فقالوا: إن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وتلوا آية من المتشابه من قوله الله جل ثناؤه: **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}**¹⁷¹، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف معنى قول الله: **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}**، وقال: **"إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ"**¹⁷²، وقال الله لموسى: **{لَنْ تَرَانِي}**، ولم يقل: لأن أرى، فأيهما أولى أن نتبع النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: **"إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ"** أو قول الجهمي حين قال: لا ترون ربكم؟! والأحاديث بأيدي أهل العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة يرون ربهم لا يختلف فيها أهل العلم.

¹⁶⁷ سورة القيامة آية: 23-22.

¹⁶⁸ سورة القيمة آية: 23.

¹⁶⁹ من الانتظار لا من النظر أي تنتظر الثواب، وتتوقعه.

¹⁷⁰ سورة الفرقان آية: 45.

¹⁷¹ سورة الأنعام آية: 103.

¹⁷² أخرجه الشیخان والترمذی، وهو قطعة من حديث طويل من حديث أبي هريرة، وفي معناه حديث جابر عند مسلم.

وبعد: إنَّ القارئ يدرك أنَّ الإمام يشير إلى أنَّ الإدراك المنفي في قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، أمرٌ زائد على الرؤية وهذا المعنى في غاية الوضوح، لأنَّ العباد عندما يرون ربهم لا يدركونه أو لا يحيطون به، كما أنهم يعلمون ربهم ويؤمنون به، ولا يحيطون به علمًا ومعرفة، وقد يتصور هذا المعنى حتى في مخلوقات الله تعالى. فمثلاً إنك ترى الشمس دون شك، وهي في ضحى النهار ولكن لا تحيط بها إحاطة من كل وجه، وهي خلق من خلق الله تعالى والله المثل الأعلى، فلا غرابة في إثبات الرؤية من مجموع الآيات والأحاديث مع نفي الإدراك، كما نفت آية سورة الأنعام {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}. والله أعلم.

فلنعد إلى سماع الحوار مرة أخرى في الموضوع نفسه، حيث يقول الإمام أحمد رحمه الله: وحديث سفيان بن عيينة عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد في قوله الله: {لَلَّذِينَ أَخْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً} ¹⁷³.

قال: النظر إلى وجه الله: ومن حديث ثابت البناي عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال: إذا استقر أهل الجنة في الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة! إنَّ الله قد أذن لكم في الزiyادة، قال: فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله لا إله إلا هو.

ثم قال الإمام: وإنما لنجو أن يكون الجهم وشيعته من لا ينظرون إلى ربهم ويحجبون عن الله، لأن الله قال للكافر: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} ¹⁷⁴، فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر؟ والحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته، وجعلنا من اتبع ولم يجعلنا من ابتدع والحمد لله وحده ¹⁷⁵.

هكذا رأينا كيف كان الإمام أحمد يدافع عن منهج أهل السنة والجماعة، في هذا الباب الخطير الذي ضل فيه كثير من المؤمنين من وقعوا فريسة لآراء أهل الكلام من

¹⁷³ سورة يونس آية: 26.

¹⁷⁴ سورة المطففين آية: 15.

¹⁷⁵ نقلنا هذا الحوار من عقائد السلف تحقيق د. النشار وعمار ص: 85-86، كتاب الرد على الزنادرة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل.

الجهمية وشيعتهم، ولعل القارئ أدرك من طريق الحوار أن شيخ الحديث وأئمة السنة يجيدون طريقة الاستدلال بالنصوص بأسلوب استنباطي ومنطقي دقيق. وليس الأمر كما يزعم خصومهم من أنهم (نصيرون) يحفظون النصوص، وليسوا بعقلين، أي لا يعمدون إلى ذكر الأدلة العقلية، بل لا يزيدون على سرد النصوص فقط. ولو سايرنا الإمام إلى آخر حواره الطويل، لرأينا كيف يضرب الأمثال التي تقرب المعاني إلى الأذهان، وتعين على الفهم. فلنسمع مثلاً إلى هذا النموذج من كلام الإمام وهو يفسر قوله تعالى: **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}**¹⁷⁶، يقول الإمام رحمه الله: وإنما معنى قوله: **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}** يقول: وهو إله من في السموات وإله من في الأرض وهو على العرش، وقد أحاط علمه بما دون العرش، ولا يخلو من علم الله مكان. ولا يكون علم الله في مكان دون مكان. وذلك قوله تعالى: **{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}**¹⁷⁷.

ثم قال الإمام رحمه الله: ومن الاعتبار¹⁷⁸ في ذلك لو أن رجلاً كان في يده قدح من (قوارير) صاف وفيه شراب صاف، كان يصير ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه، ثم قال خصلة¹⁷⁹ أخرى: لو أن رجلاً بني داراً بجميع مرافقها، ثم أغلق بابها وهو خارج كان بن آدم لا يخفى عليه كم بيته في داره، وكم سعة كل بيته من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار، فالله - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع ما خلق وعلم كيف هو، وما هو من غير أن يكون في شيء مما خلق¹⁸⁰.
هكذا يحلل الإمام معنى الآية ليقربه إلى أفهم القراء، وهكذا يفهم أئمة الحديث معاني النصوص مع القدرة على البيان الشافي والدقة في ضرب الأمثلة، والله الحمد والمنة.
مثل هذا المثال وهذا التحليل نضرب في وجوه أرباب الكلام والمتفلسفة الذين

¹⁷⁶ سورة الأنعام آية: 3.

¹⁷⁷ سورة الطلاق آية: 12.

¹⁷⁸ أي مثال ذلك.

¹⁷⁹ أي مثال آخر.

¹⁸⁰ عقائد السلف ص: 94.

يزعمون أن أئمة الحديث والسنّة بمثابة الأميين الذين يرددون النصوص ولا يفهون لها معنى.

ولقد أثبتت الأئمّة بهذا الحوار المؤيد بالأمثلة أن الله تعالى فوق عرشه بائن من خلقه، وهو معهم بعلمه وسيأتي لهاتين الصفتين مزيد بحث إن شاء الله عند الكلام على معانٍ الصفات في الأبواب اللاحقة.

بـ- أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري بن إبراهيم الجعفي

ولد - الإمام البخاري - كما يحدّثنا المترجمون في بلدة (بخاري) من بلاد ما وراء النهر، قرب (سمرقند)، وهذه المناطق تقع حالياً تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي، والله المستعان.

ويذكر المترجمون له أن الإمام ولد في 13 من شهر شوال لعام 194هـ من أسرة جمع الله لها بين الصلاح والتقوى والثراء والعلم، وتوفي والده وهو لا يزال طفلاً وتولت أمّه تربيته (وَحَدَّبَتْ) عليه ورعايته خيراً، وقد حجّت به أمّه وهو صغير ثم تركته بمكة فرجعت إلى بخاري، فبقي الطفل بجوار بيت الله الحرام، ليطلب العلم ويجالس شيوخ الحديث والعلم، في الحرم الشريف، فأخذ العلم على أيدي شيوخ مشهورين في بلده وغير بلده، ويحدّثنا الإمام نفسه أنه حفظ كتب ابن المبارك وكتب وكيع وهو ابن ست عشرة سنة¹⁸¹، ومن أشهر شيوخه إمام أهل السنّة والجماعة وقائم البدعة الإمام أحمد بن حنبل كما يحدّثنا الإمام البخاري أنه لقي أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر، وخراسان، وأخبرنا أنهم ما كانوا يختلفون في أن الدين أو الإيمان قول وعمل، وأن القرآن كلام الله، وقد زار الإمام البخاري بلدانه كثيرة في طلب العلم، وتردد إلى بعض البلدان أن من مرة منها بغداد حيث يوجد شيخه الكبير الإمام أحمد بن حنبل. أما مكة فقد أقام بها ستة أعوام، وحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير

¹⁸¹ ابن حجر، هدي الساري ص: 194.

صحيح¹⁸². وخرج كتابه (الجامع الصحيح)، من نحو ستمائة ألف حديث. وصنفه في ستة عشر عاماً، وهو أصح كتاب بعد كتاب الله عند أهل العلم والمعرفة¹⁸³. ولإمام البخاري كتاب مستقل ناقش فيه الجهمية في صفة الكلام والاستواء خاصة، وفي بقية الصفات عامة، وأورد فيه كلام أهل العلم من شيوخه وغيرهم.

موقف الإمام البخاري من الجهمية في صفة الاستواء والعلو

يحكى البخاري عن عبد الله بن المبارك، وهو أحد مشايخه الكبار حيث يقول ابن المبارك: لا نقول كما قالت الجهمية: إنه في الأرض هاهنا، بل على العرش استوى، وقيل له: كيف تعرف ربك؟ قال: فوق سماواته على عرشه، وقال لرجل منهم: أتظنه حالياً منه؟ فبهت الآخر. وقال من قال: (لا إله إلا هو) مخلوق، فهو كافر، وإننا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية¹⁸⁴.

وقد ألف البخاري كتاباً سماه (خلق أفعال العباد) تحدث فيه عن القرآن الكريم، ورد فيه ما زعمت المعتزلة من أن القرآن مخلوق بأسلوب يشبه جداً أسلوب شيخه الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله في رده على الزنادقة والجهمية. وقد قال البخاري في هذا الكتاب: "نظرت في كلام اليهود والنصارى والمحوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم، وأن لاستجهل من لا يكره إلا من لا يعرف كفرهم"¹⁸⁵.

يقال إنه قد نسب إلى الإمام البخاري أنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، ولما سُئل عن ذلك أجاب بقوله: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة. والامتحان بدعة¹⁸⁶، وكان رحمة الله يكره التعمق والتنقيب عن النقاط الغامضة في هذه المسألة وغيرها من المسائل التي تتعلق بالأسماء والصفات وأفعال العباد، بل يرى الاكتفاء بظاهر النصوص بعد فهمها على حد فهم السلف الصالح رحمهم الله، ومن أطلع على ما حققه في صحيحه في كتاب التوحيد وكتاب الدعوات وغيره في مسائل هذا الباب يدرك أنه

¹⁸² المصدر السابق.

¹⁸³ المصدر السابق ص: 489.

¹⁸⁴ عقائد السلف ص: 120.

¹⁸⁵ عقائد السلف ص: 123.

¹⁸⁶ هدي الساري ص: 203.

من الأئمة المدافعين عن منهج السلف الصالح الذي يجهله كثير من المؤخرين مع ثنائهم العاطر على السلف الصالح، يعرفونهم ويجهلون منهجمهم، إنه تناقض غريب، (والله المستعان).

قال سعيد بن عامر¹⁸⁷: "الجهمية أشر قولاً من اليهود والنصارى، وقد أجمعوا اليهود والنصارى وأهل الأديان على أن الله تبارك وتعالى على العرش، وقالوا لهم: ليس على العرش شيء".

جـ- الإمام عثمان بن سعيد الدارمي:
وهو ذلك الأديب الفقيه والمحدث المعروف، وقد أخذ الحديث عن أئمة كالجبال في علوم الحديث مثل يحيى بن معين، وعلي بن المديني وأمثالهما.

ويقول بعض من ترجم له إنه أخذ من شيوخ لا يعدون كثرة، وقد توفي هذا الإمام الفذ في بابه في سنة 280هـ ودفن ببلدة (هراء)¹⁸⁸، وقد ألف الإمام الدارمي كتاباً في الرد على الجهمية وصفه بعض أهل العلم بأنه من أقوى ما كتب في هذا الباب أسلوباً ومن أمنتها حجة. ويكتفي فخرأً لهذا الإمام، أن الإمام ابن تيمية كان يوصي بقراءة كتابين من كتبه وهما:

1- كتاب الرد على الجهمية.

2- كتاب النقض على بشر المرisi.

ويصفهما بأنهما من أجل الكتب المصنفة في السنة، وأنفعها لكل طالب سنة، مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون. كما أثنى عليهما الإمام ابن القيم بمثل ثناء شيخه ابن تيمية، وفي الكتابين المذكورين تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما¹⁸⁹.

أما الكتاب الآخر فقد ألفه ليرد فيه على بعض أتباع بشر المرسي الذي كتب الرد

¹⁸⁷ هو الإمام الثقة أبو محمد الضبي البصري، شيخ أحمد وإسحاق وابن معين من رجال الكتب الستة، توفي سنة 208هـ. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي 351/1.

¹⁸⁸ عقائد السلف ص: 44 نشار وعمار، وهراة مدينة عظيمة مشهورة من أمميات مدن خراسان آنذاك. تقع غربي أفغانستان، فتحها الأحنف بن قيس. راجع معجم البلدان 451/8.

¹⁸⁹ اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص: 110.

على الإمام الدارمي في كتابه (الرد على الجهمية)، ثم رد الإمام بهذا الكتاب على شيخهم ورئيسهم بشر المرسي، وناقش فيه المرسي لا صاحب الكتاب لأن صاحب الكتاب كان يورد كلام المرسي وحججه ويستدل بها لأنه عمدته في الرد الذي كتبه. هكذا ذكرروا، قال الإمام الدارمي في مطلع كتابه الذي رد فيه على المرسي: أما بعد، فقد عارضنا مذهبنا في الإنكار على الجهمية من بين ظهرانيهم معارض، وانتدب لنا منهم مناقض ينقض ما روينا فيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفاسير المضل المرسي الجهمي... الخ¹⁹⁰ ا.هـ.

وقد ناقش الإمام الدارمي في هذا الكتاب المرسي خاصة وأهل الاعتزاز عامة مناقشة حادة ومفحمة في تأويلاً لهم وتلاعبهم بالنصوص. فعقد باباً في أسماء الله وأوضح أنها غير مخلوقة كما عقد باباً خاصاً في صفة النزول، فأجاد فيه وأفاد، وباباً آخر في مبحث السمع والبصر، وإثبات الرؤية في الدار الآخرة، وهو: معتقد أئمة السلف قاطبة، وقد أكثر من التبويب للصفات الخبرية وغيرها إمعاناً منه في الرد على المريمية والجهمية في تأويلاً لهم.

وقد كان منهجه في عرض الصفات وسوقها منهاجاً سلفياً واضحاً، إذ يفصل في الإثبات مع الإجمال في النفي على طريقة القرآن الكريم، فمثلاً يقول: "يتكلم، ويرضى، ويُسخط، ويغضب، ويحب، ويبغض، ويكره، ويضحك، ويأمر، وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين... الخ. ثم قال: - بعد أن ساق مجموعة من الصفات على النمط الذي ذكرنا: "فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصفات فإنما يعبد غير الله، وليس معهوده بإله. (كفرانه لا غفرانه)¹⁹¹ ا.هـ

وقال الإمام الدارمي في كتابه الذي رد فيه على الجهمية: (باب الإيمان بالعرش): وهو أحد ما أنكرته المعطلة، ثم قال: قال أبو سعيد: "وما ظننا أن نضطر إلى الاحتجاج

¹⁹⁰ الرد على المريسي ضمن عقائد السلف ص: 46 تحقيق د. نشار، وعمار.

¹⁹¹ الرد على المريسي ضمن عقائد السلف ص: 47 تحقيق د. نشار، وعمار.

على أحد من يدعى الإسلام في إثبات العرش والإيمان به، حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا. وإلى الله نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرى الإسلام، وإليه نلحو وبه نستعين¹⁹² أهـ.

هكذا ناقش الدارمي الجهمية بحرارة وبلهجة يظهر عليها التأثر الشديد من ذلك الإلحاد الذي فاجأه من حيث لا يتوقع. والمرئية التي ناقشها الإمام الدارمي ورد شبهها من أشد الطوائف الاعتزال طرفاً، كما لا يخفى على كل مطلع على طوائف أهل الكلام.

ولذا لا ينبغي أن يستغرب أن يناقشهم الإمام الدارمي بتلك الشدة وبهذه اللهجة القوية، لأن موقف القوم وتصرفاً لهم مثير دون شك، رحم الله ذلك الإمام الغيور وأمثاله من الأئمة المدافعين عن منهج السلف الذين خلدوا بجهادهم ودفاعهم المنهج، ليقيى ما بقيت الحياة.

ومما يمتاز به المنهج السلفي، أن الذين ينهجونه لا يختلفون إلا في الأسلوب والتعبير على اختلاف أزمنتهم ومشاكلهم. وذلك راجع لوحدة المصدر لدعوكم، وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة الموضحة لمعاني النصوص إذ هم الذين حضروا نزول الوحي وفهموا النصوص فور نزولها، قبل أن يطول عليها العهد، ولذلك يحرص اللاحقون من السلف أن يقتدوا بالسابقين كما تقدم عند الحديث عن منهج السلف في إثبات الصفات.

وقد رد الدارمي في كتابه (الرد على الجهمية) على دعوة الضلال من المعطلة وعلى المغرضين من ذوي الديانات الأخرى، وله جهاد معروف ودفاع مشكور أجزل الله له المثلوبة على جهاده.

د- شيخ الإسلام ابن تيمية:

هو الإمام المجتهد السلفي المحدث المفسر البارع، وقد ترجم له غير واحد من العلماء، فذكروا أنه ولد ببلدة (حران)، ثم حمل إلى دمشق، وهو ابن سبع سنين فنشأ بها،

¹⁹² المصدر السابق ص: 263

وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ 661هـ¹⁹³.

وَمَا ذَكَرُوا فِي تَرْجِمَتِهِ أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْعَنَايَا بِالْحَدِيثِ، وَقَدْ دَارَ عَلَى الشَّيْوخِ وَنَسْخِ الْأَجْزَاءِ وَخَرْجِهِ، وَاتَّقَى وَبَرِعَ فِي الرِّجَالِ، وَعَلَلَ الْحَدِيثَ، وَفَقْهَهُ، وَفِي جَمِيعِ عِلْمَيِ الْإِسْلَامِ. وَاطَّلَعَ عَلَى الْفَلْسُوفَةِ، وَالْمَنْطَقِ فَبَرِعَ فِيهِمَا وَأَخْذَ يَنْقُضُ الْمَنْطَقَ بِشَدَّةٍ، وَيَرِدُ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ بِأَسْلُوبِهِمْ وَقَوْاعِدِهِمْ، وَلَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْاِهْتِمَامِ بِشَئُونَ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَةِ، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ بِسِيفِهِ، وَقَلْمَهُ وَبِذَلِيلِ الْمُسْلِمِينَ النَّصْحَ وَالْإِرْشَادَ. وَقَدْ حَدَثَ إِلَيْهِ الْإِمامُ ابْنُ تِيمِيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَمْوَى بِدِمْشِقَ كَثِيرًا، وَلَهُ فِيهِ (كَرْسِيٌّ) خَاصٌ يَحْدُثُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْظِمَ النَّاسَ مِنْ عَلَى الْمَنْبِرِ أَوْ يَخْطُبَ خُطْبَةَ الْجَمَعَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمَعْرُوفُ عَنْهُ التَّدْرِيسُ وَالتَّأْلِيفُ وَالإِجَابَةُ عَلَى الأَسْئَلَةِ وَالْحَوَارِ الْعَلْمِيِّ.

وَقَدْ حَدَثَ بِدِمْشِقَ وَفِي مِصْرَ وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقدَامِ أَيَّامَ حِروْبِ التَّتَارِ. بَلْ هُوَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْمَعْدُودِينَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ عِلْمَيِ الْعَصْرِهِمْ، وَكَانَ كَثِيرَ النَّصْحِ لِلْمُؤْمِنِيَّةِ وَالسَّلاطِينِ، بَلْ كَانَ يَحْثُمُ عَلَى الْجَهَادِ وَالْدِفَاعِ عَنِ الْعِقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَلَمَّا بَرَزَ ابْنُ تِيمِيَّةَ فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الدُّعَوَةِ إِلَى تَصْحِيحِ الْعِقِيدَةِ وَإِصْلَاحِ الْأَحْكَامِ، وَمُحَارَبَةِ الْبَدْعِ وَأَنْوَاعِ الشَّرِكِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ عِوَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَقْدِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَبَيْنِ عَوَارِهِ وَكَشْفِ عَنِ شَطْحَاتِ الْمَتَصُوفَةِ، وَإِلَحَادِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَدُعَا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَتَعْظِيمِ هَدِيِّ الرَّسُولِ، وَأَلَا يَقْدِمُ قَوْلُ أَحَدٍ عَلَى سُنْتِهِ، وَكَانَ يَدْعُو إِلَى عَدْمِ التَّقْيِدِ بِمَذْهَبِ مَعِينٍ، بَلْ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَدْوِرْ مَعَ الْحَقِّ حِيثُ دَارَ.

كَانَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ شَائِعًا فِي بَيْتِهِ، وَعَلَى ذَلِكَ الْمَنْهَجِ الْعَامِ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَةُ النَّاسِ، دُونَ أَنْ يَخْتَارَ مَحَلًا لِدَعْوَتِهِ دُونَ مَحَالٍ. وَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَامَتْ قِيَامَةُ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمَتَصُوفَةِ وَالْمُتَفَلِّسَفَةِ. وَانْضَمَ إِلَيْهِمْ بَعْضُ الْمُتَعَصِّبِينَ مِنَ الْمُتَفَقِّهِ الَّذِي هَزَّتْ هَذِهِ الدُّعَوَةُ السَّلْفِيَّةَ شَعَبِيَّهُمُ الْوَاسِعَةِ، فَخَافُوا عَلَى مَنَاصِبِهِمْ وَمَرَاكِزِهِمْ، وَقَدْ امْتَحَنَ الشَّيْخُ بِسَبِبِ دَعْوَتِهِ الْصَّرِيقَةِ وَالْقَوْيَةِ، فَأَوْذَى حَتَّى سُجْنَ بِقلْعَةِ الْقَاهِرَةِ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَبِقلْعَةِ دِمْشِقَ مَرْتَيْنِ، وَأَخْيَرًا تَوَفَّ فِي 20 مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانِ

وعشرين وسبعمائة (728هـ).

ولقد كان ابن تيمية شديداً في نقض الفلسفه، وقد بدد أوهامهم وأثبت لهم عدم صلاحية أدلةهم في المطالب الإلهية، فكان يقول رحمه الله: "العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل، والفرع. ولا بقياس شمولي تستوي فيه أفراده. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلةهم بل أوضح ابن تيمية في مناسبات عديدة في كثير من كتبه أن آراء الفلسفه أمشاج من الإلحاد والكفر والزندقة، وقد خاف من خطرها على الدين والفكر، فركز عليها في جهاده ودفاعه، ولقد كان عصره عصراً مائجاً بالأراء المتباعدة، والمذاهب المتضاربة، والعقائد المتنازدة التي أشرنا إليها سابقاً.

1- من فلاسفة يخضعون لأرسطو وأفلاطون، ويقولون بقدم العالم.

2- من متصوفة متأثرة بالفلسفه أو هم أبناء هم بل هم هم.

وقد تطول غلامهم في الحلول المطلق. وكان هذا من الميادين التي ركز عليها شيخ الإسلام في جهاده.

3- ومن جهمية جريئة يعطّلون صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، غير مبالين بالنصوص، وهم من ألد أعداء شيخ الإسلام، وإليهم وجه جلّ اهتمامه.

4- الأشاعرة الذين كانوا يزعمون التوفيق بين المعتزلة، وبين منهج السلف، ولكنهم لم يفلحوا إذ ليس من الممكن التوفيق بين الحق والباطل، بل الواجب الانتصار للحق وإزهاق الباطل.

5- كما يوجد في عصره باطنيون غامضون يتلون بألوان مختلفة، ويترقصون لكل جماعة قميصاً يناسب ميلهم ويرضيهم، ويتشكلون طوائف متعددة إلا أنهم يجمعهم غرض واحد، وهو محاولة القضاء على الإسلام لو استطاعوا.

وبهذه المناسبة نذكر تعريف القياس ووجه منع استعماله في المطالب الإلهية، مع بيان النوع الجائز استعماله، وهو القياس الأولي.

تعريف القياس

القياس في اللغة التقدير. يقال: قست الشوب بالذراع إذا قدرته. وأما في الاصطلاح فهو حمل فرع على أصل في حكم بينهما. هذا واحد من تعریفاته، وله أركان أربعة، كما يظهر في التعريف:

1- أصل

2- فرع

3- علة

4- حكم.

وله أقسام كثيرة، ومن أقسامه: قياس التمثيل، وقياس الشمول:
فالأول: هو إثبات حكم جزئي معين بجزئي آخر لمشابهة بينهما. **كتقولهم**: النبي **ح**رام **ك**الخمر **ل**جامع بينهما، وهو الإسکار.
وأما الثاني: وهو قياس الشمول فيمكن أن يقال في تعريفه: إنه إثبات حكم كلّي لكلي آخر، لما بينهما من المشابهة. **كتقولهم**: كل إنسان حيوان، وكل حيوان جسم، فكل إنسان جسم.

وإذا أردنا معرفة سبب إنكار علماء السلف، - وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية - استعمال هذه الأقىسة في المطالب الإلهية ترجع إلى تعريف القياس عامة وإلى تعريف التمثيل والشمول خاصة، لنستعرض أركان القياس في جميع تلك الأقىسة، فتكون النتيجة أن الأقىسة كلها تشتمل على فرع يلحق بالأصل، وعلى المشابهة بين الملحق وبين الملحق به، وهي العلة التي لا يتم القياس المنطقي إلا بها.

فكل هذه الإجراءات غير جائزة في حق الله تعالى لأنه تعالى ينزعه أن يكون أصلاً في حكم حتى يلحق به غيره، كما ينزعه أن يكون فرعاً لغيره يشتراك معه في العلة إذ **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**، وإنما يستعمل في حقه تعالى القياس الأولى وحقيقة: أن كل كمال ثبت وليس فيه نقص بوجه من الوجوه فالله أولى به، لأن معطي الكمال أولى به مع التفاوت بين تلك الكمالات، والله أعلم.

وبعد: فهؤلاء وأشباههم هم الذين خاصتهم الإمام ابن تيمية، ولكنه كان كريماً في خصومتهم وعادلاً في الحكم عليهم، إذ ليس لديه هدف في خصومته ودفاعه إلا النصرة للعقيدة الإسلامية المستهدفة من جميع تلك الطوائف، وهو خبير بهم، وفاهمٌ لمذهبهم فهما دقيقاً¹⁹⁴.

هكذا كان يعيش الإمام ابن تيمية في ذلك العصر المائج بتلك الآراء مجاهداً ناصحاً ومدافعاً مع التجدد والصبر، ولقد رمته تلك الطوائف من قوس واحد، ونصبوا له العداء، وحبكوا حال السعاية لدى السلاطين، ولهذا العداء الجماعي نتائجه الطبيعية من سجن وامتحان وأنواع من الإيذاء.

ولعل الفريدة البطوطية من أهم نتائج ذلك العداء، ولقد أخذتُ الفريدة قضية مسلمة في مختلف العصور يروونها ويتوارثونها، هي مروية في رحلة ابن بطوطة المعروفة، ومن تورط في حكايتها ونشرها أصحاب (دائرة المعارف الإسلامية) التي ترجمت إلى العربية في مصر وملخصها قول ابن بطوطة عن شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويدركهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزوبي هذا، ونزل درجة من درج المنبر"، والذي يثبت أن الرواية مجرد فريدة، لأن ابن تيمية كان في السجن في ذلك الوقت الذي زعم ابن بطوطة أنه سمعه وهو يعظ الناس.

يقول الشيخ محمد بهجة البيطار: إن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية، ولم يجتمع به، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام 726هـ، وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان في ذلك العام، ولبث فيه إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعده عام ثمان وعشرين وسبعيناً (728هـ) فكيف رأه ابن بطوطة على منبر الجامع، وسمعه يقول بالنزول... الخ¹⁹⁵اهـ.

¹⁹⁴ ابن تيمية نقض المنطق ص: 9-7، تحقيق محمد حامد الفقي.

¹⁹⁵ بهجة البيطار: حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ص: 44-36، عبد الصمد شرف الدين: مجموعة ابن تيمية، ط بومائي - الهند.

هؤلاء الأئمة الأربع: الإمام أحمد، والإمام البخاري، والإمام الدارمي، والإمام بن تيمية، ثم الإمام ابن عبد الوهاب الذي ستأتي ترجمته، هم الذين وقع اختيارنا عليهم من بين العلماء المدافعين عن المنهج السلفي في عصور مختلفة.

ولو راجعنا تراجم كبار الأئمة كأبي حنيفة وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، والإمام مالك، والليث بن سعد، والأوزاعي، والثورى، وابن عيينة، والشافعى، وال Hammondin، وابن الماجشون، لوجدناهم يعبرون عن استيائهم واستنكارهم لوقف علماء الكلام من نصوص الصفات، وعدم اعتبارها أصلاً في المطالب الإلهية، فمثلاً نسمع الإمام أبو حنيفة فيما يروى عنه روايته أبو مطیع: عمن قال لا أعرف ربی في السماء أم في الأرض قال: لقد كفر، لأن الله يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ^{١٩٦}، وعرشه فوق سبع سمواته، قال أبو مطیع: قلت: فإن قال إنه على العرش استوى، ولكنه يقول: لا يدری العرش في السماء أم في الأرض، قال الإمام: وهو كافر لأنه أنكر أن يكون في السماء، لأنه تعالى في أعلى علينا، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل ^{١٩٧}.

وقال كل من الإمام الزهرى ومكحول والأوزاعي ومالك والثورى والليث بن سعد قالوا عن الأخبار التي جاءت في الصفات: أمروها كما جاءت، وفي رواية قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف، وقد حکى الأوزاعي إجماع علماء التابعين على ذلك ^{١٩٨}.

إذ حکى ذلك عندما ظهر مذهب جهم بن صفوان الذي ينکر كون الله فوق عرشه، وينفي جميع صفاته تعالى، حکى الأوزاعي ذلك ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف ما يدعون إليه جهم وأتباعه، وهذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة يقول: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق والمغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف وتشبيه، إلى أن قال: فمن قال بقول جهم، فقد فارق الجماعة، لأنه قد وصفه بصفة (لا شيء) وما حکاه الإمام الأوزاعي من إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة

^{١٩٦} سورة طه آية: 5.

^{١٩٧} ابن تيمية، الفتوى الحموية الكبرى ص: 37، تفسير شيخ الإسلام ص: 22.

^{١٩٨} الفتوى الحموية الكبرى ص: 40، راجع مختصر العلو ص: 142، وتقدم.

المستند إلى الكتاب والسنة، ثم ما حكاه محمد بن الحسن من إجماع علماء المشرق والمغرب على موقفهم من نصوص الصفات، كل ذلك يعنينا عن نقل أقوال الأئمة قولهًا قولهً. لذا نرى الاكتفاء بما ذكرنا من أقوال أكثرهم.

من مراجعة كل ما تقدم نستطيع أن نستخلص معلم منهج ابن تيمية في الآتي:

1 - إثبات الاتفاق بين الدليل العقلي والدليل الناطقي، وهو ما ينوه به ويدعو إليه في أكثر كتبه ورسائله في الغالب الكبير.

2 - رفض التأويل والمصطلحات الكلامية والفلسفية - ومحاولة إخضاعها للمعاني التي جاء بها الكتاب والسنة. ويدعو شيخ الإسلام دائماً إلى التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات إسلامية بدلاً من تلك الألفاظ الأجنبية المحدثة، والتي فيها إجمال واشتباه محير.

3 - نقض المنطق وهدمه واستبعاده، مستخدماً في ذلك كله أساليبهم الخاص ليخاطبهم بما يعقلون. وأما من حيث الاتفاق بين الدليلين العقلي والناطقي فيرى شيخ الإسلام أن الاختلاف بين الدليلين راجع لأحد أمرين:

1 - ضعف الدليلين معاً.

2 - ضعف أحد هما.

وأما إذا كان كل منهما صحيحاً وصريحاً فلا يجوز اختلافهما¹⁹⁹.

وهذا هو منهج أولئك الأئمة من قبله كإمام أحمد إمام الأئمة، والإمام البخاري إمام الحديث، والإمام الدارمي المجاهد الكبير وغيرهم، وهؤلاء وغيرهم من سار هذا المسار قديماً وحديثاً تجدهم لا يختلفون في أصل المنهج على اختلاف عصورهم وأحوالهم وظروفهم، وإن اختلفوا في التعبير والأسلوب والشدة واللين كما تقدم²⁰⁰، وهو الذي نحجه من بعدهم الإمام محمد بن عبد الوهاب، كما سنراه عند ترجمته وعند الاطلاع على رسائله التي كان يبعث بها للدعوة إلى هذا المنهج.

ويمتاز ابن تيمية بكثرة الجبهات التي يواجهها وحده مما جعله يتسلح بنوع أساليبهم

¹⁹⁹ استقينا هذه المعلومات من كتاب منهج علماء الحديث والسنة للأستاذ الدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

²⁰⁰ راجع ترجمة الدارمي.

حتى يتمكن من الدفاع عن المنهج السلفي بلغتهم وبنوع أسلحتهم، كما حمله والذين جاءوا من بعده على الخوض في غوامض علم الكلام وفلسفة الفلسفه مضطرين.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب
فما حيلة المضطرب إلا ركبُها

ولكن الدارس لمنهجهم يدرك أن منهجهم يتسم بالارتباط التام بالكتاب والسنة. وإنما خاضوا ذلك النوع من الخوض ليفسروا - بلغة القوم - ما غمض على المستكلمين. من معاني الصفات مع المحافظة على أصل المنهج السلفي الجامع بينهم وبين من سبقهم من أئمة السلف الأولين.

— الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله:

ولادته... نشأته. طلبه للعمل. ورحلاته. اشتغاله بالدعوة أثناء طلبه للعلم. عودته إلى بلده، وملازمته لوالده للازدياد من العلم. عكوفه على كتب ابن تيمية وابن القمي، وتأثره بهما، استمرار دعوته بعده. آثارها في العالم المعاصر، محلياً وخارجياً.

أما ولادته: فقد ولد ابن عبد الوهاب في بلدة (العينة) سنة 1115هـ، الموافق 1703م.

أما نشأته فقد نشأ في حجر والده عبد الوهاب، وهو أحد أعيان علماء البلد والقاضي فيه، وعرف في صغره برجاحة العقل وحصافته، وقوة الذاكرة، فحفظ القرآن الكريم قبل عشر سنين، وبلغ الاحتلام قبل تمام الثانية عشرة من عمره وذكر بعض من ترجم له: أن والده عبد الوهاب قال: رأيته أهلاً للصلوة بالناس فقدمته في هذا السن، وزوجه في ذلك العام²⁰¹.

وأما طلبه للعلم: فقد طلب العلم على والده حيث قرأ عليه بعض الكتب في الفقه الحنفي، وشيئاً من التفسير والحديث، ثم رحل رحلة طويلة في طلب العلم، حيث سافر إلى مكة، فحج البيت في أوله رحلته للعلم، ثم سافر إلى المدينة بعد الحج فزار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فأقام بها ليطلب

²⁰¹ ترجمة محمد بن عبد الوهاب ص: 16-20، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، للشيخ أحمد بن حجر، قاضي المحكمة بقطر.

العلم على علمائها وكان بالمدينة آنذاك من العلماء الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف آل سيف، وهو في الأصل من أهل نجد، بل قالوا: إنه من أعيان بلد (المجععة) فلازمه الشيخ محمد بن عبد الوهاب فتفقه على يده فرأى فيه ابن سيف النبل والذكاء فتفسر فيه الخير، فأحبه واعتنى به كثيراً وبذل جهده في تعليمه، وكان الشيخ ابن سيف يرى الطالب الشاب يتأنم مما يراه من تعلق الناس بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلوهم فيه عند الزيارة والسلام عليه، إذ يدعونه عليه الصلاة والسلام من دون الله.

كما أدرك الشيخ منه تألمه الشديد مما عليه أهل نجد من عقائد باطلة، وعادات جاهلية، فازداد الشيخ ابن سيف في حبه وتقديره والحفاوة به، إذ ربطت بينهما رابطة العقيدة، فقدمه الشيخ لبعض العلماء بالمدينة كالشيخ محمد حياة السندي، وعرفه به، وبما يكرهه الشيخ محمد بن عبد الوهاب من عقيدة صافية، وبما تحيش به نفسه في كراهة الجاهلية الشائعة في كل مكان من أنواع البدع والشرك ب نوعيه.

تروي بعض المصادر أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تضايق ذات يوم مما يسمعه من الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ينفجر غيظه، فقال للشيخ محمد حياة السندي: ما تقول يا شيخ في هؤلاء؟ فأجابه الشيخ على الفور: **{إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**²⁰².

ودرس الشيخ مدة إقامته بالمدينة على غير واحد من العلماء منهم الشيخ علي أفندي الداغستاني، والشيخ إسماعيل العجلوني، والشيخ عبد اللطيف العقالقي الإحسائي وغيرهم، وعند عزمه على السفر أخذ إجازة علمية من شيخه عبد الله آل سيف وغيره من الذين حضر عليهم، فأجازوه في صحيح البخاري، ومسند الإمام الشافعى والسنن الأربع، وغيرها من كتب الحديث.

فغادر الشيخ المدينة إلى نجد ثم البصرة ثم الشام، فأقام بالبصرة مدة من الزمن، فحضر على جماعة من علماء البصرة، وفي مقدمتهم الشيخ محمد المجموعى واستفاد من هذا الشيخ كثيراً في فروع اللغة العربية والحديث.

²⁰² سورة الأعراف آية: 139.

فأدرك الشيخ المجموعي أن ابن عبد الوهاب ليس بطالب علم عادي، بل أنه داعية يتهيأ للقيام بالدعوة والإصلاح، وأنه شديد الغيرة يتأنم مما يشاهده هنا وهناك من الأعمال التي لا يقرها الإسلام من الأعمال الوثنية والبدع، فأحبه المجموعي وقربه وشجعه، فأخذ الداعية ابن عبد الوهاب يكتب رسائل في الدعوة ويباحث الناس وينشر فيهم الدعوة، وهو لا يزال طالباً، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشدد الإنكار على عبادة القبور فأوذى بسبب ذلك حتى أخرج من البلد، فأوذى بعدهشيخ المجموعي رحمهما الله.

تذكر بعض المصادر التي ترجمت للشيخ أنه أخرج من البصرة وقت الهجرة وهو يمشي على قدمية، فتوجه إلى (الزبير) وكان يهلك من شدة الظماء في شدة الرمضان، فساق الله له رجلاً من أهل الزبير يسمى (أبا حميدان)، فرأاه من أهل العلم والصلاح، فحمله على حماره حتى أوصله إلى بلدة (الزبير).

ولم يقم الشيخ في الزبير كثيراً فتوجه إلى الشام، فطلب العلم هناك، ثم رجع إلى نجد، إلا أنه عرج على الإحساء، فنزل عند بعض علماء الإحساء، الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي، فدرس عليه مدة من الزمن، واستفاد منه.

عودته إلى نجد للدعوة والإصلاح:

وبعد هذه الرحلة العلمية الموفقة التي استفاد منها فوائد جمة حيث ازداد من العلم والمعرفة ودرس أحوال المسلمين في عدة بلدان وأدرك حاجة المسلمين الماسة إلى الإصلاح العام والتصحيح الجذري الفوري لعقيدتهم نحو ربهم وحالاتهم و موقفهم من نبيهم الذي بعث لهم و موقفهم من كتاب ربهم الذي هجروه، إذ لا يرجعون إليه لا لمعرفة عقيدتهم وأحكامهم، بل أدرك الشيخ وتأكد أثناء جولته في كثير من البلدان المجاورة، وما شاهده في وطنه في نجد أن الأمة بحاجة إلى معرفة دينها من جديد، معرفة تامة في أصوله وفروعه، ثم تطبيق شريعته في حياتها العامة. وأن هذه الفوضى التي تعيشها الأمة لا بد أن تنتهي وتحتفظ لتبديل بحياة إسلامية صحيحة شاملة لجميع نواحي الحياة.

وانطلاقاً من هذا الإدراك صمم الشيخ على القيام بالدعوة الإصلاحية العامة مستعيناً

بِاللَّهِ.

بدأ الشيخ دعوته في بلده (حريما) بتصحيح عقيدة الناس فيما يتعلق بعبادة الله، وأنكر عليهم تعلقهم بغير الله وصرف العبادة أو بعض أنواعها لغير الله مثل النذر، والذبح، والخوف، والرجاء، مما هو منتشر في البلد آنذاك. وقد كان هذا النوع من الإصلاح جديداً على الناس ومفاجأة لهم فقوبلت الدعوة في أول الأمر بالاستنكار والرد والجدال، يقول بعض الكتاب -وهو يصف موقف الشيخ عندما بدأ يدعو الناس إلى الله وموقف الناس منه-: حقاً إن الموقف دقيق حرج يحتاج إلى شجاعة ماضية، وإلى إيمان لا يبالي بالأذى في سبيل إرضاء الله وإرضاء الحق الذي اقتنع به، وسبيل إنقاذ البشرية المعدبة، كما يحتاج إلى عدة كاملة من قوة اللسان وإصابة البرهان، ليواجه ما يجاهه من شبكات واعتراضات، لا بد منها، ثم إلى مؤازر قوي يحمى ظهره ويدافع عن دعوته²⁰³ أهـ.

وموقف كما وصفه الكاتب جدُّ حرج، إلا أن الله ثبت الشيخ على الدعوة على الرغم من كل العقبات والصعوبات التي واجهة الدعوة، وحاولت إيقافها من الداخل في أسرته قبل أن يتبيّنوا الأمر، ومن الخارج من المغرضين أصحاب الأهواء، ولكن الله سلم، فلم تقف الدعوة منذ بدأت بل استمر الشيخ يجاهد بلسانه وقلمه صابراً محتسباً. وكان والده من نازعه في أول الأمر وكذلك أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، ولكن بعض المصادر أثبتت اقتناعهما بالدعوة أخيراً والرجوع إلى الحق.

ولما تكرر إيداؤه (بحريما) وأراد بعض السفهاء أن يفتکوا به، غادر الشيخ (حريما) إلى بلده ومسقط رأسه (العينة)، وكان يحكمها آنذاك (الأمير عثمان بن حمد بن معمّر)، فرحب بالشيخ وبدعوته. ونصحه الشيخ كثيراً ليصبر ويحتسب، لأنه لا بد أن يؤذى وشرح له دعوته، وأنها قائمة على الكتاب والسنة، وأنها تعني أول ما تعني تطهير العقيدة والأخلاق، وتصحح الأحكام، وأن القائمين على هذه الدعوة لا يريدون إلا وجه الله، والثواب في الدار الآخرة من الله وحده.

²⁰³ ابن حجر: ترجمة محمد بن عبد الوهاب ص: 21 طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

فاقتتنع الأمير فأخذ الشيخ في الإصلاح العملي، فأمر بقطع بعض الأشجار التي كانت تعبد وتعظم، وهدم قبة كانت على قبر (زيد بن الخطاب)، كل ذلك بمساعدة الأمير ابن معمر، وأخيراً أقام الشيخ (الحد) على امرأة اعترفت بالزنا عدة مرات أمامه بعد ما تأكد من صحة عقلها ورغبتها في (التطهير).

وبعد هذه الواقعة اشتهر أمر الشيخ وذاع صيته في كل مكان في نجد وما جاورها²⁰⁴. بلغ خبره وإصلاحاته بعض الأمراء الذين لهم مكانة ومنزلة لدى ابن معمر، وأتباعه وبينهم مصالح متبادلة، فكاتبوا ابن معمر بالاستنكار إلى أن أثروا فيه، فرجع عن مؤازرة الشيخ تحت تهديد بعض أولئك الأمراء، وهو حاكم الإحساء (ابن عريعر) فأمر بإخراج الشيخ من بلده. فغادر الشيخ (العينة) إلى (الدرعية) سنة 1158، فنزل على بعض أعيان الدرعية يقال له: (عبد الرحمن بن سويم) وبعد أيام علم به أمير الدرعية الأمير (محمد بن سعود)، فجاء إلى الشيخ مع بعض إخوانه وأتباعه فزاروا الشيخ فدعاهم إلى التمسك بعقيدة التوحيد الخالص، وبين لهم أن التوحيد هو الذي بعث الله الرسل من أجله، وأنه قد ضعفاليوم في قلوب الناس، وتلا عليهم عدة آيات من القرآن، ودعا للأمير، ورجا من الله أن يكون إمام يجتمع عليه المسلمون بعد ذلك التفرق، وأن تكون له السيادة والملك لذرته من بعده. فشرح الله صدر الأمير محمد بن سعود، فقبل الدعوة، وأحب الشيخ، وبشره بالنصرة والوقوف معه على من خالفه في دعوته وإصلاحه. وتعاهدا وقدم كل واحد منهما ما لديه من الشروط، فواصل الشيخ عمله في الدعوة والإصلاح، والأمير يتبع الدعوة حاملاً سيفه على من يعاند الحق، فظهر أمر الشيخ وانتشرت دعوته فوهدت عليه الوفود، حتى ندم ابن معمر على ما فعل فجاء إلى الشيخ فاستسمح الشيخ رحمة الله فسامحه فأقبل الناس على العلم والعبادة والجهاد.

ثم أخذ الشيخ يراسل الرؤساء والأمراء والقضاة. فمنهم من أطاع فرجع إلى الحق، ومنهم من عاند وسخر من الدعوة. وتلك سنة الله في خلقه التي لا تتبدل ولا تتغير منذ بدأ الدعوة على وجه الأرض.

²⁰⁴ ترجمة محمد بن عبد الوهاب ص: 22 للشيخ أحمد بن حجر قاضي المحكمة بقطر.

هكذا بدأ ابن عبد الوهاب دعوته وإصلاحه، فنشر العلم وألف كتاباً ورسائل أكثرها كانت في توحيد العبادة الذي يرى الشيخ - كما هو الواقع - أن حاجة الناس إليه أمس من حاجتهم إلى أي علم آخر.

ولما علم الشيخ أن بعض المغرضين أشاعوا عنه خلاف واقعه في دعوته في عقيدته، في موقفه من الأئمة، وفي عقيدته في القضاء والقدر، وموقفه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل موقفه من التمسك بالسنة، وعقيدته في الأسماء والصفات. لما علم ذلك كتب رسائل كثيرة في هذه المسائل وغيرها وأرسلها في الأقطار، حتى تعرف الناس حقيقة دعوته وعقيدته. وقد سجلت أكثر هذه الرسائل أو كلها في كثير من تراجم الشيخ. ولما أن أكثر موضوعات تلك الرسائل لا تتصل بموضوع بحثي، وأن نقلها أو تلخيصها يؤدي إلى التطويل الممل، أكتفي بنقل رسالة واحدة هي في صميم بحثنا (رسالته في الأسماء والصفات) أنقلها بنصها لأن ذلك أبلغ في المراد.

بعد البسمة والحمد لله:

الذي نعتقدونه في الله به، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربع وأصحابهم رضي الله عنهم.

وهو الإيمان بآيات الصفات وأحاديثها، والإقرار بها، وإمارتها كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل، قال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ثُوَّلَهُ مَا تَوَلَّٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} ²⁰⁵.

وقدر الله لأصحاب نبيه، ومن تبعهم بإحسان، الإيمان، فعلم قطعاً أنهم المراد بالأية الكريمة، قال الله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَ اللَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ} ²⁰⁶، وقال الله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} ²⁰⁷.

فثبت بالكتاب أن من اتبع سبيلهم فهو على الحق، ومن خالفهم فهو على الباطل،

²⁰⁵ سورة النساء آية: 115.

²⁰⁶ سورة التوبة آية: 100.

²⁰⁷ سورة الفتح آية: 18.

فمن سبّلهم في الاعتقاد: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه، وسمى بها نفسه في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تفسير ولا تأويل لها، بما يخالف ظاهرها ولا تشبه بصفات المخلوقين، بل أمروها كما جاءت، وردوا علمها إلى قائلها ومعناها إلى المستكلم بها²⁰⁸، وأنحد ذلك الآخر عن الأول، ووصى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع، وحذرنا عن اتباع طريق أهل البدع والاختلاف الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}²⁰⁹، وقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاحْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءُهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}²¹⁰.

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم، وأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام، نقل مصدق لها، مؤمن بها، قابل لها، غير مرتاب فيها، ولا شاك في صدق قائلها، ولم يتوولوا ما يتعلق بالصفات منها، ولم يشبهوا بصفات المخلوقين، إذ لوى فعلوا شيئاً من ذلك لنقل عنهم، بل زجروا من سأل عن المتشابه وبالغوا في كفّه تارة بالقول العنيف، وتارة بالضرب²¹¹.

ولما سئل مالك رحمه الله عن الاستواء، أجاب بمقالته المشهورة، وأمر بإخراج الرجل.

وهذا الجواب من مالك في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات، مثل النزول والمجيء واليد والوجه، وغيرها.

فيقال في النزول: النزول معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يقال فيسائر الصفات، إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة.

وثبت عن الربيع بن سليمان قال: سألت الشافعي رضي الله عنه عن صفات الله

²⁰⁸ أي علم كيفية وكنها: أما معناها اللغوي فمعروف من الوضع العربي للكلمة فمعاني الصفات معروفة، وإنما التفويف في الكيفية والكنه هذا الذي عليه سلف الأمة قديماً وحديثاً.

²⁰⁹ سورة الأنعام آية: 159.

²¹⁰ سورة آل عمران آية: 105.

²¹¹ إشارة ما فعله عمر بن الخطاب حين ضرب صبيع بن عيسى الذي كان قد شغل الناس بالسؤال عن المتشابه مثل فواتح بعض السور، ثم نفاه إلى البصرة ونهى الناس عن مجالسته (صون المنطق للسيوطى).

تعالى، فقال: حرام على العقول أن تمثل الله، وعلى الأوهام أن تخدّه، وعلى الظنون أن تقطع وعلى النفوس أن تفكّر، وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل، إلا ما وصف به نفسه على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام اهـ.

وَثَبَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّابُونِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ يَصِفُونَ رَبِّهِمْ بِصَفَاتِهِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابَهُ وَتَنْزِيلَهُ، وَشَهَدَ لَهُ بَهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحَاحُ، وَنَقَلَهُ الْعُدُولُ الثَّقَاتُ، وَلَا يَعْتَقِدونَ بَهَا تَشْبِيهًًا بِصَفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَا يَكْيِفُوهُنَا تَكْيِيفُ الْمُشَبَّهَةِ، وَلَا يَحْرُفُونَ الْكَلْمَ عَنْ مَوْضِعِهِ تَحْرِيفُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهَمِيَّةِ.

وقد أعاد الله أهل السنة من التحريف والتكييف، ومن عليهم بالتفهيم والتعريف، حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واكتفوا في نفي النقائص بقوله عز وجل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ²¹²، وب قوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَّْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} ²¹³.

وَبَثَتْ عَنِ الْحَمِيدِيِّ شِيخِ الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: "أَصْوَلُ السَّنَةِ: فَذَكَرَ مِنْهَا أَشْيَاءً وَقَالَ: مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ، مِثْلُ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلْتُ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوتَ طَانٍ يُفْقِي كَيْفَ يَشَاءُ} ²¹⁴، وَمِثْلُ: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} ²¹⁵، وَمَا أَشْبَهُهُ هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، لَا نَرَدُهُ وَلَا نَفَسِرُهُ، وَنَقْفُ عَلَيْهِ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسَّنَةُ.

ونقول: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**. ومن زعم غير هذا فهو جهمي.
فمذهب السلف - رحمة الله عليهم - إثبات الصفات، وإجراؤها على ظاهرها
ونفي الكيفية عنها، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، كما أن إثبات
الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، ولا تشبيه، فكذلك الصفات، وعلى هذا مضى

سورة الشورى آية: 11²¹²

٢١٣ سورة الإخلاص: ٤-٣

سورة المائدة آية: 64

سورة الزمر آية: 67 215

السلف كلهم.

ولو ذهبتنا نذكر كل ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لطال الكلام جداً، فمن كان قصده الحق، وإظهار الصواب اكتفى بما قدمناه. ومن كان قصده الجدال والقيل والقال، لم يزده التطويل إلى الخروج عن سوء السبيل والله الموفق له.

وبعد: فهذه واحدة من تلك الرسائل التي كان الشيخ يشرح فيها دعوته ويبين عقيدته في باب الأسماء والصفات، وله رسائل أخرى أوضح فيها موقفه وعقيدته في الأبواب الأخرى، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وفي هذه الرسالة أثبت الشيخ أن من سبيل الصحابة والإيمان بصفات الله وأسمائه دون تأويل ودون تجاوز للكتاب والسنة. هذه طريقة الإمام أحمد بن حنبل ومنهجه، حيث يقول: "لا يتجاوز الكتاب والسنة في باب صفات الله" أو عبارة قريبة منها. أعود فأقول: أثبت الشيخ أن هذا سبيلهم ومذهبهم بقوله:

"والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا أنهم نقلوا إليها القرآن العظيم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقل مصدق لها، مؤمن بها، قابل لها، غير مرتاب فيها، ولا شاك في صدق قائلها. ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها". إلى آخر ذلك الاستدلال الدقيق الذي يدل على فقه عميق، وهو يشبه كما ترى أسلوب شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستدلال وتلميذه ابن القيم رحمهما الله جميماً اللذين تخرج الشيخ على كتبهما كما تقدم.

وعلى الرغم مما كتبه الشيخ من الكتب والرسائل فقد كثر النزاع حول دعوته ولا سيما في المسائل الآتية التي ركز الشيخ عليها:

1- توحيد العبودية، ويقال له الألوهية أيضاً، وقد كتب الشيخ في هذا التوحيد عدة رسائل وكتب لأهميته وكتب فيه بعده أولاده وأحفاده بتوسيع، وشرح بعضهم بعض كتب الشيخ في هذا التوحيد كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله قريباً.

2- منع التوسل المبتدع مع إقراره بالتسل المشروع²¹⁶.

²¹⁶ ثبت بالاستقراء أن التوسل ينقسم إلى قسمين: مشروع: وهو التوسل إلى الله بالإيمان والعمل الصالح، وبأسمائه، وبدعاء الرجل الصالح والأمثلة معروفة في كتب السنة. والقسم الثاني: التوسل المبتدع، وهو الذي أنكره الشيخ، وينكره جميع الدعاة قدماً وحديثاً، وهو ما يفعله العوام وأمثال العوام من التوسل بذوات الصالحين وجاههم ومنزلتهم عند الله، والمسألة معروفة ومشروحة في بابها. ومع إيماناً بجاه

3- منع شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، بقصد العبادة في مكان ما. ولا يدخل في المنع سفر طلب العلم أو سفر التجارة وزيارة الأحياء كشيوخ العلم وعباد الله الصالحين، وما في معنى هذه الأسفار مما لا يقصد فيه مكان، بل مَنْ في المكان أو ما في المكان.

4- منع البناء على القبور وكسوها وإسراجها، والعكوف عندها، لأن ذلك باب إلى الشرك وذرية له كما هو معروف.

5- توحيد الأسماء والصفات، وهو الذي سجلنا فيه رسالته التي شرح فيها ذلك الشرح الوافي.

6- إنكار البدع المستحدثة في العبادة وهي أنواع كثيرة ومحروفة.
وقد سبق الشيخ في إنكارها غير واحد من أهل العلم، كابن وضاح والشاطبي وغيرهما مستدلين بمثل قوله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد". "ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"²¹⁷.

فهذه أمهات المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الشيخ وعلماء وقته. ولا يزال النزاع مستمراً، وإن كان قد خفت حدته كثيراً كما يظهر جلياً.
استمرار الدعوة بعد وفاته، ووفاة مؤازرها:

توفي الإمام المؤازر للدعوة محمد بن سعود رحمه الله سنة 1179هـ، ثم توفي الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب سنة 1206 رحمه الله. وهل ماتت الدعوة بموتهما أو تأثرت؟ (لا).

ما يلاحظ في التاريخ أن أي دعوة يقوم بها بعض المصلحين أو المجددين تموت أو تضعف ثم تتلاشى مع الزمن، إذا مات صاحب الفكرة ومنشئ تلك الدعوة.

وهناك دعوة لا تموت يموت الداعية المسئول عن الدعوة، فإذاً لا بد من معرفة الفرق بين الدعوة التي تموت بموتها صاحبها، والدعوة التي تبقى بعده، بل تسير ولا تقف وتعمل

الصالحين وكرامتهم عند الله فإن التوسل بجاههم وكرامتهم ومنزلتهم عند الله غير مشروع، وهو أمر لا يخفى على طالب العلم.

²¹⁷ فتح الباري - السلفية- كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على جور 5/301، صحيح مسلم: كتاب الأقضية 12/16.

عملها ولبيان ذلك نقول:

هـما دعو تان:

١- دعوة أنسأها مفكر مّا بعد أن فكر كثيراً وخطط ووضع لدعوته شروطاً ولوائح، حيث رأى أنها صالحة لخدمة الأمة، أو لخدمة جماعة من الناس، ثم سعى في إقناع مجموعة من الناس بفكرة وصالحيتها، وبيان أهدافها، فاتبعوه فصاروا من حزبه وأنصار دعوته، فلا يخلو الأمر بالنسبة لاستمرارية هذه الدعوة أو عدم استمراريتها بعد موت صاحبها من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: أن يموت صاحب الدعوة قبل أن يربى له من يخلفه، ويقود الدعوة من بعده. ففي هذه الحالة تموت الدعوة فور موت صاحب الفكرة، ولا محالة في قضية مسلمة عقلاً.

الحالة الثانية: أن يكون صاحب الفكرة، وقد وجد من يختلفه وهو مؤهل للقيادة ومتفاعل مع الدعوة. ففي هذه الحالة قد تحيى الدعوة فترة من الزمن قد تطول، وقد تقصير، ولكنها تتلاشى مع الزمن وتتأثر وتفقد قيمتها، ثم تختفي. والتاريخ خير شاهد على ما قلت. لأن أساسها (فكرة) رجل وخطيب بشر، والمفكر المخطط لها قد مات وانتهى، فهي إذاً لا بد أن تنتهي ولا محالة.

والشواهد كثيرة في واقع العالم المعاصر ولا حاجة إلى سردها، بل أستحسن إجمالها.
لأنقل فوراً - بعد هذا الاستطراد - إلى الدعوة التي نحن بقصد الحديث عنها.

2- الدعوة الثانية: دعوة قام بها مصلح مجدد بيد أن معنى التجديد هنا يختلف عن معناه في الدعوة الأولى، فالدعوة الأولى - كما قلنا - أساسها فكرة بشر، وهي تحاول أو تدعى أو تأتي بتجديد، وربما تأتي بتجديد يقبل أو يرفض.

أما الدعوة الثانية فأسسها دين إسلامي ثابت وقائم بالفعل، ولكن صاحبها لاحظ أن المسلمين هجروا تعاليمه أو بعضها إذ رأهم هجروا كتاب الإسلام (القرآن) وأهملوا سنة نبيهم، فلم يعد القرآن مرجعاً لهم في عقيدتهم، وفي عبادتهم ومعاملاتهم وغير ذلك، ولم تكن السنة ذات قيمة لديهم ومكانة. فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام ليفهموا القرآن

كما فهمه سلفهم، ويفسروه بالسنة كما فعل الأولون، ويطبقوا أحكامه ويعتقدوا عقيدته. وهذا هو معنى التجديد بالنسبة للدعوة الثانية. فليست الدعوة فكرة أو اختراعاً أو استحساناً قام به مفكر أو مصلح من عند نفسه مجتهداً لقصد الإصلاح.

فمثل هذه الدعوة سوف تبقى بعد موت من قام بها، ودعا إليها -لأنها ليست (فكرة) كما قلت، وإنما هي دعوة إلى الله، وإصلاح ما فسد من شئون المسلمين وربطهم بإسلامهم ليسعدوا به في الدارين.

فذعوه ابن عبد الوهاب من النوع الثاني - كما ترى - لهذا فإنها لم تمت بموت مؤازرها، والمدافع عنها بحسامه، الأمير محمد بن سعود، ثم مات المجدد المصلح الإمام محمد بن عبد الوهاب والدعوة الإسلامية السلفية باقية، وستبقى بإذن الله ما بقي الإسلام الذي هو أساس دعوته، وقام بتجديده بالعمل به وتطبيق شريعته لأنها دعوة إلى الإسلام لا إلى (فكرة رجل) كما سبق أن بيننا.

ولما توفي الإمام المجدد، وقبله الأمير المؤازر سَلَّمَا (الأمانة) أمانة الدعوة والإصلاح، وأمانة مؤازرها والمدافع عنها ورعايتها، إلى أيد أمينة، وهي أيدي ذريتهما المباركة. فقام علماء آل الشيخ وتلامذتهم - تحت رعاية ملوك وأمراء آل سعود ومؤازرهم - بمواصلة مسيرة الدعوة، فلا تزال الدعوة بخير وعلى أحسن حال -بتوفيق الله - وتسير سيراً حثيثاً حتى بلغت اليوم إلى أماكن وأقطار ما كان يُظن أنها تبلغها في عرض الدنيا وطولها. وستواصل سيرها - بإذن الله وتوفيقه - حتى تزحزح جميع الأفكار الهدامة المعارضة لها، ليعم نور التوحيد الخالص أرجاء الدنيا لأن العاقبة للمتقين.

آثار الدعوة في البلاد السعودية:

لدعوة محمد بن عبد الوهاب آثار محلية في البلاد السعودية - وآثار خارجية. أما الآثار المحلية فمن أبرزها وأعمها نفعاً للبلاد والعباد:

أ- (قيام دولة إسلامية سلفية في قلب الجزيرة العربية) التي أعلنت أن دستورها (القرآن الكريم) وحكمت بشرعية الإسلام فعلاً وحافظت على المقدسات الإسلامية - مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومكنها الله في الأرض، فأمرت بالمعروف ونعت عن المنكر،

فمنحها الله من المنعة والمهابة والتوفيق ما لم يعط غيرها، فتتمتع شعبها بما لم يتمتع به أي شعب آخر من نعمة الأمن والاستقرار والرفاهية في الحياة. كل ذلك بفضل الله تعالى ومنه وكرمه، ثم بفضل تحكيم شريعة الإسلام والتمسك بالعقيدة الإسلامية، والدفاع عنها ومؤازرتها، وتشجيع القائمين عليها.

ولم توجد في العالم المعاصر دعوة إسلامية قامت على منهجها دولة إسلامية غير دعوة محمد بن عبد الوهاب. وكأن الله عالم -والله هو العليم- من الإمامين: ابن سعود، وابن عبد الوهاب، الصدق والإخلاص له سبحانه في عملهما، فحقق لهما أمنيتهما فحقق على أيديهما للأمة السعودية هذا الخير، ثم بارك لهما في ذريتهما حتى واصلت المسيرة فها هي الآثار تتحدث بنفسها.

هكذا تحسدت تلك الدعوة السلفية في قيام الدولة السعودية الإسلامية السلفية في قلب الجزيرة العربية لتكون ملجاً لكل مضطهد في دينه في أي أرض، والله الحمد والمنة.

بـ- المنهج الدراسي المتبعة في السعودية:

التزمت الحكومة السعودية أن يكون المنهج المقرر بالنسبة للمواد الدينية (المنهج السلفي) في جميع مراحل التعليم، أي من المرحلة الابتدائية إلى الدراسات العليا. فالشاب السعودي يبدأ في دراسة العقيدة على المنهج السلفي من السنة الأولى الابتدائية، ثم يستمر في دراسة العقيدة والشريعة الإسلامية على المنهج نفسه بتوسيع متفاوت ومطرد إلى درجه (دكتوراه) كما ينهج هذا المنهج الطلاب الوافدون من خارج البلاد للدراسة في الجامعات السعودية، ليتخرجو على ذلك المنهج السلفي، وليطبقوه في بلادهم إذا رجعوا إليها ويرشدو أمتهم إلى الخير، ويدعوهم إلى المنهج السلفي الذي أصبح غريباً لدى الكثيرين، ويدرس الطالب في المرحلة الجامعية الفرق والأديات والمذاهب الهدامة للاطلاع والازدياد من المعرفة، ومن باب:

عرفت الشر لا للشر لكى أتقيه
من لم يعرف الشر وقع فيه

فلا يوجد في الجامعات السعودية -ولن يوجد إن شاء الله- منهج آخر يزاحم المنهج السلفي -كما أشرنا سابقاً- وذلك ثمرة جهاد الإمام المصلح الذي قضى على كل بدعة

محدثة فإذاً يعتبر - بحق - المنهج السلفي من أعظم آثار تلك الدعوة المباركة. وما يحرض عليه المربون دائمًا أن يكون المنهج الدراسي صالحًا، لأن المنهج الصالح له أهميته وله نتائجه في تنشئة الأجيال.

إذا كان المنهج صالحًا والمعلم صالحًا، وقدوة حسنة، فقد تمت للتلמיד سعادته التعليمية، فينشأ شاباً صالحًا، وعضوًا نافعًا في المجتمع.

فالمجتمع الذي يتكون من مثل هؤلاء الشباب الصالحين الذين يتخرجون على أيدي الرجال الصالحين، ودرسو ذلك المنهج السلفي الصالح، هو المجتمع المسلم حقًا الذي يفهم معنى الإسلام ويتعتني به، ولا يرضى عنه بدلاً.

وإذا تحققت هذه المعاني بإذن الله فيكون الفضل لله سبحانه وأولاً، ثم للمصلح الذي دعا الناس إلى هذا الخير وذلك المهدى فيكون له أجر كل من عمل بذلك المنهج الذي دعا إليه، ولا ينقص من أجور العاملين شيء من الأجر، هكذا بشر الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام دعاء الحق حيث يقول: "من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيمة"، ويقول عليه الصلاة والسلام: "الدال على الخير كفاعله".

فرجوا للشيخ محمد بن عبد الوهاب أن يكون له مثل أجر كل من عمل بهذا المنهج السلفي بعده، إذ تعتبر دعوته حجر الأساس لما يتمتع به اليوم المجتمع السعودي من سلامة العقيدة والاستقامة على الدين وتطبيق الشريعة الإسلامية فيه، وما يتمتع به الطلاب السعوديون والوافدون على الجامعات السعودية من دراسة ذلك المنهج الصالح البريء من تلك السموم التي دست في كثير من المناهج الدراسية في كثير من الجامعات في العالم المعاصر، كما نسأل الله تعالى أن يثيب ذلك الإمام المجاهد محمد بن سعود وذراته المباركة، ملوك وأمراء آل سعود ويزيدتهم من التوفيق وينصرهم وينصر بهم الإسلام.

آثار الدعوة في العالم المعاصر:

إن دعوة محمد بن عبد الوهاب تعتبر - كما يقول بعض الكتاب المعاصرين - هي الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية الحديثة، في العالم الإسلامي كلها.²¹⁸.

ولقد تأثر بهذه الدعوة التي وصفها هذا الكاتب - بما سمعنا - رجال لامعون في العالم العربي، وغيره في ميدان الإصلاح. نلاحظ ذلك في أقطار كثيرة، في مصر والشام وفي العراق، والقارة الهندية، وقارة أفريقيا، وفي اليمن على تفاوتهم في التأثير والاستفادة من الدعوة. فنذكر على سبيل المثال (جمال الدين القاسمي) بالشام، و(الشوكياني) باليمن. والشيخ عثمان فوديو بأفريقيا، وكان هذا في أوائل الدعوة عندما كانت تذاع حولها دعاوى مضللة.

أما الآن فقد ظهرت آثارها واضحة في العالم كله، حيث فتحت لها آفاق واسعة في أفريقيا، وانتشر منهاجها انتشاراً يلفت النظر، فأخذت بعض المدارس الأهلية بل أكثرها تدرس نفس المطبع في المدارس السعودية. وهو المنهج السلفي الذي تحدثنا عنه في الصفحة السابقة، وكذلك الحال في القارة الهندية، حيث توجد في بعض ولايات الهند وفي باكستان مدارس وجامعات أهلية تدرس المنهج نفسه في جميع المواد الدينية، وكثير الذين ينحوون المنهج السلفي في القارتين الهندية والأفريقية من عامة الناس، ويعرفون في الهند وبباكستان (بأهل الحديث)، وفي بعض البلدان يعرفون بالسلفيين، وبأنصار السنة المحمدية، وكلهم يدعون الناس إلى العودة إلى العقيدة السلفية والعمل بالشريعة الإسلامية عقيدة وأحكاماً.

ولنشاط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، دور بارز في انتشار الدعوة السلفية في تلك المناطق النائية في أفريقيا وشرق آسيا، وفي بعض الدول العربية.

يتمثل ذلك في الطلاب الذي يفدون على هاتين الجامعتين من تلك الجهات فيتخرجون منها كل عام بالعشرات، ثم يعودون إلى أوطانهم لنشر الدعوة وتعليم الناس دينهم عقيدة وشريعة، فنسأل الله تعالى أن يرزق القائمين على تلك الجامعات الإخلاص ويتقبل منهم عملهم، إنه سميع مجيب.

المبحث الثامن: مناقشة موقف المعتزلة والأشاعرة من نصوص الصفات

حقيقة المعتزلة والأشاعرة:

قبل أن نشرع في مناقشة المعتزلة والأشاعرة في موقفهم من نصوص الصفات نستحسن أن نقول شيئاً عن حقيقتهم وعن أسباب التسمية لكل من الطائفتين. أولاً: الأشاعرة طائفة من أهل الكلام ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري الإمام المتكلم المعروف، وهذا اللقب ينصرف عند الإطلاق إلى أولئك الذين اتبعواه في فترة انتسابه إلى ابن كلاب، ولذا قد نطلق عليهم أحياناً "الأشعرية الكلابية".

أما قبل ذلك فهو معتزلي بل إمام في الاعتزال نحوً من أربعين سنة، كما سيأتي. وبعد توبته من عقيدة الاعتزال وملازمته لابن كلاب فترة من الزمن رجع في آخر أيامه إلى مذهب السلف، فالمتسببون إلى الأشعرية الآن هم أصحاب الطور الثاني.

ثانياً: المعتزلة هم طائفة من أهل الكلام خالفت جمهور المسلمين في كثير من المعتقدات فهم أتباع أولئك الذين عرموا بالجرأة على تأويل النصوص وعدم التقيد بظواهرها، مثل واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد وأمثالهما.

وأما اعتزالهم فيدور على القواعد التالية:

القاعدة الأولى: القول بنفي صفات الله تعالى ذاتية أو فعلية بحيث لا يبقى إلا الوجود الذهني فيسمون ذلك توحيداً.

القاعدة الثانية: القول في القدر بغير علم، حتى نفوا علم الله للأشياء أولاً وكتابته للأمور كلها فتقديره لها يقتضي حكمته.

القاعدة الثالثة: القول بالمنزلة بين المنزلتين، أي تنزيل مرتكب الكبيرة في منزلة وهمية بين الكفر والإيمان!

القاعدة الرابعة: الخوض فيما جرى بين الصحابة من الأمور الاجتهادية التي قد أدت إلى الحرب والقتال²¹⁹، تلك الأمور التي سكت عنها المسلمون قائلين: عنه وأجر الاجتهد ثُبت وما جرى بين الصحابة نسكت

²¹⁹ شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار تحقيق د. عبد الكريم عثمان مكتبة وهبة، والشهرستاني في الملل والنحل.

²²⁰ أحمد بن رسلان الشافعي في خاتمة (الزبد).

وأما سبب تلقيهم بهذا اللقب، فإنه اعتزال واصل بن عطاء، ومعنى ذلك ما تذكره بعض المصادر التي تتحدث عن الفرق، أن واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري، حين سُئل الحسن عن جماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العلم الصالح عندهم ليس شرطاً في الإيمان... الخ، فأخذ الحسن يفكر، وقبل أن يجib قال واصل: أنا أقول: إن صاحب الكبيرة لا مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن البصري، فأصغوا إليه فاستمالهم، فقال الحسن: اعتزل عنا (واصل)، فسمي هو وأصحابه (معتزلة)²²¹، لأنهم اعتزلوا المسلمين في كثير من معتقداتهم كما اعتزلوهم في مجالسهم وفارقوهم.

وقيل: إن من أول من سماهم بهذا الاسم قتادة بن دعامة السدوسي (الأكمه) حين دخل مسجد البصرة، فإذا هو عمرو بن عبيد ونفر معه، قد اعتزلوا حلقة الحسن، فلما صار معهم - وهو لا يضر - عرف أنها ليست حلقة الحسن، فقال: إنما هم المعتزلة. وهناك سبب آخر يذكره أهل العلم، وليس بعيد من الأول: وهو اعتزاهم الطوائف الأخرى في حكم مرتكبي الكبيرة مثل المرجئة والخوارج وغيرهم.

و قريب من هذا ما قاله البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) حيث قال: ثم حدث في أيام الحسن البصري وواصل بن عطاء خلاف في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إلى واصل عمرو بن عبيد في بدعته فاعتزل إلى سارية من سورى مسجد البصرة، فقيل لهما ولأتباعهما: معتزلة، لاعتزاهم قول الأمة في دعواهم أن الفاسق من أمّة الإسلام ليس بمؤمن ولا كافر²²².

وقال بعضهم: المعتزلة نسبة إلى الاعتزال، وهو (الاجتناب) والجماعة المعروفة بهذه العقيدة إنما سموا بهذا الاسم لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد لما أحدث ما أحدث من البدع، واعتزل مجلس الحسن البصري وجماعة معه سموا (معتزلة)²²³، وهناك رأي آخر،

²²¹ ابن خلكان في وفيات الأعيان 3/248.

²²² البغدادي الفرق بين الفرق ص: 21-20.

²²³ وفيات الأعيان لابن خلكان 3/248.

وهو أئمّة سموا معتزلة لقولهم: إن صاحب الكبيرة اعترض عن الكافرين والمؤمنين، فالمعتزلة على هذا هم القائلون باعتراف صاحب الكبيرة عن الكفار والمؤمنين معاً، هذا بعض ما قيل في أسباب تسمية المعتزلة بهذا الاسم.

أصولهم الخمسة:

لما تكونت المعتزلة بالطريقة التي ذكرناها وضعوا لهم أصولاً خمسة، امتازوا بها من بين الناس وعرفوا بها، ودعوا إليها بكل جرأة، وهي:

1- التوحيد.

2- المنزلة بين المنزلتين.

3- العدل.

4- الوعد والوعيد.

5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه الأصول الخمسة يتفق عليها جميع طوائف المعتزلة على اختلاف بينهم بل لا يعتبر معتزلياً من لم يؤمن بها على تفسيرهم الفلسفـي، ولو ادعى أنه منهم.

يقول الخياط وهو أحد زعمائهم في القرن الثالث: "وليس يستحق أحد اسم (الاعتراف) حتى يجمع القول بالأصول الخمسة، فإذا اكتملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي" ²²⁴ أهـ.

ومن تلك الأصول عندهم (التوحيد) حيث فسروه تفسيراً خاصاً وفلسفياً، وبالغوا في تحليله - في زعمهم - وفي فلسفته إلى أقصى حد وصوروا للناس معنى التوحيد بأنه سلوب محسن، يشعر جسم المؤمن الذي يقدر الله حق قدره عند قراءتها أو سماعها وهي سلوب لا تتضمن أي مدح أو كمال كقولهم: ليس بجسم ولا بذي عرض، ولا طول ²²⁵، إلى آخر تلك السلوب التي أسرفوا فيه إسراهاً.

ومن ثم نسب إليهم هذا التوحيد بهذا التفسير، وفي رأينا إنه ليس بتوحيد، بل هو

²²⁴ شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص: 40، تحقيق عبد الكريم عثمان.

²²⁵ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص: 216، تحقيق محي الدين عبد الحميد.

شيء آخر غير التوحيد وإنما فلو بقي التوحيد في تصوره الصحيح وتفسيره الإسلامي السليم، الذي يتضمن النفي والإثبات والكمال المطلق لله، لما خصوا به لأنه بهذا المعنى معتقد كل مسلم، ولأنه معنى (لا إله إلا الله) بهذا المفهوم وهي كلمة التوحيد، هذا وإن الذي حمل القوم على هذا المعنى الفلسفى للتوحيد أنهم زعموا أن في القرآن آيات تتناقض في ظاهرها، إذ هناك آيات تدل على التنزية مثل قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وآيات ظاهرها يدل على التجسيم مثل قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} كما زعموا أن هناك آيات تدل على أنه ليس في جهة معينة، مثل قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمًّا وَجْهُ اللَّهِ}، وآيات ظاهرها يدل على الجهة مثل قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}، هكذا زعموا، ما أفسده من زعم، وما أفظعه من جهل مركب جريء.

التنزية عند المعزلة:

والتنزية في نظرهم نفي صفات الكمال، وصفات الله كلها صفات كمال وتعطيل البارئ عما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله المصطفى مثل السمع والبصر والعلم والعلو والتحليء لفصل القضاء يوم القيمة، فهو عكس التنزية الصحيح لأنه إثبات تلك الصفات التي سبق ذكرها وغيرها من الصفات التي نطق بها الكتاب والسنة، وفي رأيهم أن كل من يثبت صفات الله التي وصف بها نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله المصطفى فهو مجسم ومشبه بمثل، والموحد عندهم هو ذلك الجريء الذي ينفي جميع الصفات بدعوى أن إثباتها يؤدي إلى تعدد القدماء.

إنها حقائق معكوسة، وهذا يعني أن القوم لا يقيمون أدنى وزن للنصوص كما يدل بالمقابل على مدى غلوتهم في تنزيه العقول وتقديسها والركوع أمامها إذا اعتبروها أنها هي الحكم والمرجع لمعرفة ما يليق بالله، وما لا يليق به، ولمعرفة ما يجوز في حقه تعالى وما يمتنع، وقد صرحوا بهذا المعنى في غير موضع فيما نقل عنهم. وإن الدارس لكتابهم يدرك أن القوم آمنوا بالعقل إيمان غيرهم بالنصوص، وإن فكيف يسوغ لمن يؤمن بآراء القرآن منزل من عند الله حقيقة، وأن السنة أو حা�ها الله إلى نبيه المختار الذي {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ²²⁶، كيف يسوغ لمن يؤمن هذا الإيمان أن يزعم أن في نصوص الكتاب والسنة ما يدل بظاهره على التجسيم؟ مدعين أنهم هم الذين استطاعوا وحدهم تصحيح ذلك التعبير الخاطئ بتأويلهم تلك النصوص تأويلاً يشبه التصحيح والتوجيه والاستدراك على الله يا سبحانه الله {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} ²²⁷.

ومن عدم التوفيق أن القوم أخطأوا في معنى (التنزيه) وهذا الخطأ هو الذي أوقعهم في الأخطاء الناتجة منه، من اهام النصوص، بدلالتها على التجسيم أو على أنه تعالى محصور في جهة معينة، وغيرها من تلك العبارات الجرئية.

التنزيه عند السلف وبيان خطأ المعتزلة:

حقيقة التنزيه أن ينفي عن الله ما لا يليق بالله شرعاً، وعقلاً، كالولد والوالد والشريك، والنذر والتشبيه والتجسيم وغير ذلك مما نزعه عنه نفسه في كتابه أو على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.

والله منزه عن كل ذلك، لكماله في ذاته وصفاته في وحدانيته وقيوميته، ولغناه المطلق عن كل ما سواه في الوقت الذي يحتاج إليه كل ما عداه، وهذا التنزيه في ضوء قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ²²⁸، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيَّاً} ²²⁹، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} ²³⁰، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَّدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} ²³¹، وهل يوجد تنزيه أبلغ من هذا؟ وهو مشتمل على إثبات صفات الكمال، مع نفي ما لا يليق به سبحانه من معاني النقص وال الحاجة التي تتنافى والكمال المطلق لله سبحانه، هذا هو التنزيه الحقيقى عند أتباع القرآن والسنة.

وقد عرفنا قبل معنى التنزيه عند المعتزلة. وخلاصته الإيمان بذاته تعالى مجرد عن جميع الصفات، بل موصوفة بأنواع من السلوب التي تحمل وجود الله وجوداً ذهنياً لا حقيقة له في الخارج، أو وجوداً مجرداً أشبه بالوجود الذي وصفه به أرسسطو (التأمل المحس)

²²⁶ سورة النجم آية: 3، 4.

²²⁷ سورة البقرة آية: 140.

²²⁸ سورة الشورى آية: 11.

²²⁹ سورة مريم آية: 65.

²³⁰ سورة طه آية: 110.

²³¹ سورة الإخلاص آية: 4-1.

أي الخيال المحس.

يتضح من كل ما تقدم أن القوم أعطوا لأنفسهم حرية مطلقة لا تقف عند حد ليتصرفوا في النصوص كما يريدون، وليقولوا ما يشauen من رد للأحاديث بدعوى أنها من الآحاد، أو تضعيف لها على خلاف القواعد المتّبعة عند أهل هذا العلم أو طرحها جانباً بدعوى مخالفتها للبراهين العقلية القاطعة، هكذا أصبح رد الأحاديث من أسهل الأمور عندهم.

وأما الآيات القرآنية فليس وزنها أثقل من وزن الأحاديث بكثير، لأنها خاضعة لقوانينهم الكلامية وفلسفتهم اليونانية، التي سيطرت على عقولهم، وزينت لهم سوء تصرفاتهم وعملهم في نصوص الكتاب والسنة بالتحريف فيها، وإخضاعها لعقولهم التي أصبحت الدليل المعلول عليه في دينهم.

والقاعدة عند أهل السنة والجماعة أنه (لا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، وفي هذا المعنى روى الإمام البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمهما الله أنه قال: "من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعليينا التسليم"²³² أهـ). وهو كلام جامع ونافع كما ترى، بإذن الله.

وهذا هو الموقف السليم شرعاً وعقلاً لأن التسليم للمتكلم في معرفة مراده أمر ضروري عقلاً إذ دلالة اللفظ على المعنى إنما هي بواسطة دلالته على ما عنده المتكلم وأراده، وإرادته وما عنده في نفسه لا تعرف إلا بدلالة اللفظ بالوضع ابتداء، إلا إذا أخبر أنه أراد خلاف ذلك المعنى الذي دل عليه اللفظ، أو دل عليه بقرينة واضحة.

ومن زعم أنه قد يفهم من كلام المتكلم خلاف ما دل عليه اللفظ دون إخبار منه أو دلالة عليه بقرينة تبين أنه أراد خلاف ظاهر اللفظ، فخرج باللفظ عن ظاهره بتأويل وتكلف - كما تفعل المعتزلة - فقد أبعد النجعة، وأنحطط الطريق، وقال على الله بغير علم، وارتكب كبيرة من كبائر الذنوب إذ يقول الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا}

²³² شرح الطحاوية ص: 219، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع.

وَأَن تُقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ²³³، ويقول عز من قائل: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}²³⁴، {وَمِن النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ}²³⁵.

وفي ضوء هؤلاء الآيات يحدد المسلم موقفه من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام وكلام غيرهما بحيث يتلزم اتباع ما أوحاه الله إلى رسوله قرآناً وسنة.

وما سواهمما من كلام سائر الناس ومعقولاتهم²³⁶ يجب عرضه على ذلك الكلام الموجى من عند الله العليم الحكيم فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}!²³⁷

ومما يوضح ذلك أن هؤلاء المعتزلة الذين يرون وجوب تأويل نصوص الصفات تأويلاً يشبه الإنكار والرد على الله سبحانه يرون في الوقت ذاته الإيمان بنصوص المعاد دون أي تأويل، بل ينكرون على من يؤولها أشد الإنكار من الباطنية الذين يزعمون أن لكل نص باطناً، يختصون بفهمه وحدهم، ولا سبيل لغيرهم إلى فهمه.

محاججة الباطنية للمعتزلة:

ولو قالت الباطنية: - وهي تحاجج المعتزلة - إن تأولينا لنصوص المعاد نظير تأويلكم لنصوص الصفات، بل إن نصوص الصفات أكثر وأصرح، فإذا جاز تطرق التأويل إليها فهو إلى غيرها أقرب تطرقاً، ولو حاججتهم الباطنية في هذا التناقض لوجدت المعتزلة مغلوبة مفحة، وهو شأن كل مبطل أنكر على خصميه شيئاً، وحاول كسر باب غيره بحجر ناسيًّاً أن بابه من (زجاج) قابل للكسر، ولنوضح المقام أكثر فأكثر نضرب مثلاً آخر فنقول:

محاججة المعتزلة للأشاعرة:

وللمعتزلة أن يجاججو الأشاعرة بالأسلوب نفسه في تفريقهم بين الصفات بإمارار صفات الذات التي يثبتونها على ظاهرها على ما يليق بالله، وهي الصفات السبع التي

²³³ سورة الأعراف آية: 33.

²³⁴ سورة الإسراء آية: 36.

²³⁵ سورة الحج آية: 8.

²³⁶ ليس غرضنا مهاجمة العقل أو الأدلة العقلية، وإنما غرضنا بيان أن المعتزلة لا تقيم وزناً للأدلة النقلية، وهو تصرف خاطئ.

²³⁷ سورة يونس آية: 32.

يطلقون عليها صفات المعانٰ، مع دعوى وجوب تأويل صفات الأفعال كالاستواء والنزول والجحى مثلاً، للمعتزلة أن يلزموا الأشاعرة بأحد موقفين للخروج من هذا التناقض.

١- تأويل جميع الصفات دون تفريق بين الصفات الفعلية والصفات الذاتية طرداً للباب، وهي الطريقة العملية مع بطلانها.

٢- أن يغلقوا باب التأويل ويمروا نصوص الصفات على ظاهرها على ما يليق بالله فليحقوا بالثبتة من سلف هذه الأمة الذين عافاهم الله مما ابتلي به غيرهم من التناقض لتسليمهم الله ولرسوله عليه الصلاة والسلام هذا المنهج السليم الموافق للعقل السليم والنقل الصحيح، ولسلامة هذا المنهج وبعده من التناقض ومن التكلف رجع إليه كثير من علماء الكلام في آخر حياتهم كما سيأتي.

ولأبي الوليد الأندلسي موقف فريد من المؤولة الذين يسرفون في التأويل كالمعتزلة ويدعون الناس إلى الأخذ بتأويلهم ويضرب لذلك مثلاً رائعاً حيث يقول: "ومثال من أول شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو ما قصد الشرع وصرح بذلك التأويل للجمهـور، مثال من أتى إلى دواء قد ركب طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو الأكثر فجاء رجل فلم يلائم ذلك الدواء المركب العظيم لرداعه مزاج كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس، فرغم أن بعض تلك الأدوية، الذي صرح باسمه الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعـة المركب لم يرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أريد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك الاسم باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل في بدل الدواء الذي ظن أنه الذي قصدـه الطبيب، وقال للناس: هذا هو الذي قصدـه الطبيب الأول فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأولـه عليه المتأولـ، ففسدت به أمزجة كثـيرـ من الناس، فجاء آخرون شعروا بفسادـ أمزجةـ الناسـ من ذلكـ الدـوـاءـ المـرـكـبـ، فرأواـ إـصـلـاحـهـ بـأـنـ أـبـدـلـواـ بعضـ أـدوـيـتهـ بـدوـاءـ آـخـرـ غـيـرـ الدـوـاءـ الأولـ، فـعـرـضـ منـ ذـلـكـ لـلنـاسـ نوعـ مـنـ المـرـضـ غـيـرـ النوعـ الأولـ، فـجـاءـ ثـالـثـ فـتـأـولـ فيـ أـدوـيـةـ ذـلـكـ المـرـكـبـ غـيـرـ التـأـولـ الأولـ وـالـثـانـيـ فـعـرـضـ

للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين، فجاء متأنل رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة، فعرض منه للناس نوع رابع من المرض، غير الأمراض المتقدمة، فلما طال الزمان بهذا المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدويته وغيروها وبدلوها، عرض منه للناس أمراض شتى حتى فسّدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، ثم قال أبو الوليد: وهذه هي حال الفرقـة الحادثة في هذه الطريقة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقـة منهم تأولت في الشريعة تأويلاً غير التأويل الذي تأولته الفرقـة الأخرى، وزعمت أنه الذي قصده الشرع، حتى تمزق كل ممزق، وبعد جداً عن موضعه الأول.

ولما علم صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام أن مثل هذا يعرض - ولا بد - في شريعته قال: "ستفترق أمي على ثلاث وسبعين فرقـة، كلها في النار إلا واحدة"²³⁸ اهـ. نقول تعليقاً على هذا المثل المضروب للمتأولة: "اسأـل مجرباً ولا تسأـل طبيباً". وأبو الوليد له تجربـة طويلة مع علماء الكلام وله معهم صولة وجولة، فهو خير من يشهد لهم أو عليهم.

واستشهادنا بكلامه لا يعني أنه محل رضانا مطلقاً، بل يؤخذ من كلامه ويرد كغيره من الرجال، بل هو فيلسوف أرسطي ومع ذلك له كلام يؤخذ بل يقدر كما رأيت. وقريب ما أنكره ابن رشد على أهل الكلام من الإسراف في التأويل، قول سهل بن عبد الله التستري حيث يقول:

لا يخرجنكم تنزيـه الله إلى التلاشي ولا يخرجنكم تثبيـته إلى الجسد، أي التجسيـد
الله يتجلـى كيف يشاء²³⁹.

الخلاصة:

²³⁸ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة بتحقيق مصطفى عبد الجواد عمران الطبعة الثالثة في 1388هـ. وقد ذكر الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الأجري المتوفى سنة 360هـ في كتابه (الشريعة) لهذا الحديث عدة روایات نختار منها روایة واحدة وهي التي يقول فيها بسنده عن معاویة بن أبي سفیان رضی الله عنه أنه قال حين صلی الظهر بالناس - بمکة شرفها الله تعالى- فقال: ألا إن رسول الله عليه الصلاة والسلام قام فينا فقال: "ألا إن من كان قبلکم من أهل الكتاب افترقوا على اثنین وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة"، ثم قال رحمة الله: رحم الله عبداً حذر هذه الفرقـ، وجانـ البدع، واتبعـ ولم يبتعد، ولزمـ الآخر، وطلبـ الطريق المستقيم، واستعنـ بمولاـه الكـريم. (الشـريـعة 18).

²³⁹ راجـ المعارضـة والرد لـ سهلـ بن عبد اللهـ التـستـري المتـوفـي 283هـ، تحـقيقـ وتعليقـ الدكتورـ كـمالـ جـعـفرـ صـ: 75.

ولو فحصنا الموقف جيداً لظهر لكل ذي لب فهيم مزود بالإنصاف والإيمان²⁴⁰ أن كل من رد النقل الصحيح بدعوى أنه دليل لفظي لا يفيد اليقين، فقد رد العقل الصريح - وهو لا يشعر - ولم يق لديه دليل يستدل به أو يجاجج به، إذ مما اتفق عليه العقلاء أن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، علماً بأن النقل هو الأصل لأنه من المتفق عليه أن العقل لا سبيل له لإثبات المطالب الإلهية، على سبيل الاستقلال، بل الطريق لإثبات الصفات ينحصر في التالي:

1- صفات يكون إثابتها بالنقل والعقل معاً، وهي كثيرة مثل صفة الحياة والقدرة، والعلم والعلو مثلاً، وهي المعروفة عند الأشاعرة بصفات المعاني.

2- صفات يكون إثابتها بالنقل فقط، ولو لا النقل لعجز العقل عن إثابتها مثل صفة النزول والمجيء والاستواء على العرش مثلاً، ولا توجد صفة يتم إثابتها عن طريق العقل فقط دون النقل، فالقسمة إذاً ثنائية فقط، كما ترى.

وعلى هذا فإن ما تزعمه المؤولة من المعتزة وأشباههم، من أن الدليل العقلي وهو العمدة في باب الصفات، بحيث لو تعارض العقل والنقل قدم العقل، لأنه الأصل، فزعم باطل، لما عرفنا مما تقدم من عدم التعارض بين الدليلين.

وهذه خلاصة ما كان عليه سلف هذه الأمة، كما أوضحتنا في بيان منهج السلف في إثبات الصفات وهو واضح جداً كما تقدم.

أما المعتزلة فنختتم مناقشتهم بالأية الكريمة من سورة النجم: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّنُونَ وَمَا تَهْوِي الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءُهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} ²⁴¹، لإعراضهم كلياً عن النصوص واستخفافهم بها من الغلو في تقديس آراء الفلاسفة والركوع أمامها... كما يظهر جلياً

²⁴⁰ استناد لقول عمار بن ياسر رضي الله عنه إذ يقول: "ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: 1- الإنفاق من نفسك. 2- بذل السلام للعالم. 3- الإنفاق من الإنفاق."

صحيح البخاري، كتاب الإيمان بباب إفشاء السلام من الإسلام، بشرح فتح الباري 1/103 الطبعة السلفية بتحقيق عبد الباقي.

²⁴¹ سورة النجم آية: 23، والآية وإن كانت في الأصل في غير المسلمين ولكنها تجر ذيلها على كل من يتعمد مخالفة ما جاءه من الهدى واتبع هواه، تتناول كل مخالف بحسب مخالفته، لأن العبرة في النصوص بعموم اللفظ وإن اختللت الجهات لا بخصوص السبب... وهي قاعدة مدونة لدى الأصوليين وفي علوم القرآن والحديث.

أنهم قطعوا علاقتهم بسلف الأمة إذ تراهم دائمًا ينهاجون منهاجاً مخالفًا لمنهج السلف الصالح الذي هو التقييد بالكتاب والسنّة مع اعتقاد أن العقل في حال سلامته يتبع النقل ولا يخالفه.

المبحث التاسع: الفصل الأول

سبب انتشار العقيدة الأشعرية واشتهرارها

في أثناء مناقشتنا موقف المعتزلة والأشاعرة تبين لنا أن الأشاعرة على الرغم من إثباتهم كثيراً من الصفات الذاتية، إلا أنهم ليسوا على منهج السلف الصالح في موقفهم من كثير من نصوص الصفات، إذ رأيناهم يتصرفون في النصوص بأهوائهم فيفرقون بينها، منها ما يجب تركها على ظاهرها، على ما يليق بالله تعالى، وهي النصوص التي تتضمن الصفات التي يسمونها صفات المعاني، والصفات السلبية والصفة النفسية، ومنها ما يجب تأويتها ولا يجوز إبقاءها على ظاهرها في زعمهم لأن ظاهرها يدل على ما لا يليق بالله. بل يزعمون أن ذلك الظاهر غير مراد الله تعالى، وهي النصوص الواردة بالصفات الخبرية وصفات الأفعال ولهم تناقض ينفردون به في بعض الصفات مثل صفة الكلام وإثبات رؤية الله تعالى، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

ومع كل ما ذكر نرى انتشار العقيدة الأشعرية بشكل ملموس بل اشتهرارها بين جمهور المسلمين بأنها عقيدة أهل السنّة والجماعة، وما هي أسباب هذا الذيع؟!
يذكر بعض المختصين المهتمين بشأن العقيدة الإسلامية لهذا الانتشار والشهرة

الأسباب التالية:

أ- كثرة الحق الذي عندهم بالنسبة للباطل الكثير الذي عند غيرهم، لأنهم يثبتون كثيراً من الصفات مثلاً، وزد على ذلك أن موقفهم من الصحابة يوافق موقف أهل السنّة والجماعة، وموقفهم من نصوص المعاد موقف سليم أيضاً، وقد سلمت نصوص المعاد عندهم مما أصيّبت به عند غيرهم من الباطنية ومن تأثير بّهم من التحرير الذي سماه أهله تأويلاً ليقبل. وقد انخدع بّهم كثير من علماء الفقه والحديث، فوافقهم في بعض ما ابتدعواه.

بـ- استعمالهم الأدلة العقلية في مواجهة المعتزلة مما أكسبهم الشعبية مع ما في طريقتهم من كثير البدع²⁴².

جـ- ضعف الآثار النبوية في تلك العصور، والآثار هي التي تنير للناس سبيل الحق حتى لا يقعوا في الشبهات والبدع، على الرغم من كونها مدونة في الصحاح والمسانيد، لأن اشتغال الناس بها ليس بالمستوى المطلوب، إذ كان العمل في الغالب بآراء الفقهاء واجتهاداتهم.

دـ- العجز والتغريط الواقعان في المنتسبين إلى السنة والحديث، حيث يررون تارة ما لا يعلمون صحته من الآثار والأحاديث وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانٍ، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور²⁴³. ولعل هذه النقطة الأخيرة هي التي وقعت كثيراً من الناي في التفويض المض.

هـ- اتساب الأشعري إلى معتقد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله في آخر أمره كما سيأتي بيان ذلك.

وـ- اعتناق بعض الحكام عقيدته واعتبارها عقيدة أهل السنة والجماعة والدفاع عنها والدعوة إليها بشدة إلى درجة استباحة دم من خالفها كما فعل (تومرت وأتباعه في المغرب)، وستأتي الإشارة إلى هذه النقطة قريباً.

بهذه الأسباب توارثت الناس هذه الطريقة المزدوجة التي تشتمل على بعض الحق وفيها الشيء الكثير من الباطل، فانتشرت في مصر والشام والعراق باسم عقيدة أهل السنة والجماعة حيث (خلا الميدان لأبي حمدان) كما يقول المثل السائر، ولم يوجد لها منازع في تلك العصور فانتقلت العقيدة من العراق إلى المغرب بواسطة بعض الرحالة من المغرب ونشرها بين المغاربة فأخذوها المغاربة بحماس شديد وبقوة حتى استباحوا دم كل من يخالف تلك العقيدة²⁴⁴.

فمجموع هذه الأسباب هي التي جعلت العقيدة الأشعرية تنتشر هذا الانتشار الواسع

²⁴² ولا يعني ذلك أن الأشاعرة على الحق في كل شيء، أو أن ما لديهم من العقليات أقوى وأظهر، لا، بل أخطاؤهم أكثر من صوابهم لأنهم لا يثبتون إلا بعض صفات الذات، ويبلغون بالنصوص فيما عداها كما هو معروف.

²⁴³ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 33/12.

²⁴⁴ المقريزي في خططه 2/358.

فتشتهر هذه الشهرة العالمية بيد أن الحق لا يعرف بالاتشار ولا بالاشتئار بل للحق ميزان يوزن به، وللباطل علامات يعرف بها.

وبعد: هل آن الأوان لنتمكن شبابنا من دراسة العقيدة السلفية المستندة إلى الكتاب والسنة بدلاً من هذه الآراء المضطربة التي لا تستند في الغالب الكثير إلى الوحي، ولكن إلى خيالات علماء الكلام التي سموها قطعيات، تسمية للأشياء بغير أسمائها لتروج وتسناسغ.

الفصل الثاني: حديث مستفيض عن كبار شيوخ الأشاعرة ومنهج السلف
كبار شيوخ الأشاعرة والمنهج السلفي²⁴⁵:

وإذا كان بعض الكتاب المعاصرین أخطأوا في تصور حقيقة مذهب السلف والسلفيين - كما تقدم - فلنثبت هنا طائفـة من كلام بعض أهل العلم من أولئك الذين أكرمهم الله بالتوبـة عن علم الكلام في آخر أعمارهم، فتحـدوا عن مذهب السلف وأثـوا عليه بما هو أهـله، وفي مقدمةـتهم ذلـكم:

1- الإمام المقدم أبو الحسن الأشعري:

الذـي تغـي شهـرته عن ترجمـته، وقد نقل غـير واحد من أهـل العلم بالـتارـيخ وعلـم الرجال، رجـوع أبي الحـسن الأـشعـري عن الاـشتـغال بـعلم الـكلـام²⁴⁶، إـلى الـانتـصار لمـذهب السـلف وـالـدـفاع عـنه وأنـه أـلـفـ في ذـلـك مـؤـلـفـات من أـهـمـها آـخـر كـتاب أـلـفـهـ في إـثـبات صـفـات اللهـ تـعـالـى دون تـفـرـيق بـيـن الصـفـات الـذـاتـية وـالـصـفـات الفـعـلـية، وبـعـارـة أـخـرى بـيـن الصـفـات العـقـلـية وـالـصـفـات الـخـبـرـية السـمعـية وـهـوـ كـتابـهـ (الـإـبـانـةـ فـي أـصـوـلـ الـديـانـةـ) وـسـتـائـيـ قـرـيبـاً بـعـضـ النـقـولـ مـنـ هـذـا الـكـتابـ إـنـ شـاءـ اللهـ.

ومن ذـكـر تـوـبةـ الإمامـ أبيـ الحـسنـ الأـشعـريـ، الـحـافـظـ ابنـ عـساـكـرـ المتـوفـيـ 571ـهــ فيـ كتابـهـ (تـبـيـنـ كـذـبـ المـفـتـريـ عـلـىـ أـبـيـ الحـسنـ الأـشعـريـ)، وـقـامـ فـيـ هـذـا الـكـتابـ بـالـدـافـعـ عـنـ الإمامـ وـعـقـيـدـتهـ وـزـيفـ كـلـ ماـ قـيلـ فـيـ عـقـيـدـتهـ وـأـثـبـتـ رـجـوعـهـ عـنـ الـاعـتـزـالـ بـعـدـ أـنـ أـقامـ عـلـيـهـ

²⁴⁵ قد يرد هنا سؤال - وهو وجيه - لماذا ترجمـنا لـبعـضـ أـعـلامـ الأـشـاعـرةـ وـلـمـ نـفـعـلـ ذـلـكـ بـالـنـسـبةـ لـالـمـعـتـزـلـةـ، الجـوابـ: ليس الغـرضـ مـنـ التـرـجمـةـ لـهـؤـلـاءـ الـأـئـمـةـ كـوـنـهـمـ أـعـلامـ الأـشـاعـرةـ وـشـيـوخـهـمـ، بلـ الغـرضـ بـيـانـ مـوـقـعـهـمـ مـنـ مـنـهـجـ السـلـفـ، وـأـنـهـمـ رـجـعواـ إـلـيـهـ فـيـ آـخـرـ الـمـطـافـ وـأـثـواـ عـلـيـهـ خـيـراًـ بـلـ بـعـضـهـمـ دـعـاـ إـلـيـهـ، مـثـلـ الـجـوـينـيـ (الـأـبـ)ـ كـمـاـ سـيـأـتـيـ تـفـصـيلـ ذـلـكـ، هـذـاـ هـوـ سـبـبـ اـخـتـيـارـنـاـ هـؤـلـاءـ الـأـئـمـةـ لـتـرـجمـةـ لـهـمـ وـالـحـدـيـثـ عـمـاـ اـتـهـيـ إـلـيـهـ أـمـرـهـمـ، بـعـدـ تـلـكـ الـجـوـلـةـ الطـوـلـةـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ، وـاتـصالـهـ بـاـبـنـ كـلـابـ الـذـيـ أـخـذـ عـنـ هـذـهـ الـعـقـيـدـةـ الـمـعـرـوـفـةـ الـيـوـمـ بـالـعـقـيـدـةـ الـأـشـعـرـيـةـ، وـهـيـ فـيـ الـوـاقـعـ عـقـيـدـةـ كـلـابـيـةـ، ثـمـ أـعـلـنـ أـبـوـ الـحـسـنـ رـجـوعـهـ عـنـ الـكـلـابـيـةـ إـلـىـ مـذـهـبـ السـلـفـ وـالـاـنـتـصـارـ لـهـ وـالـدـافـعـ عـنـهـ...ـالـخـ.

40 سنة وكان لهم إماماً، ثم ذكر قصة رجوعه بالتفصيل مما يدل على أنه لم يترك مذهب الاعتزال إلا بعد أن خبره، وأدرك حقيقته واطلع على عواره من فساد الاعتقاد والجرأة على الله وعلى كتابه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، ثم تاب الله عليه كتاب، فحسنت توبته، فصار بمثابة كتابي أسلم وحسن إسلامه بعد أن أدرك عوار اليهودية أو النصرانية، فأخذ يبين للناس فساد اعتقادهم فهو أعدى الخلق إلى أهل الذمة، وأبو الحسن كذلك أعدى الخلق إلى المعتزلة، ولذلك يشنعون عليه وينسبون إليه الأباطيل افتراء عليه كعادة أهل الباطل قدماً وحدشاً.

ومن ذكر رجوع أبي الحسن عن اعتزال إلى مذهب السلف أبو العباس بن خلkan²⁴⁷، حيث قال: كان أبو الحسن الأشعري معتزلياً، ثم تاب، ومنهم الحافظ ابن كثير صاحب التفسير المعروف²⁴⁸ إذ يقول: إن الأشعري كان معتزلياً فتاب منه بالبصرة فوق المنبر، ثم أظهر فضائح المعتزلة وقبائحهم، ومنهم الحافظ الذهبي²⁴⁹ وأخيراً جاء الحدث المصري والسلفي الأثري محب الدين الخطيب ليؤكّد تلك النقول في تعليقه على المنتقى²⁵⁰ حيث يقول محب الدين رحمه الله: إن الأشعريين منسّوبون إلى أبي الحسن الأشعري، وقد علمتَ أن أبي الحسن الأشعري كانت له ثلاثة أطوار: أولها: انتماوه إلى المعتزلة.

ثانيها: خروجه عليهم ومعارضته لهم بأساليب متوسطة بين أساليبهم ومذهب السلف.

والطور الثالث: انتقاله إلى مذهب السلف وتأليفه في ذلك كتابه (الإبانة في أصول الديانة) وأمثاله، وقد أراد أن يلقى الله على ذلك اهـ.

وقال رحمه الله في موضع آخر في تعليقه على المنتقى: أما الأشعرية اسم المذهب المنسوب إلى أبي الحسن الأشعري في علم الكلام، فكما أنه لا يمثل الأشعري ما كان عليه في طور اعتزاله فإنه ليس من الإنصاف أن تلصق به الأشعرية بعد أن رجع إلى عقيدة

²⁴⁷ المتوفى سنة 681هـ في كتابه: (وفيات الأعيان).

²⁴⁸ المتوفى سنة 774هـ في كتابه: (البداية والنهاية 187/11).

²⁴⁹ في كتابه: (العلو للعلي الغفار) الذهبي المتوفى 748هـ.

²⁵⁰ (مختصر منهاج السنة) للإمام ابن تيمية ص: 43.

السلف التي أراد أن يلقى الله بها، بل إن المذهب الأشعري المنسوب إليه إنما ينسب إلى ما كان عليه ابن كلاب البصري المتوفى سنة 240هـ كما أوضح ذلك تقي الدين ابن تيمية في كتابة (العقل والنقل) 5/2 طبعة الشيخ حامد الفقي رحمه الله، ثم عدل أبو الحسن في آخر حياته عن كثير من تلك التأویلات وأثبتت جميع الصفات، وأمرّها دون تأویل، وأثبته دون تشبيه على ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهكذا ختم الله له بالحسنى²⁵¹.

وهاك بعض النقول من أول كتابه (إبانة):

باب في إبانة قول أهل الحق والسنة: ثم قال رحمه الله - وهو يعلن إنكار ما قالته طائفة من أهل الكلام ويبين ما يقوله هو وأهل الحق والسنة:
 "إإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، ودياناتكم التي به تدينون؟ قيل له: قولنا الذي نقول به، ودياناتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وفتاوی عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأن الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أظهر به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبدعين وزيف الزائفين، وشك الشاكين، فرحمه الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم مفخم.

ثم قال الأشعري رحمه الله: فجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه... إلى أن قال: وما رواه الثقات عن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا نرد من ذلك شيئاً، ثم استطرد قائلاً: وأن الله مستو على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}²⁵²، وأن له وجهها كما قال: {وَيَقِنَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ}²⁵³، وأن له يدين بلا كيف

²⁵¹ راجع المتنقى من منهاج الاعتدال للذهبي تعليق محب الدين الخطيب ص: 41-43.

²⁵² سورة طه آية: 5.

²⁵³ سورة الرحمن آية: 27.

كما قال: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي} ²⁵⁴، وكما قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ} ²⁵⁵، وأن له عينين بلا كيف كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} ²⁵⁶، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً. وأن الله علماً كما قال: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} ²⁵⁷، وكما قال: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْنَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} ²⁵⁸، وثبتت الله السمع والبصر ولا نفي ذلك كما نفته المعتزلة والجمالية والخوارج، وثبتت الله قوة كمال قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً} ²⁵⁹، ونقول: إن كلام الله غير مخلوق، وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له: كن كما قال: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ تَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ²⁶⁰، إلى آخر كلامه. ومن أراد مزيد الاطلاع على درر كلامه المدعم بآيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، فعليه بالإبانة التي تحدثنا عنها ونقلنا منها بعض النقول وغيرها مثل مقالات الإسلاميين.

2- الإمام الجويني (الأب):

وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين المتوفى سنة 438هـ، وقد كان إمام في التفسير والفقه والأصول، بل له يد طولى في أكثر العلوم المعروفة في زمانه، وقد تخرج على يده خلق كثير وفي مقدمتهم ولده إمام الحرمين الذي يأتي ذكره بعده إن شاء الله، وقد ألف في كثير من العلوم، وأما الذي يهمنا هنا فرسالته اللطيفة، وهي عظيمة الفائدة تحت عنوان (رسالة في إثبات الاستواء والفوقيبة ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، وتنزيه البارئ عن الحصر والتتمثيل والكيفية)، هكذا بهذا العنوان الطويل وهي ليست طويلة بل صغيرة جداً، لا تتجاوز (15) صفحة ولكنها تعالج وتحقق نقاطاً تعجز عن تحقيقها بل عن تصورها كثير من الموسوعات على سعتها. والرسالة المذكورة تعالج صفة الفوقيبة والاستواء وصفة الكلام، وهاتان الصفتان قد

²⁵⁴ سورة ص آية: 75.

²⁵⁵ سورة المائدة الآية: 64.

²⁵⁶ سورة القمر آية: 14.

²⁵⁷ سورة النساء آية: 166.

²⁵⁸ سورة فصلت آية: 47.

²⁵⁹ سورة فصلت آية: 15.

²⁶⁰ سورة النحل آية: 40.

ضل فيهما كثير من علماء الكلام واضطرا بهم فيهما أسوأ من اضطرا بهم فيما عداهما، وقد وصف المؤلف الحيرة التي استولت عليه عندما ظهر له الحق في هاتين الصفتين، وغيرهما من الصفات الخبرية التي يصعب على أهل الكلام سماعها فضلاً عن إثباتها كما سنرى عندما ننقل منها بعض النقول لنتشهدها على ما نقول حول عقیدته وموقفه من علم الكلام بعد رجوعه. وميزة هذا الإمام أنه لم يمنعه التعصب والتقليل من اتباع الحق لما تبين له الحق بل اتبعه وأعلن به ودعا إليه، وجادل فيه شيوخه، وهو موقف لا يوفق له كل من عرف الحق. ولقد كانت دعوته ومناقشته لشيوخه تحمل في طياتها الشفقة عليهم والتاطف بهم دون أن يتهمهم عليهم أو يهاجمهم ويعنفهم وهو ديدن العلماء العاملين الذين هم ببساطة ي بيان الحق والدعوة إليه دون تحرير أو تنفيير عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"²⁶¹، ولهذا المعنى الذي أشرت إليه والميزة التي نوهت بها أود أن أورد مقتطفات من كلامه ومحاجاته في رسالته الموجهة إلى شيوخه وإخوانه.

وسوف أثبت هذه المقتطفات في آخر الرسالة إن شاء الله ملحقاً لها.

3- الجويين (الابن):

وهو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى سنة 478هـ، ينسب الإمام إلى مسقط رأس أبيه بلدة (جوين) بفارس، لأنه لما مات والده عبد الله بن يوسف جلس ولده عبد الملك مجلسه للتدرис فانتقلت إليه هذه النسبة، وقيل: كان عمره عشرين سنة عندما جلس للتدرис في مجلس والده، ولقب بإمام الحرمين لأنه كما قيل: حاور مكة أربع سنوات كان خلالها يناظر ويدرس، ثم عرج على المدينة المنورة.

وقد ألف الإمام الجليل مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة، وما يتصل ببحثنا هذا من مؤلفاته كتابه الكبير (الغياطي) ألفه لغياب الدولة الذي هو نظام الملك (الوزير) وهو الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي أبو علي الوزير العادل صاحب المدارس التي عرفت باسمه (النظمية) وأحد الزهاد العباد المعروفين، وناصر السنة وأهلها وحامى الفقهاء

²⁶¹ أخرجه البخاري في كتاب العلم، من حديث أنس بن مالك/172 ط الحلبي.

من بطش المبتدةة والزنادقة وأحد فقهاء الشافعية.

تولى الوزارة للسلطان (السلجوقي) (ألب أرسلان) ثم من بعده لابنه ملکشاه. ولد الوزير سنة 408هـ وتوفي سنة 485هـ.

كما أن الكتاب (الغياثي) منسوب لهذا الوزير الصالح الحسن بن علي الملقب (غياث الدولة)، فقد نسبت العقيدة النظامية إليه، لأنه يلقب أيضاً (نظام الملك) ونستحسن أن ثبت هنا بعض كلام الإمام نقلاً عن كتابه الكبير (الغياثي)، قال الإمام الجويني في الكتاب المذكور (رقم 279 ص 190):

"ومن رام اقتصاداً، وحاول ترقياً عن التقليد واستبداداً فعليه بما يتعلق بعلم التوحيد من الكتاب المترجم (بالنظامي)، فهو محتوا على لباب للباب، وفيه سر كل كتاب في أساليب العقول"²⁶².

والذي أذكره الآن لائقاً بمقصود هذا الكتاب، أن الذي يحرص الإمام عليه جمع عامة الخلق على مذهب السلف السابقين قبل أن نبغت الأهواء وزاغت الآراء وكانوا رضي الله عنهم ينهمون عن التعرض والتعمق في المشكلات والإمكان في ملابسة المعضلات والاعتناء بجمع الشبهات وتكلف الأجوبة عمما لم يقع من السؤالات، إلى أن قال: "وما كانوا ينكرون رضي الله عنهم عمما تعرض له المؤخرن عن عيٌّ وحَصْرٍ، وتبليد في القرائح، هيهات قد كانوا أذكي الخلائق أذهاناً وأرجحهم بياناً، ولكنهم استيقنوا أن اقتحام الشبهات داعية الغوايات، وسبب الضلالات، فكانوا يخاذرون في حق عامة المسلمين ما هم الآن به مبتلون، وإليه مدفوعون. فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الإسلام"²⁶³

ا.هـ

وقال الإمام في العقيدة النظامية ص: 22-23: "وذهب طائفة إلى التعطيل من حيث تقاعدت عقوهم عن درك حقيقة الإله، فظنوا أن ما لا يحييه الفكر منتف، ولو وقفوا لعلموا أنه لا تبعد معرفة موجود مع العجز عن درك حقيقته.

²⁶² الكتاب المذكور ليس بذلك المستوى الذي يدل عليه كلام المؤلف، بل هو دون ذلك بكثير، لأنه لم يسلم من تناقض كتب علم الكلام، كما يظهر ذلك لكل مطلع على الكتاب المذكور، وهو يفرق بين العث والسمين: "أقول هذا القول لبيان الواقع، ولبذل النصح للقارئ".

²⁶³ الغياثي.

والذي ضربناه من الروح مثلاً يعارض به هؤلاء، فليس لوجود الروح خفاء وليس إلى درك حقيقته سبيلاً ولا طريق إلى جحد وجوده للعجز عن درك حقيقته، الأكمه يعلم بالتسامع والاستفاضة الألوان ولا يدرك حقيقتها، فهذا سبب زيف المعطلة وهم على مناقضة المشبهة.

وأما فئة الحق فهدوا إلى سواء الطريق، وسلكوا جُدد الطريق وعلموا أن الجائزات تفتقر إلى صانع لا يتصف بالصفات الدالة على الافتقار وعلموا أنه لو اتصف الصانع بها لكان شبيهاً بمحضها، ثم لم يميلوا إلى النقي من حيث أن يدركون حقيقة الإله، ولم يتعدوا موجوداً يجب القطع به مع العجز عن درك حقيقته، إذ وجدوا في أنفسهم مخلوقاً لم يسترموا في وجوده، ولم يدركوا حقيقته، ونحن الآن نذكر عبارة حرية بأن يتخذها مولانا في هذا الباب هجيراً فهي لعمري المنجية في دنياه وأخراها، فنقول: من نهض لطلب مدبره، فإن اطمأن إلى وجود انتهى إليه فكره فهو مشبه، وإن اطمأن إلى النفي المحس فهو معطل، وإن قطع بمحض وجوده واعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد، وهو معنى قول الصديق رضي الله عنه إذ قال: "العجز عن درك الإدراك إدراك". فإن قيل فغایتكم إذا حيرة ودهشة، قلنا العقول (عاجزة) في درك الحقيقة قاطعة بالوجود المزه عن صفات الافتقار" اهـ.

قلت: فإنما الحرمين عبد الملك قد سلك مسلك والده الإمام أبي محمد الجاوي في إعلانه أن فهم السلف هو الحق وحده فيما يعتقد العبد نحو ربه سبحانه، وما سواه باطل لا محالة لأنه إما تشبيه أو تعطيل أو توقف وهو يشبه أباه في هذا الموقف بالجملة "من يشابه أبه فما ظلم" وإن لم يبلغ درجة أبيه، حيث يوجد في كلامه بعض التغرات التي يستطيع أن ينفذ منها بعض المغرضين المنحرفين ليعبثوا بكلامه بالتحريف فيه، وحمله على غير محمله، لخلاف كلام والده فإنه لم يترك مدخلاً لداخل يدرك ذلك من يقارن بين ما جاء في العقيدة النظامية للجويني (الابن) وما جاء في (رسالة إثبات الاستواء والفوقيه للجويني) (الأب) وعلى كل حال فإن إمام الحرمين بحر لا ساحل له في علمه تدل على ذلك كتب الترجم ومؤلفاته المتنوعة، وكان رحمة الله يكره التقليد والتعصب، وما نقل

عنه قوله: "لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ثم خللت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الطاهرة، وركبت البحر الخضم وغشت في الذي نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك في طلب الحق. وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد" اهـ.

وقد نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه عبارات صارخة بالنندم والتوبة ومتضمنة للنصيحة لأصحابه من علماء الشافعية - لو سمعوا نصيحته- إذ يقول رحمه الله: "يا أصحابنا: لا تشغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ، ما اشتعلت به. وقال عند موته: (لقد خضت البحر الخضم، وخللت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهني عنه، كل ذلك اجتهاذ في طلب الحق، فالآن إن لم يتداركني رب برحمته فالويل لفلان"²⁶⁴.

وهي عبارات، كما ترى في غاية الصراحة في الندم والتوبة ولعل الله تقبل توبته ولا عذر لأصحابه بعد ذلك في بقائهم في أحضان علم الكلام وقد وضح لهم أنه ضار غير نافع... والله الموفق.

4- أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسي الملقب بحجۃ الإسلام (505هـ):

بدأ في طلب العلم في بلده طوس، ثم قدم نيسابور فتردد على دروس إمام الحرمين أبي المعالى الجوهري، فلازمه وجد في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وبرز في الفقه والأصول وعلم الكلام، ونبغ نبوغاً منقطع النظير حتى كان الجوهري يعتز به إلى أن توفي رحمه الله وبعد وفاة شيخه خرج الغزالى من نيسابور إلى بلدة يقال لها (العسكر) ولقي الوزير (نظام الملك) فأكرمه وعظمه وبالغ في إكرامه إلى أن فوض إليه التدریس في مدرسته النظامية (بغداد)، وللوزير مدارس تسمى (بالنظامية) في عديد من البلاد والمدن رحمه الله.

ولإمام الغزالى مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم، ومما يتصل ببحثنا هذا من مؤلفاته كتابه اللطيف (إلحام العوام عن علم الكلام) الذي أشاد فيه بمذهب السلف، وتحدث عن

²⁶⁴ الحموية الكبرى والتدمرية.

حقيقة مبيناً أنه هو الحق وأن من خالف السلف فهو مبتدع لأنَّه مذهب الصحابة والتابعين، وقد أخذَ من الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة، فكل خير في اتباعهم وكل شر في الابداع بعدهم، وقد تحدث فيه بإسهاب عن مذهب السلف وحقيقة مذهب السلف هو الاتباع دون الابداع.

وللإمام الغزالى رسالة سماها (بغية المرید في رسائل التوحيد) وهي جملة رسائل مفيدة وجليلة ومشتملة على كثير من المعانى اللطيفة وما يجب على المخلوق للخالق جل شأنه وعلى ما يجب معرفته على كل إنسان من علم التوحيد.

وقد تحدث فيها عن تنزيه الخالق، وأنَّه لا يشبهه شيءٌ، ولا يشبه شيئاً، وكل ما خطر بالبال والوهم والخيال من التكثيف والتمثيل، فإنه سبحانه منه عنه ذلك. وقد نص في هذه الرسالة على نفي شبهة خطرة وهي: ما قد يتوهّم بعض الناس من أن إثبات الاستواء على العرش يلزم منه أنَّ العرش يحمل رب سبحانه وتعالى الله عما زعموا علىَّهُ كبيراً، وهو جملة من الأخطاء التي يتورط فيها أولئك الذين لا يكادون يفهمون صفات الله سبحانه وتعالى إلا كما يفهمون صفات خلقه من التحديد والإحاطة بالحقائق. وفي نفي هذا الوهم يقول الإمام الغزالى: "وليس العرش بحامل له سبحانه، بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته، وأنَّه تقدس عن الحاجة إلى مكان قبل خلق العرش وبعد خلقه، وأنَّه يتتصف بالصفات التي كان عليها في الأزل".

وقال في موضع آخر من الرسالة نفسها: "وهو سبحانه مقدس من صفات المخلوقين، منه وهو في الدنيا معلوم وفي الآخرة مرئي، كما نعلمه في الدنيا، بلا مثل ولا شبه، لأنَّ تلك الرؤية لا تشابه رؤية الدنيا {ليُسْ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}"²⁶⁵.

وبسبق أنَّ نقلنا بعض عباراته عن كتابه (إيجام العوام عن علم الكلام، وما هنا أوسع)²⁶⁶.

5- أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشهريستاني:

²⁶⁵ بغية المرید في رسائل التوحيد.
²⁶⁶ والإمام الغزالى على الرغم مما نقلنا عنه في كتابه إيجام العوام وغيره، لم يسلم من الاضطراب، يعرف ذلك من اطلع على كتابه: (المضلون به على غير أهلة) وقد اضطرب فيه كثيراً بأسلوب فلسفى غامض.

ولد سنة 467هـ وتوفي سنة 548هـ وهو فقيه شافعي متكلم، وله مؤلفات كثيرة في الفقه. وهو صاحب الملل والنحل، وكتاب في علم الكلام لعله آخر مؤلفاته (نهاية الإقدام في علم الكلام)²⁶⁷ وهو الذي ذم فيه علم الكلام وحذر منه وأوضح أن علم الكلام إنما يورث الحيرة، وليس لدى أربابه يقين في عقيدتهم. وقد أثبتت في أول الكتاب المذكور بيتين في وصف حال أهل الكلام قائلاً:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
فلم أر إلا واضعاً كف حائز
على ذقن أو قارعاً سن نادم
وسيرت طرفي بين تلك المعالم

ولم يذكر أن البيتين من؟ وسواء كان هذا كلامه أو كلام غيره، فإنه ينص هذين
البيتين على سوء حال أهل الكلام، وما يتنهى إليه أمرهم من الحيرة والضلال، واضطراب
العقيدة. فنسأله تعالى العافية والسلامة.

6- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الطبرستاني الرازي المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعى:

قال فيه صاحب وفيات الأعيان: إنه فريد عصره ونسيج²⁶⁸ وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات، وعلم الأوائل وله تصانيف كثيرة ومفيدة في فنون عدّة، ولعل أقرب كتاب من كتبه الكثيرة إلى الموضوع الذي نحن بصدده، كتابه في المعقولات (كفاية العقول) وكتاب (البيان والبرهان في الرد على أهل الزيف والطغيان). وما يقال: إنه يحفظ (الشامل) لإمام الحرمين في علم الكلام، هذا، وذكر صاحب وفيات الأعيان أن له في الوعظ اليد البيضاء، ويعظ باللسانين العربي والعجمي، إلى أن قال: ورجل بسببه خلق كثير من الطائفية الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة.

وقد نظم بعض الآيات في وصف حال أهل الكلام بعد أن تاب الله عليه فتاب،
قائلاً:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وفيات الأعيان 273/4 .
المراجعة المسائية 249/4 .²⁶⁷
²⁶⁸

²⁶⁸ المرجع السابق .249/4، ويأتي الأعيان .275/1.

وأرواحنا في وحشة من جسومنا
 وحاصل دنيانا أذى ووبال
 سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
 هذا وقد ذكر الإمام فخر الدين أنه اشتغل في علم الأصول على والد ضياء الدين
 عمر، وأخذ والده على أبي القاسم الأنصارى، وأخذ الأنصارى على إمام الحرمين أبي
 المعالى وهو على الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني وهو على الشيخ أبي الحسين الباهلى
 وتتلذم الباهلى على شيخ السنة أبي الحسن الأشعري... الخ
 ولقد طوف هذا الإمام في علم الكلام ما طوف وخب ووضع، ثم تاب الله عليه
 كتاب -فيما يظهر لنا من كلامه- وقد نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه،
 بعض العبارات التالية: "لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية مما رأيتها تروي
 غليلاً ولا تشفي علياً، ورأيت أقرب الطرق، طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات {الرَّحْمَنُ
 عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ²⁶⁹، و {إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} ²⁷⁰،
 واقرأ في النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ²⁷¹، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
 عِلْمًا} ²⁷²، ثم قال في حسرة وندامة: "ومن جرب تجربتي عرف معرفتي" ²⁷³ ا.هـ
 وبعد: فليس بغرير ولا عجيب أن يصاب هؤلاء الأئمة الفضلاء الذين تحدثنا عنهم
 بذلك الداء، داء علم الكلام والخوض في صفات الله ظناً وتخميناً في تلك العصور الخالية،
 إذ اشتغلوا به طلباً للحق، كما قال الإمام الجويني أبو المعالى وأكثر ما حملهم على ذلك
 الخوض مع مصادمه لنصوص الكتاب والسنة، تلك النصوص التي ثبتت لله صفات
 الكمال -صفات الله كلها كمال- الذي حملهم على ذلك في الغالب الكثير هو التقليد،
 تقليد شيوخهم لما لهم من المنزلة والمكانة في نفوسهم، ولما أراد الله لهم اتباع الحق أعادهم
 على مخالفة مشايخهم وزملائهم وأصدقائهم إيهاراً للحق الذي اتضح لهم من تدبر آيات
 الكتاب العزيز ومن النظر في السنة المطهرة، كما صرح بذلك والد إمام الحرمين أبو محمد

²⁶⁹ سورة طه آية: 5.

²⁷⁰ سورة فاطرة آية: 10.

²⁷¹ سورة الشورى آية: 11.

²⁷² سورة طه آية: 110.

²⁷³ من الحموية الكبرى لابن تيمية.

الجويني في رسالته التي تحدثنا عنها عند ترجمته، نعم ليس بغرير أن يحصل كل ما حصل وذلك بتقدير الله تعالى وإرادته الكونية، ثم تاب الله عليهم فتابوا ب توفيق الله، لأن المرض الغريب الطارئ قد ينتشر بين الناس فجأة قبل أن تعرف أعراضه لجهل الناس بحقيقة حتى يقابلوه بالوقاية قبل نزوله ثم بالعلاج إذا نزل، ولكن العجيب والمثير للدهشة أن يعرف وخطورته بإخبار أولئك المرضى الذين تحدثوا - بعد أن عفاهم الله - عن سوء حالم ووحشتهم عندما كانوا مصابين، فقدمو للناس واجب النصح وحدروهم من أن يتعرضوا لأسباب ذلك المرض، وبعد هذا كله يأتي أناس يتغاهلون تلك النصائح والتحذير فيتعرضوا لأسباب المرض، فيمرضون ثم يتغاهلون مرضهم فلا يسرعون إلى العلاج، بل يبقون حتى تشتد عليهم وطأة المرض ولا يزال يفتكون بهم من حيث لا يشعرون أو من حيث يشعرون.

هذا هو حال علم الكلام ومثل علماء الكلام بعد توبة إمامهم أبي الحسن الأشعري ومن بعده من كبار أئمة علماء الكلام الذين تابوا وتحدثوا عن مآل علم الكلام، وأوضحاوا عواره وحدروا الناس من قربانه بعبارات صريحة لا سيما ما جاء في نصيحة الإمام الجويني أبي محمد والد إمام الحرمين، وما جاء في كلام الإمام الغزالى، وقد تقدم ذلك كله مفصلاً وبعد:

يتضح جلياً من دراسة أطوار حياة هؤلاء الأئمة الذي تقدم ذكرهم ومعرفة ما انتهى إليه أمرهم، ومعرفة نوع العقيدة التي حتم الله لهم بها حياتهم وهي العقيدة التي كان يعتقدها سلف هذه الأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيعهم، من كل ذلك يتضح لك دون شك أن العقيدة الأشعرية المعروفة اليوم عند الناس هي التي رجع عنها الإمام أبو الحسن الأشعري، ومن ذكرها بعده من كبار الشيوخ، فإذاً نسبة هذه العقيدة إلى أبي الحسن الأشعري نسبة غير صحيحة، لأنه لا يمثلها بعد أن رجع عنها قطعاً كما لا يمثل الاعتزاز الذي كان إمام فيه إلى أن رجع عنه، فمن الإنفاق ألا ينسب إليه ما كان عليه في الطور الثاني، ثم رجع عنه بل هو معذود من أعيان أئمة السلف.

الباب الأول: الكلام على الأسماء الحسنى والصفات العلا وبيان الفرق بينهما

بين يدي المبحث

قبل أن نشرع في الكلام على مبحث الأسماء والصفات وتعدادها يحسن بنا أن ننبه على بعض النقاط المهمة التي لها صلة وثيقة بالموضوع.

أ- إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود، والقائم بالنفس والمخالف للحوادث، فإن هذه الألفاظ يخبر بها عن الله تعالى، ولا تدخل في باب أسمائه الحسنى، ولفظ (القديم) من هذا الباب لعدم ورود النص به، وباب الأسماء والصفات توقيفي، كما لا يخفى.

ب- إن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه تعالى، بل يطلق عليه منها كمال فقط، وهذا كالمريد والفاعل والصانع عند الإطلاق، بل هو فعال لما يريد.

فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، فيقال لفاعل الخير فاعل كما يقال لفاعل الشر فاعل، وكذلك المريد والصانع، ولهذا إنما أطلق الله على نفسه من ذلك أكمله.

ج- لا يلزم من الإخبار عنه تعالى بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط بعض المتأخرین، فجعل من أسمائه الحسنى، المضل والفاتن والماكر، والمستهزئ والساحر مثلاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة. والله أعلم.

د- لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعداد أسماء الحسنى التسعة والتسعين وحصرها وهي التي من حفظها دخل الجنة، أو في غيرها من أسمائه الكثيرة التي سمي الله بها نفسه فأنزلها في كتابه أو علمها أحداً من خلقه، ولكن اعتماد أهل العلم في ذلك على الكتاب العزيز مع بعض الآثار التي يشهد لها الكتاب، فأسماؤه من كمالاته، وكمالاته لا تدخل تحت الحصر، وقد أطال الكلام بعض أهل العلم في أسماء الحسنى حتى ذكر ابن

العربي في شرح الترمذى عن بعضهم أنه جمع من الكتاب والسنّة من أسماء الله تعالى ألف اسم .²⁷⁴

هـ- قال الحافظ ابن حجر في التلخيص - بعد أن ذكر أقوال بعض أهل العلم في تعداد الأسماء الحسنى: "وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررتها منه تسعة وتسعين اسمًا، ولا أعلم من سبقني إلى تحرير ذلك، فإن ما ذكره ابن حزم لم يقتصر فيه على ما في القرآن الكريم" إلى آخر كلامه.

وـ حديث أبي هريرة في تعداد الأسماء الحسنى الذي اعتمد عليه كثير من الناس في تعداد الأسماء الحسنى مثل القشيري والرازي والقرطبي والغزالى، ضعيف، وعلته (الوليد بن مسلم) والحديث الثاني الذي صححه (الترمذى) أضعف وعلته (عبد العزيز بن حصين).
قال الحافظ: متفق على ضعفه، ووهـاه البخاري ومسلم²⁷⁵، وقد زلت أقدام كثير من أهل الكلام في هذا المبحث على اختلاف مواقفهم، منهم من أثبت أسماء مجردة عن المعانى والأوصاف، كأعلام محضره وزعم أن الله سمى بلا سمع، علـيم لا علم، مثلاً إلى آخر الصفات.

ومنهم من ينفي الصفات والأسماء، ليزعم تصور وجود ذات مجردة عن الأسماء والصفات معاً، وهو من أفسد مزاعمهم، لأنـه ضرب من الحال، فلنسمع الحافظ ابن القيم وهو يناقش هذه المزاعم ويفندـها ليكشف عوارـهم إذ يقول رحـمه الله - وهو يتحدث عن دلالة الأسماء على صفات الكمال -:

إن أسماء الله تبارك وتعالى دالة على صفات كمالـه، فهي مشتقة من الصفات وهي أسماء وهي صفات، وبذلك كانت حسـنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معانـى فيها لم تكن حسـنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال ولساغ وقوع الانتقام والغضـب في مقام

²⁷⁴ انظر لذلك:

- 1- ابن القيم: بداعـ الفوائد 183/1
- 2- وابن جرير الطبرى في تفسيره 134/1 بتصرف.
- 3- والشوكاني: فتح القدير 256/2، تفسـير سورة الأعراف {وَلِللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}.
- 4- وابن حـجر: التلخيص الحـبـير 174/4-175 كتاب الأيمـان.
- 5- وتحفة الأحوذى 490/9 طبـعة المكتـبة السـلفـية.

²⁷⁵ راجـع تحـفة الأـحوـذـى 490/9 بـاب عـقد التـسبـيح بـالـبـيد، طـبـعة المـكتـبة السـلفـية.

الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم،
واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى: **{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**²⁷⁶، ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز
أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه
وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}**²⁷⁷، فعلم أن
(القوي) من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: **{فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}**²⁷⁸،
وساق أمثلة كثيرة من القرآن والأحاديث الصحيحة إلى أن قال: لو لم تكن أسماؤه مشتملة
على معانٍ وصفات لم يسع أن يخبر عنها بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى ويعمل ويقدر
ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع من ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة، استحال ثبوت
حكمها، وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذات معانٍ وأوصاف لكان كلها سواء ولم يكن
فرق بين مدلولاتها: وهذه مكابرة صريحة، وبهت بيّن. فإن من جعل معنى اسم (القدير) هو
معنى اسم (السميع البصير)، ومعنى اسم (التواب) هو معنى اسم (المتقى)، ومعنى اسم
(المعطي) هو معنى اسم (المانع)، فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها، والثاني تسمية
الأوثان بها، كما يسمونها آلهة إلى أن قال رحمه الله: وحقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن
الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها وإخراج حقائق معانيها عنها. هذه حقيقة
الإلحاد²⁷⁹ اهـ.

وقال في موضع آخر من كتابه (مدارج السالكين):

"إن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى، كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها
المطابقة²⁸⁰، فإنه يدل دلالتين آخرتين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردتها

²⁷⁶ سورة الأعراف آية: 180.

²⁷⁷ سورة الذاريات آية: 58.

²⁷⁸ سورة فاطر آية: 10.

²⁷⁹ مدارج السالكين 30-28/1.

²⁸⁰ مدارج السالكين 22/1.

بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم (السميع) يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم (الحي) وصفة الحياة بالالتزام وكذلك سائر أسمائه وصفاته²⁸¹ اهـ.

هذا وقد أفاض الحافظ ابن القيم في هذا المبحث في كتابه (مدارج السالكين) بما لعله لا يوجد لغيره مجتمعاً في موضع واحد.

وقد أشار الإمام البيهقي إلى هذا المعنى الذي أفاض فيه الحافظ ابن القيم رحمـه الله، حيث يقول: "فلله عزّ اسمه، أسماء وصفات، وأسماؤه صفاتـه، وصفاته أو صافـه"²⁸² اـهـ وأما الفرق بينهما، فإن الصفات إنما هي من معانـي أسمـائـه الحسـنى، والأسمـاء دـالـةـ عـلـيـهاـ كما تـدـلـ عـلـىـ الذـاتـ، إـمـاـ بـالـمـطـابـقـةـ أـوـ بـالـلـتـزـامـ عـلـىـ ماـ تـقـدـمـ بـيـانـهـ فـيـ كـلـامـ ابنـ القـيمـ قـرـيـباـ. وهذا معنى قول الإمام البيهقي: "وأسماؤه صفاتـه، وصفاته أو صافـه".

من هنا يتضح جلياً بطلان مذهب المعتزلة وتناقضـهمـ، حيث ينـفـونـ الصـفـاتـ معـ إـثـبـاـتـهـ لأـحـکـامـهـ، لأنـهـ مـنـ الـمـعـلـومـ ضـرـورـةـ إـذـاـ عـدـمـ الـوـصـفـ الـذـيـ مـنـهـ الاـشـتـاقـاقـ،

²⁸¹ أنواع الدلالة اللفظية الوضعية:
تنقسم الدلالة إلى ثلاثة أقسام:
1- الدلالة المطابقية.
2- الدلالة التضمنية.
3- الدلالة الالتزامية.

فالدلالة المطابقية: هي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له من حيث أنه وضع له، وذلك مثل لفظ (البيت) على الجدار والسفـقـ مـعـاـ، ودلالة لفظ (إنسـانـ) علىـ الحـيـوانـ النـاطـقـ، ودلالة اسم الله (الـعـلـيمـ) مـثـلاـ عـلـىـ ذاتـ اللهـ وـعـلـمـهـ أيـ دـالـةـ الـاسـمـ عـلـىـ الـمـسـمـيـ والـصـفـةـ المشـتـقةـ منـ الـاسـمـ نـفـسـهـ.

أما الدلالة التضمنية: فهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له في ضمن كل المعنى، مثل دلالة لفظ البيت على الجدار وحده، وعلى السقف وحده، وسميت وضعية لأنـهاـ عـبـارـةـ عـنـ فـهـمـ جـزـءـ مـنـ الـكـلـ، فالـجـزـءـ دـاخـلـ ضـمـنـ الـكـلـ أيـ فيـ دـاخـلـهـ، ومنـ هـذـاـ نوعـ مـثـلاـ دـالـةـ اـسـمـ اللهـ (الـسـمـيعـ) عـلـىـ ذاتـ اللهـ وـحـدـهـ، وـعـلـىـ صـفـةـ السـمـعـ وـحـدـهـ، بـصـرـفـ النـظرـ عـنـ استـعـمالـ (الـجـزـءـ وـالـكـلـ) بلـ يـقـالـ عـلـىـ الصـفـةـ وـالـمـوـصـوفـ.

وأما الدلالة الالتزامية: فهي دلالة اللفظ على خارج عن معناه الذي وضع له، مثل دلالة لفظ (الأربعة) على الزوجية، ودلالة لفظ (إنسـانـ) علىـ قـبـولـ التـعـلـيمـ مـثـلاـ وـعـلـىـ التـعـجـبـ وـالـحـرـكـةـ وـالـسـكـونـ، وـدـالـةـ اـسـمـ اللهـ (الـقـدـيرـ) عـلـىـ صـفـةـ (الـحـيـاةـ) عـلـىـ الـعـلـمـ وـغـيرـهـماـ منـ صـفـاتـ اللهـ تـعـالـىـ.

يقول المناطقة: يشترط لهذه الدلالة لزوم الذهني البين مثل لزوم الحياة من العلم والحمل والقدرة مثلاً إذ الميت لا يوصف بهذه الصفات، ويعللون ذلك، لأنـهاـ تـدـلـ عـلـىـ الـخـارـجـ عـنـ الـمـعـنـىـ الـذـيـ وضعـ لـفـظـ لهـ، وـالـخـارـجـ عـنـ الـمـعـنـىـ غـيرـ مـحـدـودـ، فـلـاـ يـدـ مـنـ الـلـزـومـ الـذـهـنـيـ الـبـيـنـ، وـقـدـ مـثـلـنـاـ لـذـلـكـ آنـفـاـ.

ويقول المـنـاطـقـةـ: إنـ بـيـنـ الدـالـلـةـ الـمـطـابـقـةـ وـالـدـالـلـةـ الـتـضـمـنـيـةـ الـعـمـومـ وـالـخـصـوصـ الـمـطـلـقـ، فإذا وـجـدـتـ التـضـمـنـيـةـ وـجـدـتـ الـمـطـابـقـةـ دونـ العـكـسـ، أيـ لاـ يـلـزـمـ مـنـ وجودـ الـمـطـابـقـةـ وجودـ التـضـمـنـيـةـ.

استقيناـ هـذـهـ الـمـعـلـومـاتـ (ـبـالـمـعـنـىـ) عنـ كـتـابـ المرـشدـ السـلـيـمـ إـلـىـ الـمـنـطـقـ الـحـدـيـثـ وـالـقـدـيـمـ. الـطـبـعـةـ الـرـابـعـةـ، دـارـ الـطـبـاعـةـ الـمـحـمـدـيـةـ بـالـقـاهـرـةـ دـ. عـوضـ اللهـ جـادـ حـجازـيـ.

²⁸² الاعتقـادـ لـلـبـيهـقـيـ صـ: 70ـ نـسـخـةـ مـحـقـقـةـ تـقـدـيمـ وـتـعـلـيقـ وـتـخـرـيجـ أـحـمـدـ عـاصـمـ الطـالـبـ، وـيـعـنـيـ بـذـلـكـ أـسـمـاءـ اللهـ تـعـالـىـ مـتـضـمـنـةـ لـصـفـاتـهـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

فالاشتقاق منه مستحيل، فإذا لم يقم العلم والقدرة بذات مثلاً استحال أن نقول: هي عالمة وقدرة، ولست أدرى كيف استساغت عقول المعتزلة وهضمت هذا التناقض، حيث يقولون: إن الله تعالى قادر وعالٌ لكن لا بقدرة ولا بعلم!

وأنا أعتقد جازماً أن البدوي الجالس أمام خيمته وعند غنمه لو سمع هذا التناقض الذي استساغه العقل المعتزلي، لأنكره ذلك البدوي وسخر منه، لأنه خلاف المنطق، وخلاف العقل السليم الذي يتبلل بعد بعلم الكلام الاعتزالي وتناقضاته، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من عباده.

وسوف نورد بعض النصوص التي تدل على الأسماء الحسنى منها:

1- قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ²⁸³.

2- قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ²⁸⁴.

3- قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ²⁸⁵.

4- حديث حذيفة بن اليمان الذي يقول فيه: إن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه قال: "اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت، وإذا أصبح قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" ²⁸⁶.

5- حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي يقول فيه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فلا يضره شيء" ²⁸⁷.

6- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ تَسْعَة

²⁸³ سورة الأعراف آية: 180.

²⁸⁴ سورة الإسراء آية: 110.

²⁸⁵ سورة طه آية: 8.

²⁸⁶ رواه البخاري الدعوات 11/113، 130، ومسلم 4/2083.

²⁸⁷ أخرجه أحمد 1/62، والترمذى في الدعوات 5/465 تحقيق إبراهيم عطوة، وأبو داود 5/329، وابن ماجه 2/1273، وقال الترمذى حسن صحيح غريب.

وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة²⁸⁸، وزاد في بعض الروايات: "وهو وتر يحب الوتر".

7- حديث الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تسعه وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، وهو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القايبض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبرير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، وفي رواية المقىت بدل: المقىت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، الجيب، الواسع، الحكيم، الودود، الجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحبي، المميت، الحي، القيوم، الواجب، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقطسط، الجامع، الغني، المغني، المانع²⁸⁹، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوراث الرشيد، الصبور، الكافي"²⁹⁰ ا.هـ

قال الإمام البيهقي بعد أن ساق عدة روايات في هذا الباب وفيها: "من أحصاها دخل الجنة"، قال رحمة الله: وليس في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله تسعه وتسعين اسمًا" نفي غيرها، وإنما وقع التخصيص بذكرها لأنها أشهر الأسماء وأبینها معاني. وفيها ورد الخبر أن من أحصاها دخل الجنة.

وفي رواية سفيان: "من حفظها" وذلك يدل على أن المراد بقوله: "من أحصاها" من عدها. وقيل: من أطاقها بحسن المراعاة لها، والحافظة على حدودها، في معاملة الرب بها

²⁸⁸ أخرجه البخاري 377/13، 354/5، 214/11، و5/214.

²⁸⁹ في بعض الروايات: "الرافع" بدل: "المانع".

²⁹⁰ أخرجه الترمذى 5/530-531، وابن ماجه 1270-1269/2، والبيهقي في الأسماء والصفات ص: 3-5، وراجع لتحقيق هذه الرواية فتح الباري 214/11.

سبحانه، وقيل معناه: من عرفها وعقل معانيها، وآمن بها والله أعلم²⁹¹ اهـ.

وبعد أن انتهى الإمام البيهقي من سرد الأسماء ذكر معاني الأسماء بالجملة، ثم فصل القول فيها تفصيلاً لم يسبق إليه فيما نعلم حيث نوع الأسماء تنويعاً: نوع يتبع إثبات الباري جل ثناؤه مثل (القدس)²⁹²، وإن كان هذا الاسم غير معدود من أسماء الله الحسنى، ولكنه ذكر بالمعنى لأنه بمعنى "الأول الذي ليس قبله شيء" وقد مثل لهذا النوع بعدة أسماء ثم عقد فصلاً آخر لنوع آخر من الأسماء يتبع إثبات وحدانيته عز وجل ومثل لهذا النوع بعدة أسماء منها: (الواحد) ومنها (الوتر) (الكافى) إلى آخر تلك الأسماء الكثيرة التي وزعها على عدة فصول في أول كتابه (الأسماء والصفات).

وما يشهد للإمام البيهقي فيما ذهب إليه - وهو الحق - من أن أسماء الله الحسنى لا تحصر في الأسماء التسعة والتسعين المذكورة في بعض الأحاديث السالفة الذكر التي يفهم منها من أول وهلة أن أسماء الله الحسنى هي هذه فقط، التي يمكن حفظها وإحصاؤها - مما يشهد للإمام فيما ذهب إليه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يقول فيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كثر همه فليقل: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، وفي قبضتك، ناصيتي بيديك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو ألمت عبادك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، وفي لفظ: في مكنون الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء همي وغمي، ما قالها عبد قط إلا أذهب الله غمها وأبدلها فرجاً"، وفي بعض النسخ (فرحاً) بالحاء المهملة، رواه رزين²⁹³.

والحديث يدل بكل وضوح على أن أسماء الله كثيرة ومتعددة حسب توزيع الحديث المذكور وهو أمر واضح، لأن كمالات الله لا تنتهي، بل هو موصوف بكل كمال سبحانه {قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي

²⁹¹ الأسماء والصفات للبيهقي ص: 5.

²⁹² ذكر صاحب شرح الطحاوية: أن (القديم) من الأسماء التي أدخلها المتكلمون في أسمائه تعالى وليس هو من أسمائه الحسنى. فإن القديم في لغة العرب هو المتقدم على غيره، وقد وصف به في القرآن (العرجون) (والإفك القديم) (والضلالة

القديم) وهو مع ذلك لا يؤدي معنى (الأول) الذي ليس قبله شيء. شرح الطحاوية ص: 43.

²⁹³ مشكاة المصايخ 1/752، وهو حديث صحيح (راجع شرح العقيدة الطحاوية ص: 110).

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ²⁹⁴.

هذا، وإنماً للفائدة ولإعطاء هذه النقطة ما تستحق من البحث، أنقل هنا ما ذكره الحافظ ابن القيم عند قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} الآية، لنقف على حقيقة الإلحاد وأنواعه، علماً بأنه قد تقدم بعض ما ذكره هنا فيما أسلفنا.

وهاك ملخص كلامه رحمه الله - وهو يتحدث عن معانٍ للإلحاد-: {وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} ²⁹⁵.

ومن أعظم أنواع الإلحاد في أسمائه تعالى إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنه مجازات، وهو أنواع: وهذا أحدها.

و ثانيها: إنكار الأسماء كلية، وهذا يصدق على الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات معاً، وهم أسوأ حالاً من المعتزلة الذين ينفون الصفات، مع إثابتهم ²⁹⁶ للأسماء، ولو شكلياً حيث يزعمون أنه تعالى سمِع بلا سمع، علِم بلا علم.

و ثالثها: تشبيه الله تعالى في صافته، وفي معانٍ لأسمائه بصفات المخلوقين وأسمائهم، وهذا النوع من الإلحاد يشمل المشبهة الذي يشبهون الله بالملحوظ في أسمائه وصفاته، ويشمل المعطلة الذي يشبهونه أولاً حيث زعموا أنهم لا يفهمون من الأسماء والصفات إلا الحقائق التي تليق بالملحوظ، ثم ينفون أسماء الله وصفاته بدعوى التأويل لأن إثباتها على ظاهرها يقع في التشبيه وهذا يقال فيهم: إنهم يشبهون أولاً، ثم يعطّلون ثانياً، ويقال: كل مشبه معطل، وكل معطل مشبه، لأن المشبهة قد عطّلوا البارئ بما يليق به بتشبيههم إياه بالملحوظ. كما أن المعطلة قد شبهوه بتعطيله عن صفات الكمال - وصفاته كلها كمال - بجمادات لا توصف بأي صفة لا بالعلم، ولا بالبصر مثلاً.

وقد أورد هذه القاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع من كتبه كالحموية والتدميرية، وقد أنكر الحافظ ابن القيم وجود طائفة معينة تعتقد أن الثابت لله تعالى من صفاتيه مماثل للمعاني الثابتة للملحوظ فيجعل هذا مذهبًا له ويقف عند هذا الاعتقاد دون

²⁹⁴ سورة الكهف آية: 109.

²⁹⁵ سورة الأعراف آية: 180.

²⁹⁶ راجع المتنقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص: 114 تحقيق محي الدين الخطيب.

تأويل كما فعلت المعطلة، هكذا يرى الإمام ابن القيم، ولكننا إذا راجعنا معتقدات بعض الطوائف المنحرفة في عقيدتها نجد (الهشامية) وهم أتباع هشام بن الحكم الرافضي يزعمون أن معبودهم (جسم وله نهاية، وله حد، طوله كعرضه وعمقه) إلى آخر كلام طويل كله تشبيه وتجسيم. وزعيمهم (هشام بن الحكم) أول من أظهر إطلاق لفظ (التجسيم) من متكلمة الراضا²⁹⁷.

وهناك خمسة فرق من الروافض ولكنهم يقولون بالتجسيم مع اختلافهم في الأسلوب والتفسير، وتوجد هشامية أخرى أتباع هشام بن سالم الجواليلي، التي تزعم أن معبودها على صورة الإنسان وينكرون أن يكون لحمًا ودمًا، إلى آخر تلك الأوصاف الكفرية، فهما طائفتان جمعهما الإلحاد بالتشبيه والتجسيد وفرقتهما كيفية ذلك التشبيه والصورة.

ولعل الإمام ابن القيم يرى أن معبودهم الذي بتلك الصفات ليس هو رب العالمين - وهو الواقع - حتى يقال: إنهم شبهوا الله بخلقه، ولكنهم اخذوا معبوداً آخر بتلك الصورة.

والله أعلم. وإنما قد شبهوا أقبح التشبيه، ثم لم يؤولوا كما أولت المعطلة.

ويجزم الإمام ابن القيم أن المراد بالمشبهة الذين عني القرآن بالرد عليهم هم أولئك الذين يثبتون للملائكة علمًا كعلم الخالق، وقدرة كقدرة الخالق، وتصرفاً في الكون كتصرفه حتى عبدوا مخلوقاً مثلهم بعد هذا الغلو فيه، كما يعبد الموحد رب سبحانه بأنواع العبادات من التذلل والخضوع والذبح والنذر وغير ذلك.

ويرى ابن القيم أن هذا هو الواقع من بني آدم قديماً وحديثاً يشبهون أو ثالثهم وأصنامهم ومعبوداتهم بالخالق. وقطعاً لا يعرف إبان نزول القرآن غير هذا النوع من التشبيه، وهذا ما يعنيه ابن القيم. وقد ساق عدة آيات مؤيداً بها ما ذهب إليه. مثل قوله تعالى: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِّيَا} ²⁹⁸، أي من يساميه ويماثله، وقوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} ²⁹⁹، وقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

²⁹⁷ راجع المتنقى من منهاج الاعتدال ص: 83، ومقالات الإسلاميين ص: 54، وابن حزم في (الفصل).

²⁹⁸ سورة مريم آية: 65.

²⁹⁹ سورة الإخلاص آية: 4.

قال ابن القيم - وهو يلخص معنى الآيات الثلاث التي ساقها مؤيداً بها مذهبه وهو الصواب - فيما يظهر لنا - ففي عن المخلوق مماثله، ومكافأته ومساماته الذي هو أصل شرط بيني آدم، فضرب المتكلمون عن ذلك صحفاً وأخذوا يبالغون في الرد على من شبه الله بخلقه، يقول الإمام ابن القيم: "لا نعلم فرقة من بين آدم استقلت بهذه النحلة وجعلتها مذهبًا تذهب إليه، حتى ولا الجسمة الحضرة الذين حكى أرباب المقالات مذاهبهم كالهشامية والكرامية³⁰¹، الذين قالوا: إنه جسم لو يقولوا: إنه مماثل للأجسام بل صرحاً بأن معنى كونه جسماً أنه قائم بنفسه موصوف بصفات"³⁰² اهـ.

وله رحمة الله كلام نفيس في كتابه (شفاء العليل) عند الكلام على حديث ابن مسعود الذي تقدم ذكره أن يقول رحمة الله:

قوله عليه الصلاة والسلام: "أسألك بكل اسم هو لك سميت له نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثر به في علم الغيب عندك".

قال رحمة الله: إن كانت الرواية محفوظة هكذا فيها إشكال، فإنه جعل ما أنزله في كتابه أو علمه أحداً من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده، قسيماً لما سمي به نفسه! ومعلوم أن هذا التقسيم تفصيل لما سمي به نفسه، فوجه الكلام أن يقال: سميت به نفسك، فأنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك. فإن هذه الأقسام الثلاثة تفصيل لما سمي به نفسه.

وأجاب الحافظ على هذا الإشكال بجواب مستفيض وحق تحقيقاً قلّ ما يوجد له نظير - فيما علمنا - وملخصه هو الآتي:

إن العطف بين هذه الجمل من باب عطف الخاص، لأن كل جملة أخص من التي

³⁰⁰ سورة الشورى آية: 11.

الكرامية هي طائفة من المرجنة أصحاب محمد بن كرام، من عقیدتها أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون تصديق القلب، والمنافقون عندهم من المؤمنين لأنهم يقررون بالسنتهم اهـ.

مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري 1/205، بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

³⁰² هذا خلاف ما ذكره الذهبي نفلاً عن الأشعري في المقالات، وعن ابن حزم في الفصل وأصل الكلام موجود في منهاج السنة، وسيق أن نقاشنا كلام ابن القيم وحاولنا أن يفهم كلامه على أنه لا توجد فرقة يقال لها مشبهة وقت نزول القرآن، وأما بعد ذلك فقد وجدت كما أوضحتنا آنفاً في صلب الرسالة.

قبلها، والمعهود في باب عطف الخاص على العام أن يكون بالواو دون سائر حروف العطف إلا أن العطف بـ "أو" على العام له فائدة أخرى غير الفائدة التي في العطف بالواو.

وهي بناء الكلام على التقسيم والتنوع كما بين عليه تماماً. فيقال: سميت به نفسك فإنما أنزلته في كتابك. وإنما علمته أحداً من خلقك³⁰³ اهـ.

قلت: ولا يستبعد لو قيل: إن "أو" هنا معنى الواو، وهو أسلوب متبع معروف عند أهل اللغة.

ثم انتقل ليذكر لنا فائدة أخرى في الحديث، وملخص ذلك: أن الحديث يدل على أن أسماء الله غير مخلوقة، بل هو الذي تكلم بها وسمى بها نفسه، وهذا لم يقل: كل اسم خلقته لنفسك، ولو كانت مخلوقة لم يسألها بها. فإن الله (لا يقسم عليه) بشيء من خلقه، فالحديث صريح في أن أسماء الله ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم، ويدل أيضاً على أن الأسماء مشتقة من صفاتيه، وصفاته قديمة قائمة به تعالى فأسماؤه غير مخلوقة³⁰⁴ اهـ.

فإن قيل: فالاسم عندكم هو المسمى أو غيره؟! قيل: طالما غلط بعض الناس في ذلك وجهلو الصواب فيه.

فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشه وسمع الله ورأى وخلق فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، أو الرحيم من أسماء الله، وما في هذا المعنى فالاسم هنا هو اللفظ الدال على المسمى، ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الإجمال، فإن أريد بالغاية أن اللفظ غير المعنى، فحق. وإن أريد أن الله كان وليس له أسماء حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد³⁰⁵ اهـ.

ثم واصل كلامه قائلاً قوله: "أو استأثرت به في علم الغيب عنك" دليل على أن

³⁰³ شفاء العليل باب 27، ص: 276 ط دار المعرفة.

³⁰⁴ المصدر السابق ص: 277، بتصرف.

³⁰⁵ شفاء العليل باب 27 ص: 276.

أسماء الله أكثر من تسعه وتعسين، وأن له أسماء وصفات استثار بها في علم الغيب عنده لا يعلمهها غيره. وعلى هذا فقوله: "إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخْلُ الْجَنَّةِ" لا ينفي أن يكون له سبحانه غيرها والكلام جملة واحدة³⁰⁶ اهـ.

قلت: وعلى هذا يكون إعراب الجملة هكذا:

الله جار ومحرور حال مقدمة على صاحبها، وتسعه وتسعون مبتدأ³⁰⁷، وسough الابتداء بالنكرة تقدم الحال وهو جار ومحرور، وهو المسوغ أيضاً لكون صاحب الحال نكرة، وجملة من أحصاها دخل الجنة خير المبتدأ.

ويكون المعنى هكذا: تسعه وتسعون اسماً حال كونها ثابتة لله مخبر عنها بدخول الجنة من حفظها وأحصاها، مؤمناً بها دون إلحاد فيها، والله أعلم.

وقد أشار الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى هذا المعنى نقاً عن الخطاطي. وقد أوضح ابن القيم هذا المعنى بقوله: "كما يقال لفلان مائة عبد أعدهم للتجارة، وله مائة فرس أعدها للجهاد. قلت: ألا ترى أن هذا التركيب لا يمنع أن يكون لزيد عبيد آخر أعدهم للخدمة، أو يكون له عدد آخر من الفرس أعدها لغرض آخر غير الجهاد. وكذلك الحال هنا إذ لا مانع أن يكون لله أسماء غير هذا العدد المذكور في الحديث".

بل صرح الحافظ ابن القيم أن هذا رأي الجمهور وما خالفهم في ذلك إلا ابن حزم فزعم أن أسماء الله تحصر في هذا العدد³⁰⁸ اهـ. وسيأتي نص كلامه رحمه الله إن شاء الله.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني - وهو يتكلم على حديث أبي هريرة الذي نحن بصدده شرحه: "الله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً" الحديث وقد اختلف في هذا العدد: هل المراد به حصر الأسماء الحسنة في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك؟ ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة، فذهب الجمهور إلى الثاني ونقل الترمذى اتفاق العلماء عليه فقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى وليس معناه أنه ليس له اسم غير التسعه والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة. فالمراد الإخبار

³⁰⁶ المصدر السابق.

³⁰⁷ وهذا الإعراب ليس محل اتفاق عند النحاة، لأن منهم من يمنع أن يكون المبتدأ صاحب الحال، ولو لم يكن نكرة، وإذا كان نكرة فمن باب أولى.

³⁰⁸ شفاء العليل لابن القيم باب 27 بتصرف، والحافظ ابن حجر في الفتح 13/483.

عن دخول الجنة بإحصائها لا الأخبار بحصر الأسماء اهـ.

ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان: "أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمِيتَ لَهُ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْدَكَ" وعنده مالك عن كعب الأحبار في دعاء "أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحَسَنِي مَا عَلِمْتَ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ" وأورد الطبرى عن قتادة نحوه. ومن حديث عائشة أنها دعت بحضور النبي عليه الصلاة والسلام نحو ذلك.

وقال الخطابي في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد وليس فيه منع ما عدتها من الزيادة، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معانى. وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله: "من أحصاها" لا قوله: "الله".³⁰⁹

قلت: وقد تقدم الكلام على هذه الإعراب المشار إليه بالتفصيل، والله وحده الحمد والمنة، والمعنى الذي ذكره الخطابي³¹⁰ قد ذكره أيضاً القرطبي³¹¹ وابن بطال³¹² نقاً عن القاضي أبي بكر الطيب³¹³ وسبق أن نقلناه عن الحافظ ابن قيم الجوزية، وقد نوه أنه رأى الجمهور ولم يخالفهم إلا ابن حزم، رحمه الله: حيث يقول: "قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: وأن له عز وجل تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحداً، وهي أسماؤه الحسنى، ومن زاد شيئاً من عند نفسه فقد ألحى في أسمائه. وهي الأسماء المذكورة في القرآن والسنة" هذا نص كلام أبي محمد. ثم ساق حديث أبي هريرة بإسناده، قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ تَسْعَهُ وَتَسْعِنَهُ أَسْمَاءً أَلَا وَاحِدًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"، ثم ذكر الزيادة التي يقول: "إِنَّهُ وَتَرْ يَحْبُّ الْوَتْرَ"، وهي زيادة صحيحة وردت في بعض طرقه قم قال: وقد صح أنها تسعة وتسعون اسمًا فقط، ولا يحل لأحد أن يحيى أن يكون له اسمًا

³⁰⁹ فتح الباري كتاب الدعوات 378/13-379.

³¹⁰ هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب المتوفى سنة 388هـ، صاحب معالم السنن.

³¹¹ هو محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي المتوفى سنة 671هـ، وهو صاحب الجامع لأحكام القرآن.

³¹² هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطاط القرطبي المالكي المتوفى سنة 449هـ، وله شرح على صحيح البخاري (انظر معجم المؤلفين 7/87).

³¹³ هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر المعروف بالباقلاني، البصري المتكلم المشهور على مذهب الأشعرى، توفي سنة 403هـ، (راجع: وفيات الأعيان 3/400).

زائد لأنه صلى الله عليه وسلم قال: مائة غير واحد. فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد، لكان مائة اسم. ولو كان هذا لكان قوله صلى الله عليه وسلم: "مائة إلا واحداً" (كذباً) ومن أجاز هذا فهو كافر³¹⁴ اهـ.

عفا الله عن أبي محمد لقد بالغ في هذا الإنكار، والتکفير ليس بالأمر الهين، فنعتذر له قائلين، لعل الذي حمله على هذه المبالغة حرصه الشديد على التقيد بالنصوص، وهو أمر مطلوب بل واجب، ولكنه كان يسعه غير هذا الأسلوب بأن يقول: إن الزيادة غير جائزة ما لم يرد ما يدل عليها، كان يسعه هذا المقدار من التقيد، ولكنه أبي إلا أن يبالغ عفا الله عنا وعنـه³¹⁵.

وأما النص الذي اعتمدـه الجمهور والـذي فهمـوا منه أنـ حـديثـ أبي هـرـيـرةـ وـماـ فيـ معـناـهـ لاـ يـمـنـعـ أنـ يـكـونـ اللـهـ اـسـمـ آـخـرـ أوـ أـسـمـاءـ وـهـوـ حـدـيـثـ اـبـنـ مـسـعـودـ الـذـيـ نـحـنـ بـصـدـدـ مـنـاقـشـتـهـ. فـقـدـ اـتـضـحـ مـنـ اـسـتـعـراـضـ أـقـوـالـ أـهـلـ الـعـلـمـ وـمـنـاقـشـتـهـ لـلـحـدـيـثـيـنـ، حـدـيـثـ أبي هـرـيـرةـ وـحـدـيـثـ اـبـنـ مـسـعـودـ الـلـذـيـ ظـاهـرـهـماـ التـعـارـضـ قـبـلـ اـسـتـيـضـاحـ الـمـرـادـ مـنـ حـدـيـثـ أبي هـرـيـرةـ فيـ حـفـظـ عـدـدـ كـثـيرـ مـنـ الـأـسـمـاءـ الـحـسـنـيـ، اـتـضـحـ أـنـ الصـوـابـ مـعـ الجـمـهـورـ، وـأـنـ التـوـفـيقـ بـيـنـ الـحـدـيـثـيـنـ بـالـطـرـيـقـةـ الـتـيـ سـلـكـوـهـاـ أـمـرـ لـاـ بـدـ مـنـهـ لـيـمـكـنـ الـعـلـمـ بـهـمـاـ مـعـاـ، وـهـيـ طـرـيـقـةـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ الـمـعـرـوفـةـ -وـالـتـيـ هـاـ يـمـنـعـ التـضـارـبـ بـيـنـ النـصـوـصـ الـصـحـيـحةـ عـنـدـ مـاـ يـظـهـرـ لـأـوـلـ وـهـلـةـ التـعـارـضـ بـيـنـهـاـ رـحـمـهـمـ اللـهـ.

قال الحافظ ابن حجر: ظاهر كلام (ابن كج)³¹⁶ حصر أسماء الله في العدد المذكور، وبه قال ابن حزم، ونوزع. ويـدلـ عـلـىـ صـحـةـ قولـ منـ خـالـفـهـ حـدـيـثـ اـبـنـ مـسـعـودـ فيـ الدـعـاءـ الـذـيـ فـيـهـ: "أـسـأـلـكـ بـكـلـ اـسـمـ هـوـ لـكـ، سـمـيـتـ بـهـ نـفـسـكـ، أـوـ أـنـزلـتـهـ فـيـ كـتـابـكـ، أـوـ عـلـمـتـهـ أـحـدـاـ مـنـ خـلـقـكـ، أـوـ اـسـتـأـثـرـتـ بـهـ فـيـ عـلـمـ الـغـيـبـ عـنـدـكـ" كما يـدلـ عـلـىـ عـدـمـ الحـصـرـ أـيـضاـ اختـلـافـ الـأـحـادـيـثـ الـوـارـدـةـ فـيـ سـرـدـهـاـ، وـثـبـوتـ أـسـمـاءـ غـيـرـ مـاـ ذـكـرـتـ فـيـ الـأـحـادـيـثـ

³¹⁴ ابن حزم المحتلي 30/1 مسألة 55.

³¹⁵ ولعل هذا الحديث لم يبلغه رحمـهـ اللهـ.

³¹⁶ هو القاضي يوسف بن أحمد بن يوسف بن كج الكجي الدنويـيـ منـ أئـمـةـ الشـافـعـيـةـ وـصـاحـبـ الـمـؤـلـفـاتـ، تـوـفـيـ سـنـةـ 405ـهــ، انـظـرـ وـقـيـاتـ الـأـعـيـانـ 6/63.

قال القرطبي: "فأسماء الله وإن تعددت فلا تعدد في (ذاته) ولا تركيب لا محسوساً كالجسميات ولا عقلياً كالمحدوّدات. وإنما تعدد الأسماء بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات. ثم هي من جهة دلالتها على أربعة أضرب:

1- ما يدل على الذات مجردة، كالحلالة فإنّه يدل عليه دلالة مطلقة غير مقيدة. وبه تعرف جميع أسمائه. فيقال: الرحمن مثلاً من أسماء الله ولا يقال: الله من أسماء الرحمن وهذا كان الأصح أنه اسم علم غير مشتق وليس بصفة³¹⁸ اهـ
قلت: لا يمنع هذا أن يكون أصل (الله) (إله) وهو المألوه، أي المعبد، وقد تقدم تحقيق ذلك في البحث الأول.

2- ما يدل على إضافة أمر ما إليه كالخالق والرازق (مثلا).

3- ما يدل على الصفات الثابتة للذات كالعليم والقدير والسميع والبصير (مثلا).

4- ما يدل على سلب شيء عنه كالعلي والقدوس (مثلا)³¹⁹.

وهذه الأسماء الأربع منحصرة في النفي والإثبات³²⁰ اهـ

قال الفخر الرازي في شرح الأسماء الحسني: "الألفاظ الدالة على الصفات ثلاثة:

1- ثابتة في حق الله قطعاً.

2- ممتنعة قطعاً.

3- ثابتة ولكن مقرونة بكيفية.

فالقسم الأول: فيه ما يجوز ذكره مفرداً و مضافاً وهو كثير جداً، كالقادر والقاهر. ومنه ما يجوز مفرداً ولا يجوز مضافاً إلا بشرط، كالخالق فيجوز (خالق) ويجوز خالق كل

³¹⁷ التلخيص الحبير 4/174.

وملخص التوفيق: أن حديث أبي هريرة يفيد أن الأسماء التسعة والتسعين لها ميزة خاصة، وهي: أن من حفظها وأحصاها، وعرف معناها وعمل بها ودعا الله بها دخل الجنة، وليس فيه ما يدل على أنه تعالى ليس له أسماء غيرها، ويوضح ذلك حديث ابن مسعود إذ يفيد أن الله أسماء علم بعضها بعض عباده، ولو أسماء استثار بعلمها وحده، سبحانه لا يعلمها غيره تعالى. هذا ملخص ما جمعوا به بين الحديثين، والله أعلم.

³¹⁸ التلخيص الحبير.

³¹⁹ فالعلي مع دلالته على صفة العلو، فهو يدل أيضاً على نفي النقائص عنه تعالى كالسفول، والحلول والاختلاط بالمخلوقات، والله أعلم.

³²⁰ المصدر السابق.

شيء مثلاً ولا يجوز خالق القردة³²¹ اهـ.

قلت: وإنما منع ذلك تأدباً مع الله سبحانه وتقديرًا له جل وعلا، وإلا فإن القردة داخلة في عموم قوله: {خالقُ كُلّ شَيْءٍ}.

ومنه عكسه. يجوز مضافاً، ولا يجوز مفرداً كالمنشىء، ويجوز منشئ الخلق، ولا يجوز منشئ فقط، قلت: لأن إنا يستعمل في حقه تعالى من حيث المعنى لا لأنه من أسمائه الواردة (لأن أسماء الله توقيفية عند أهل السنة بخلاف المعتزلة).

وقد استطرد الحافظ ابن حجر إلى ذكر (الاسم الأعظم) الذي إذا دعي به لا يرد، وذكر اختلاف أهل العلم فيه منهم من أنكره مثل أبي جعفر الطبرى، وأبي الحسن الأشعري، وجماعة بعدهما كأبي حاتم ابن حبان، والقاضي أبي بكر الباقلاني، فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور (إلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض)، فيشعر ذلك باعتقاد نقصان المفضول، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم، (وجعلوا اسم التفضيل على غير بابه) (وهو أسلوب معروف عند علماء العربية)، وأن أسماء الله كلها عظيمة.

وقال ابن حبان: "الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك. كما إذا أطلق ذلك في القرآن، المراد به مزيد ثواب القارئ، وقيل: المراد بالاسم الأعظم، كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حالتعد غير الله تعالى، فإن من تأتي له ذلك استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجندى وعن غيرهما.

وقال آخرون: استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه وأثبته آخرون، واضطربوا في ذلك³²² اهـ.

ثم ذكر أربعة عشر قولًا فرأيت أن أقتصر على أحد عشر قولًا³²³ فقط، وهي

³²¹ الفخر الرازي شرح الأسماء الحسنة ص: 37-38 طبع المكتبات الأزهرية.

³²² فتح الباري، كتاب الدعوات 13/483-481.

³²³ محاولاً اختيار الأقوى فالأقوى من الأقوال من حيث الدليل، فيما يظهر لي والله أعلم.

الأقوال التي تطمئن إليها النفس تقريرًا، نسردها فيما يلي:

1- إن الاسم الأعظم (الله) لأنه لم يطلق على غيره سبحانه، ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى، ومن ثم أضيفت إليه.

2- (الله الرحمن الرحيم) ولعل مستند هذا القول ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها: "أَنَّهَا سُئلَتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ يَعْلَمُهَا الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ، فَلَمْ يَفْعُلْ"، فَصَلَّتْ وَدَعَتْ: "اللَّهُمَّ أَنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحِيمَ بِاسْمَائِكَ الْحَسَنَى كُلُّهَا، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ" الحديث، وفيه أنه صلَّى الله عليه وسلم قال لها: "إِنَّهُ فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا"، قال الحافظ ابن حجر: سنه ضعيف، وفي الاستدلال به نظر لا يخفى³²⁴ اهـ.

ولعل ذلك النظر الذي أشار إليه الحافظ رحمه الله: أن عائشة إنما دعت بالله، والرحمن، والرحيم، وجميع الأسماء الحسنى ما علمت منه وما لم تعلم.

فالاستدلال بالحديث على بعض ما دعت به دون بقية الأسماء غير وارد. والله أعلم.

3- (الرحمن الرحيم، الحي القيوم) لما أخرج الترمذى من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلَّى الله عليه وسلم قال: "اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتِينِ الْآيَتَيْنِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}", وفاتحة سورة آل عمران {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُّومُ}، أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وحسنه الترمذى بل قد (صححه)، وفيه نظر لأنَّه من روایة شهر بن حوشب.

4- (الحي القيوم) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة: "إِنَّ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ فِي ثَلَاثِ سُورَاتِ الْبَقْرَةِ، وَآلِ عُمَرَانَ، وَطَهٍ" ، قال القاسم الراوى عن أبي أمامة: التمسَّتْ منها فعرفتْ أنه (الحي القيوم)، وقواه الفخر الرازى واحتج بأهْمَما يدللان على صفة العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما كدلائلهما.

5- (الحنان، المنان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، الحي القيوم)، ورد ذلك مجموعاً في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي

وصححه ابن حبان.

6- (ذو الجلال والإكرام) أخرجه الترمذى من حديث معاذ بن جبل. قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام) فقال: "قد استحب لك فسل" واحتج له الفخر الرازى بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية، لأن في الجلال إشارة إلى جميع السلوب، وفي الإكرام إشارة إلى جميع الإضافات.

7- (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، من حديث بريدة، وهو أرجح من حيث السنن من جميع ما ورد في ذلك.

8- (رب رب) أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عياض، بلفظ (اسم الله الأكابر رب) وأخرجه ابن أبي الدنيا عن عائشة: إذا قال العبد يا رب يا رب، قال الله تعالى: "لبيك عبدي سل تعط"، رواه مرفوعاً وموقوفاً.

9- دعوة ذي (النون) أخرجه النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد - رفعه - دعوة ذي النون في بطن الحوت **{لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** ولم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له.

10- هو مخفى في الأسماء الحسنى ويفيده حديث عائشة المتقدم لها دعت ببعض الأسماء الحسنى، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم "أنه لفي الأسماء الحسنى التي دعوت بها".

11- كلمة التوحيد، نقله عياض³²⁵ اهـ.

هكذا ينتهي الكلام على الباب الأول (الأسماء الحسنى والصفات العلي والفرق بينهما) بعد أن أثبتنا أن أسماء الله تعالى مشتقة من صفاته أو تدل على صفاته تعالى على اختلاف أنواعها. والله الموفق.

الباب الثاني: أنواع الصفات عند السلف والخلف

³²⁵ فتح الباري، كتاب الدعوات ج 13، والتلخيص الحبير ج 4 الإيمان.

أ- الصفات السلبية:

أما السلف فإنه لم يتسعوا في تقسيم الصفات وتنوعها، إذ ليس من عادتهم الإسراف في الكلام في المطالب الإلهية، بل لا يكادون يتجاوزون الكتاب والسنّة في مبحث الصفات، إلا أن أولئك الذين حضروا زمان الفتنة (بعد نشأة علم الكلام في عهد العباسين) وابتلوا بمناقشة علماء الكلام وجدهم بأسلوبهم اضطروا للخوض في تقسيم الصفات بقدرٍ، كما سيأتي بيان ذلك عند الكلام على الصفات الخبرية إن شاء الله.

وأما الخلف³²⁶، فقد أهلوا بتقسيم الصفات وتنوعها، ومن ذلك تنوعهم في الصفات إلى نفسية وسلبية وصفات معان، ومعنى وصفات فعلية، وصفات جامعية، والصفة الإضافية وهي تتدخل مع الفعلية كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

أما الصفات السلبية فهي خمس صفات عند الأشاعرة:

1- القدم.

2- البقاء.

3- الوحدانية.

4- المخالفة للحوادث.

5- الغنى المطلق، المعروف عندهم (القيام بالنفس).

قال العلامة الشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله في كتابه أصوات البيان: "اعلم أن المتكلمين قسموا صفاته جل وعلا إلى ستة أقسام:

1- صفة نفسية.

2- صفة سلبية.

3- صفة معنى.

4- صفة معنية.

5- صفة فعلية.

³²⁶ المراد بالخلف هنا الأشاعرة، لأنهم هم الذين قسموا الصفات هذا التقسيم، كما تدل عليه كتبهم وراجع حاشية البيجوري والدسوقي، بل المتون نفسها تنص على هذا التقسيم مثل متن السنوسية، وإن كنت لا أذكر في أي وقت اصطلحوا على هذا التقسيم.

6- صفة جامعة. مثل العلو والعظمة مثلاً.

7- الصفة الإضافية هي تتدخل مع الفعلية.

لأن كل صفة فعلية من مادة متعددة إلى المفعول كالخلق والإحياء والإماتة فهي صفة إضافية، وليس كل صفة إضافية فعلية، فيبينهما عموم وخصوص من وجہ، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة.

وتنفرد الفعلية في نحو الاستواء وتنفرد الإضافية في نحو كونه تعالى موجوداً قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، لأن القبلية والفوقية من الصفات الإضافية وليسها من صفات الأفعال³²⁷ اهـ.

وضابط الصفة السلبية عندهم: هي الصفة التي لا تدل بدلالة المطابقة، على معنى وجودي أصلاً، وإنما تدل على المعنى السلبي غير الثبوتي كالقدم يدل على ما سبق العدم، والبقاء يدل على عدم لحقوق الفناء إلى آخر الصفات الخمسة التي تقدم ذكرها. وقال بعضهم: هي التي تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله³²⁸ والتعريفان متقاربان كما ترى.

وهناك صفات سلبيات أخرى غير الصفات السلبية التي اصطلح عليها الأشاعرة التي تقدم الحديث عنها، ونعني بالسلبيات هنا الصفات التي تدخل عليها (أدلة) النفي مثل (لا)، و (ما) و (ليس) وهذا النوع من السلوب والنفي كثير في القرآن، وإنما يقع النفي في القرآن لتضمنه كمال ضد الصفة المنافية، بل لقد ثبت (بالاستقراء) أن كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبت كمال ضده، كقوله تعالى: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}**³²⁹، لكمال عدله، وقوله تعالى: **{لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}**³³⁰، لكمال علمه، وقوله: **{وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}**³³¹، لكمال قوته، وقوله تعالى: **{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}**³³²، لكمال حياته وقيوميته، وقوله تعالى: **{لَا**

³²⁷ أضواء البيان 2/306، فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

³²⁸ أضواء البيان 2/306، والفقه الأكبر بتصرف ص: 20 للإمام أبي حنيفة بشرح ملا علي قارئ.

³²⁹ سورة الكهف آية: 49.

³³⁰ سورة سباء آية: 3.

³³¹ سورة ق آية: 38.

³³² سورة البقرة آية: 255.

ثُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ³³³، لكمال جلاله وعظمته وكباريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه،

ألا ترى أن قول الشاعر:

قُبِيلَةٌ لَا يَعْدِرُونَ بِذَمَّةٍ
وَلَا يُظْلَمُونَ النَّاسُ حَبَّةً خَرَدَلَ

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله:

(قُبِيلَةٌ) عُلِّمَ أَنَّ الْمَرَادَ عَجَزَهُمْ وَضَعْفَهُمْ لَا كَمَالَ قَدْرَهُمْ، وَقُولُ آخَرٍ:

لَكُنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذُوِيْ عَدْدٍ
لِيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَ³³⁴

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما دل على ذمهم علم أنّ المراد عجزهم وضعفهم أيضاً، وهذا يأتي الإثبات للصفات في كاتب الله مفصلاً والنفي محملاً عكس طريقة أهل الكلام المذموم، فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المحمل، يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة لحم، ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض إلى آخر تلك السلوبي الكثيرة التي تمجها الأسماء وتأنق من ذكرها النفوس والتي تتنافى مع تقدير الله تعالى حق قدره، وهذه السلوبي نقلها أبو الحسن الأشعري رحمه الله عن المعتزلة، وهي لا تخلي من الحق، ولكن فيها من الباطل الشيء الكثير، ويظهر ذلك لمن يعرف أسلوب الكتاب والسنة في هذا الباب. وهو التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي كما تقدم.

ثم إن هذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله سبحانه. فإنك لو قلت لسلطان: أنت لست بزبالي ولا كساح ولا حجام ولا حائلك لأدبك على هذا الوصف وإن كانت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أحملت فقلت: أنت لست مثل أحدٍ من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإن أحملت في النفي أحملت في الأدب. والتعبير على الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة³³⁵.

والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع في الأسماء والصفات ولا يتذمرون معانيها و يجعلون ما يبتدعونه من المعاني والألفاظ هو الحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده.
"المقصود: أن غالباً عقائدتهم السلوبي ليس بكذا، وأما الإثبات فهو قليل، وهو أنه

³³³ سورة الأنعام آية: 103.

³³⁴ ديوان الحماسة.

³³⁵ شرح العقيدة الطحاوية ص: 108-110.

عالٌ، قادرٌ حٰي "اهـ".³³⁶

فلنكتف بهذا المقدار من الصفات السلبية لتأخذ في الحديث في الصفات الثبوتية في الفصل التالي (مستعينين بالله وحده).

بــ الصفات الثبوتية:

إذا علم ما تقدم أن الصفات السلبية هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي، وإنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله كالقدّم الذي ينفي عن الله عدم الأولية والبقاء الذي ينفي عن الله لحق العدم، أي عدم الآخرية، أو التي تقع في سياق النفي، أي بعد أدلة النفي مثل (لا) و (ما) و (ليس) كقوله تعالى: **{لَا تَأْخُذْهُ سِنَةً وَلَا نَوْمٌ}**³³⁷، وقوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**³³⁸، إذا علم ذلك فإن الصفات الثبوتية هي التي تدل على معنى ثبوتي وجودي. ومن الصفات الثبوتية تلك الصفات السبع المعروفة عند الأشاعرة بصفات المعانٍ: كالقدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم والحياة والكلام، وهذه الصفات وأمثالها تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي مع تضمينها سلب أضدادها، فالقدرة مثلاً تدل على معنى وجودي لأنها صفة بها إيجاد المكنات وإعدامها على وفق الإرادة وفي الوقت نفسه تدل على سلب العجز عن الله تعالى ضرورة استحالة اجتماع الضدين عقلاً، وهكذا بقية الصفات الثبوتية، وهذه الصفات محل إجماع بين الصفاتية من أتباع السلف الصالح والأشاعرة وغيرهم من مثبتة الصفات، لذلك لسنا بحاجة إلى سوق الأدلة لإثباتها وهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع بين أهل الإثبات على اختلافهم فيما عداها كما سيأتي قريباً.

جــ صفات الذات:

يقال للصفات الثبوتية: صفات الذات إضافة إلى الذات العلية ملازمتها للذات لأنها لا تتعدد تحدد صفات الأفعال، فهي بهذا الاعتبار ذاتية، ومن حيث دلالتها على معنى ثبوتي وجودي يقال: (ثبوتية، كالعلم والسمع والبصر والعزة والحكمة) وغيرها. وهي

³³⁶ المصدر السابق.

³³⁷ سورة البقرة آية: 255.

³³⁸ سورة الشورى آية: 11.

بهذا الاعتبار تقابل السلبية وقد تقدم الكلام عليها.

ومن الصفات الذاتية صفات شرعية وعقلية مثل الصفات السلبية الخمس المعروفة عند الأشاعرة وصفات المعانى التي تقدم الكلام فيها، ومنها صفات خبرية محضة وهي الصفات التي الأصل في إثباتها الخبر عن الله عز وجل أو عن رسوله المعصوم مثل الوجه واليد والقدم والساقي والأصابع هذه صفات ذاتية ملزمة للذات العليّة وثابتة ثبوت الذات، فإذا هي ثبوتية ذاتية وهي معروفة بالصفات الخبرية، وسيأتي تفصيل الكلام فيها وهي تقابل الصفات الفعلية المتتجدة كما تقابل الصفات السلبية من حيث الدلالة، والله أعلم.

د- صفات الفعل:

أما الصفات الفعلية فقد اختلف أهل العلم في تعريفها، وفي التفريق بينها وبين الصفات الذاتية. وهي من الصفات الثبوتية التي تقدم ذكرها.

قال (ملا علي القاري) الحنفي المتوفى سنة (1001هـ) رحمه الله في شرحه على (الفقه الأكبر) للإمام أبي حنيفة رحمه الله (المتوفى سنة 150هـ).

قال (ملا) في تعريف الصفات الفعلية: "وهي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق"، ثم قال: "اعلم أن الحد بين صفات الذات وصفات الفعل مختلف فيه.

فبعد المعتزلة: ما جرى في النفي والإثبات فهو من صفات³³⁹ الفعل، كما يقال خلق لفلان ولداً، ولم يخلق لفلان، ورزق زيداً مالاً ولم يرزق عمراً.

وما لا يجري فيه النفي فهو من صفات الذات، كالعلم والقدرة، فلا يقال: لم يعلم كذا، ولم يقدر على كذا. والإرادة والكلام من صفات الفعل عند المعتزلة بخلاف غيرهم من أهل السنة والأشاعرة قلت: على تفصيل معروف عند كل طائفة.

وأما عند الأشاعرة فالفرق بينهما أن ما يلزم من نفيه نقشه فهو من صفات الذات، فإنك لو نفيت الحياة يلزم الموت، ولو نفيت القدرة يلزم العجز، وكذا العلم مع الجهل وما

³³⁹ المعروف أن المعتزلة لا يثبتون جميع الصفات بل غلطهم ينفون الصفات والأسماء معاً، هذا هو المعروف عندنا وعند غيرنا - فيما أعلم - وأما ما ذكره (ملا علي القاري) فإنه يفهم منه أن المعتزلة يثبتون الصفات. وهو خلاف المعروف، وإن صح هذا الكلام أو هذا النص فإنه يحمل على أن هذا مذهب طائفة معينة منهم غير مشهورة والله أعلم.

لا يلزم من نفيه نقيه فهو من صفات الفعل. ولو نفيت الإحياء أو الإمامة أو الخلق أو الرزق لم يلزم من نفيه نقيه، كما لا يخفى. فعلى هذا الحد لو نفيت الإرادة لزم منه الجبر والاضطرار، ولو نفيت عنه الكلام لزم منه الخرس والسكوت فثبت أنها من صفات الذات، لا كما تقول المعتزلة كما تقدم، ثم قال القاري: وعندنا – يعني (الماتريديه) – أن كل ما وصف به ولا يجوز أن يوصف بضده فهو من صفات الذات، كالقدرة والعلم والعزّة والعظمة، وكل ما يجوز أن يوصف به وبضده فهو من صفات الفعل كالرأفة والرحمة والسخط والغضب".³⁴⁰ اهـ.

هذه اصطلاحات وقد لا يختلفون في جوهر المسألة...

مناقشة أقوال الثلاثة

عند إمعان النظر في الأقوال الثلاثة في تحديد صفة الفعل وبيان الفرق بينهما وبين صفة الذات، وعند إمعان النظر في تلك الأقوال نجد أن الخلاف لفظي تقريباً، لأن المعتزلة الذين قد يثبتون الأسماء أو أحکامها أحياناً، أو يلزمهم ذلك - يمثلون للصفات الفعلية بالخلق والرزق مثلاً، وكذلك فعلت الأشاعرة أيضاً كما يتفق الفريقيان على أن القدرة والعلم والعزّة مثلاً من صفات الذات.

وكذلك الماتريدية تتفق مع الفريقيين في أمثلة الصفات الذاتية، هذا بالجملة، وأما عند التفصيل فنجد اتفاقاً أحياناً واختلافاً أحياناً، لأنه أقوال ترجع في غالبيتها إلى الاصطلاح والاصطلاحات قد تتفق وقد تختلف، كما هو معروف، ولا يمس ذلك جوهر المسألة كما أسلفنا.

فالقول الإجماع لهذه الأقوال - في فهمنا - أن صفات الأفعال أو الصفات الاختيارية تختلف عن الصفات الذاتية الشبوانية التي تتعلق بها مشيئة الله تعالى لا بأعيانها ولا بأنواعها، كالقدرة والإرادة والعلم والسمع، والبصر والحكمة والعزّة والوجه واليد وغيرها، بل هي صفات تتعلق بها مشيئة الله، وتتجدد حسب المشيئة، كالمحب والبغضاء والغصب والفرح والضحك.

³⁴⁰ شرح الملا على القاري على الفقه الأكبر ص: 20

أما صفة الكلام فهي من صفات الذات باعتبار أصل الصفة، ومن صفات الأفعال باعتبار أنواع الكلام وأفراده، والله أعلم.

هذا ما يدل عليه كلام أهل العلم من أتباع السلف عند التحقيق، وبالله التوفيق.

الفصل الأول: الصفات الشرعية العقلية والصفات الخبرية

تنوع صفات الرب تعالى من حيث ثبوتها إلى نوعين:

النوع الأول:

الصفات الشرعية العقلية، وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي، والفطرة السليمة وهي أكثر صفات الرب تعالى، بل **أغلب الصفات الثبوتية** يشترك فيها الدليلان السمعي والعقلي، وقد تقدم الحديث عنها في غير موضع.

النوع الثاني:

الصفات الخبرية وتسمى النقلية والسمعية، وهي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع، والخبر عن الله، أو عن رسوله الأمين عليه الصلاة والتسليم، أي لا سبيل للعقل على انفراده إلى إثباتها، لولا الأخبار المنقوله عن الله، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، وهي خبرية محضة ييد أن العقل السليم لا يعارض فيها الخبر الصحيح كما هو معروف، وأمثلتها كالآتي:

1- الوجه، 2- اليد، 3- العين، 4- الغضب، 5- الرضا، 6- الفرح، 7- القدم، 8- الاستواء، 9- النزول، 10- المحبة، 11- الضحك.

وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- صفات فعلية تحدد حسب مشيئة الله وهي:

1- النزول، 2- الاستواء على العرش، 3- المحبة لفصل القضاء بين عباده سبحانه يوم القيمة كما يليق به، 4- الغضب، 5- الفرح، 6- الضحك كما يليق بجلاله وعظمته سبحانه، نثبتها كلها ونؤمن بها لورود الخبر، وصحته ولو لا ذلك لأمسكنا عن الكلام في هذه الصفات وغيرها من الصفات والأسماء، لأنها توقيفية، هذا ما نعنيه

بالخبرية ولا يمنع ذلك إثبات الصفات الخبرية بالأدلة العقلية مع الأدلة النقلية التي هي الأصل، وسيأتي ذكر الأدلة بالتفصيل في آخر فقرة من فقرات هذا الباب إن شاء الله.

بـ- صفات ذاتية قائمة بذاته العلية وهي قديمة قِدَمَ الذات مثل الوجه واليد والعين

والقدَمُ:

وهذه الصفات وإن كانت تعد في حق المخلوق جوارح وأعضاء وأبعاضاً وأجزاء ولكنها في حق الله تعالى صفات أثبتتها لنفسه، أو أثبتتها له رسوله عليه الصلاة والسلام، لا نخوض فيها بأهوائنا وآرائنا، بل نفوض كنهها وحقيقةتها إلى الله تعالى لعدم معرفتنا لحقيقة الذات، لأن معرفة حقيقة الصفة متوقفة على معرفة حقيقة الذات كما لا يخفى، بل نثبتها ونؤمن بها دون تحرير أو تعطيل، ودون تكييف وتجسيم وتشبيه. وهكذا يقال في الرحمة والمحبة والرضا، وسائر صفات الرب تعالى.

وهذه الصفات وكثير من صفات الله قد تشتراك مع صفات خلقه في اللفظ وفي المعنى العام المطلق قبل أن تضاف صفات الله إلى الله، وتضاف صفات المخلوق إلى المخلوق، وب مجرد الإضافة تختص صفات الخالق بالخالق، وصفات المخلوق بالمخلوق، صفات الله كما يليق بعظمته وجلاله، وصفات المخلوق كما يليق بحدوده وضعفه ومخلوقيته، ولا يغيب عناناـ ونحن نتحدث عن صفات اللهـ ولا ينبغي أن يغيبـ ما قاله أحد الأئمة الأربع المشهود لهم بالإمامنة، بل هو أحد أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين (وهم الثوري بالعراق، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر، ومالك بالحجاز)³⁴¹، وهو المعروف بإمام دار المحرقة، أجل لا يغيب عناناـ ما قاله هذا الإمام عندما سُئل عن كيفية استواء الله على عرشه، حيث قال السائل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ³⁴² كيف استوى؟ هكذا نص السؤال.

وقد اندهش الإمام مالك من هذه الجرأة، ثم أجاب قائلاً: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وهذا الجواب مشهور عن الإمام مالك،

³⁴¹ هكذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الحموية الكبرى ص: 31 تحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، مطبعة المدني بالعباسية، القاهرة، وتقدم.

³⁴² سورة طه آية: 5

رواه غير واحد من أهل العلم، ويروى عن شيخه (ربيعة) وقبله عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذا الجواب صالح لكل سؤال يوجهه، وهو يبحث عن كيفية صفة من صفات الله تعالى، مثل النزول، والجحىء، والوجه، واليد، وغيرها (وبالله التوفيق).

الفصل الثاني: مبحث التجدد في الصفات والأفعال

قبل أن أقول شيئاً من عند نفسي ومن فهمي أستحسن أن أنقل هنا قطعة قصيرة من كلام الإمام الطحاوي في عقيدة مفسرة بكلام الشارح وموضحة.

قال الإمام الطحاوي في عقيدته المشهورة: "ما زال بصفاته قدِيمًا قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفتة، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليهما أبدياً"، وهذا كلام موجز جداً، ولكنه مليء يحمل في طياته معنى عظيماً وعميقاً.

قال الشارح - وهو يشرح هذا الكلام ويوضحه: أي أن الله سبحانه وتعالى، لم يزل متصفاً بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله اتصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاتة سبحانه صفات كمال، وقدها صفة نقص، فلا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

ثم قال الشارح: ولا يرد على هذه (القاعدة) صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة والقبض، والبسط والطي والاستواء، والإتيان والجحىء والنزول والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقة التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا كما قال الإمام مالك رضي الله عنه ورحمه لما سُئل عن قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**³⁴³ كيف استوى؟ فقال الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". ثم قال الشارح: "وإن كانت هذه الأفعال تتحقق في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده

لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، إلا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لآفة الصغر والخرس ثم تكلم، يقال: حدث له كلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل³⁴⁵ اهـ.

وفي ضوء كلام الإمام الطحاوي: "ما زال بصفاته قدّيماً قبل خلقه" إلى آخره، ثم كلام الشارح الذي أوضح المسألة بما لم يترك مجالاً للتساؤل أو التردد، نستطيع أن نقول: إن صفات الله تعالى ثابتة أولاً وأبداً، ولا تتجدد سواء في ذلك صفات الذات – والأمر فيها واضح – أو صفات الفعل على ما تقدم، وفي ضوء ذلك نقول: إن تحدد صفات الفعل في وقت دون وقت لا يقال فيه: إنه تعالى اتصف بصفة كان فاقدها، أو كانت ممتنعة في حقه، أو فعل فعلاً كان ممتنعاً في حقه، كما يزعم بعض أهل الكلام المذموم، بل الفعل ممكن في حقه تعالى، في كل وقت لأنه لا يجوز أن يعتقد أنه تعالى كان معطلاً عن الفعل في وقت من الأوقات، لأن الفعل كمال، وعدمه نقص³⁴⁶، بمعنى أن الفعل كان ممتنعاً، ثم انقلب من الامتناع الذاتي، إلى الإمكان الذاتي، كما تقول المعتزلة: ومن إذا أراد أن يفعل فعل، ولا مانع له من الفعل، فهو فاعل باشر الفعل، أو لم يباشر على ما تقدم في صفة الكلام، ولعل قوله تعالى: {فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ} ³⁴⁷ يدل على هذا المعنى. وأحسب أن هذا ما يعنيه القائلون باستمرارية أفعال الرب تعالى، وأبديتها، بل وأزيتها، كما يقول ذلكشيخ الإسلام ابن تيمية، وجمهور أهل العلم. وهذا المعنى وارد شرعاً وعقلاً كما ترى، وكيف يسوغ عقلاً أن يعتقد أن الله تعالى كان معطلاً عن الفعل في لحظة من اللحظات، فمن الذي يمكنه ويحول بينه وبين أن يفعل ما يشاء إذا شاء؟!! سبحانه وتعالى عما يزعمه

³⁴⁴ في الصحيحين البخاري ومسلم.

³⁴⁵ شرح الطحاوية ص: 127-128.

³⁴⁶ درء تعارض العقل والنقل للإمام ابن تيمية 2/3-10 تحقيق د. محمد رشاد، بتصرف.

³⁴⁷ سورة البروج آية: 16.

³⁴⁸ لأنه تعالى لم يكن الفعل ممتنعاً في حقه فقط، لأن فعله تعالى إما واقع بالفعل، وحصل أو ممكناً، وهو في قوة الفعل الذي قد وقع، والله أعلم.

المعطلون علوًّا كبيرًا.

وهنا مسألة في غاية الأهمية وهي أن بعض نفاة³⁴⁹ الصفات أو نفاة صفات الفعل قد يتذرع إلى نفي هذه الصفات بقولهم: لا يليق بالله أن نصفه بحلول الحوادث بذاته تعالى، هكذا يحملون القول، فيسلم السني للنافي ذلك على إجماله، ظنًا منه أنه نفى عن الله سبحانه ما لا يليق بجلاله، ثم يحاول النافي أن يلزم السني نفي صفات الفعل، وهو غير لازم له عند التحقيق، ولكن السني أتي من تسليمه هذا النفي المجمل، وهو أنه تعالى لا تحل به الحوادث، فلو استفسر السني واستفصل لما ألزمته. ولذلك لا ينبغي استعمال هذه الألفاظ المحملة لا نفيًا ولا إثباتًا، إلا بعد بيان المعنى المراد.

ومسألة حلول الحوادث بذاته من المسائل، أو من التعبيرات التي أحدها المتكلمون، وخاصوا فيها، وخدعوا بها من لا يفطن لأساليبهم، وهو تعبير لا وجود له لا في الكتاب، ولا في السنة لا نفيًا ولا إثباتًا، وغير معروف عن سلف الأمة، وهذا النفي قد يكون صحيحاً بعد التفسير لأنه إن أريد به بأنه لا يحل بذات الله المقدسة شيء من المخلوقات المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن له من قبل، فهذا النفي صحيح على ما تقدم في معنى التجدد.

وإن أريد بالنفي أن الله تعالى لا يفعل ما يشاء، ولا يتكلم بما شاء، إذا شاء، ولا يفرح ولا يغضب، ولا يرضي كما يليق به في ذلك كله، أي لا يوصف بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله من الصفات التي ذكرناها وغيرها كالاستواء والنزول، والمجيء لفصل القضاء يوم القيمة فهذا النفي باطل. ولا يقال: إن من يثبت هذه الصفات، وما في معناها يقول بحلول الحوادث بالله تعالى، لأن التعبير اصطلاح جديد ابتدعه علماء الكلام بعد نشأة علم الكلام، وانتشاره في صفوف المسلمين المتأخرین (الخلف)، ولا ينبغي أن نجعل هذا الاصطلاح الحديث قاعدة نبني عليها نفي صفات الله التي وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله الأمين، ودرج المسلمين الأولون من الصحابة والتابعين على إثباتها، والإيمان بها دون أن يشذّ فردٌ منهم، والله الحمد والمنة على ذلك.

³⁴⁹ نفاة: وهو كدعاة ورعاة، ورعاة يقال: راع رعاة وناف نفاة، وهكذا. (القاموس المحيط).

وما له صلة بهذه الفقرة مسألة: هل الصفة زائدة على الذات، أو هل هي غير الذات أم لا؟ وهذا أيضاً من الأساليب التي أحدثها علماء الكلام، ولا عهد لعلماء السلف بهذا الأسلوب، بل السلف يكرهون مثل هذه الألفاظ الجملة، رغبة منهم في الوقوف مع النصوص، وعدم الخروج منها في هذه المطالب الإلهية العظيمة.

أما المتأخرون من أتباع السلف الذين اضطروا إلى الخوض مع أهل الكلام للنزود عن العقيدة، وللحفاظ عليها فإنهم قالوا: إن أريد بقولهم بأن الصفة غير الذات أو زائدة على الذات أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها، منفصلة عن الذات، فهذا غير صحيح.

وإن أريد أن الصفات زائدة عن الذات يعني أن للذات معنى غير معنى الصفة ومفهوم ³⁵⁰ الصفات زائد على مفهوم الذات، بيد أنها لا تنفك عن الذات، فهذا صحيح.

ولكن لا ينبغي استخدامه إلا عند الحاجة، ومع التفصيل والبيان وبدون ذلك يعتبر خوضاً لا طائل تحته، والله أعلم.

ومن هذا القبيل مسألة: هل الاسم غير المسمى، أو عين المسمى إذ قد يراد بالاسم المسمى نفسه، كأن يقال: الله مجتب الدعوات، الله لطيف بعباده، وقد يطلق الاسم مراداً به اللفظ المنطوق ذاته، كأن يقال: الله أكبر من ألفاظ الأذان أو الله أكبر كلمة يدخل بها في الصلاة مثلاً. وقد تقدم هذا البحث عند الكلام على الأسماء الحسني في الباب الأول فليراجع.

وعلى كل حال، إن هذا النوع من الخوض قد يضطر إليه الإنسان المعاصر وهو كاره على حد قولهم: (مكره أخاك لا بطل).

وبعد أن استعرضنا أنواع الصفات المصطلح عليها عند السلف والخلف ³⁵¹ وأدركتنا أثناء الاستعراض أن هناك صفات مجمعاً على إثباتها عند جميع الصفاتية سلفاً وخلفاً، وهناك صفات يختلفون فيها، حيث يرى السلف إثباتها، وإمارتها كما جاءت، شأنها عندهم شأن الصفات الأخرى المثبتة بإجماع الطرفين، بينما يرى الخلف وجوب تأويتها،

³⁵⁰ استقينا هذه المعلومات (بالمعنى) من بعض كتب شيخ الإسلام.

³⁵¹ وإذا أطلقنا لفظة (الخلف) فإنما نعني بهم غير السلف، وهم علماء الكلام المعروفون بالتأويل. وهذا يشمل المعتزلة والأشاعرة كما سيأتي في ص 298 وقد نريد بهم الأشاعرة، كما في مثل هذا الموضع وقد يطلق عليهم المثبتة أو الصفاتية كما تراه في هذه الصفحة.

والخروج بها من ظاهرها.

ففيما يلي نخص هذا النوع بالحديث لنحاول أن نعرف المعنى العام لكل صفة من تلك الصفات عند السلف مع تقويض كنهها وحقيقةها إلى الله سبحانه على منهجهم الواضح الذي سبق أن أوضناه، ولنرى تكليف الخلف بالتأويل الذي هو تحريف الكلم عن موضعه تحت العنوان الآتي.

الفصل الثالث: معاني الصفات الخبرية

نتحدث عن معاني هذه الصفات على الوجه التالي:

1- الاستواء، 2- النزول، 3- الرحمة، 4- المحبة، 5- الغضب، 6- اليد، 7- الفرح، 8- الرضا، 9- الضحك، 10- الوجه، 11- القدم، 12- الكلام، 13- الحجيء، 14- إثبات النفس له تعالى، 15- إثبات الرؤوية لأهل الجنة

وغيرها من صفات الأفعال والصفات الخبرية التي سيأتي تفصيلها قريباً إن شاء الله.

القاعدة العامة عند السلف في هذا الباب:

أما السلف فلدقق فقههم في هذا الباب خاصة وفي الأبواب الأخرى عامة في الأصول والفروع، فقد سلّموا لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، فيرون بأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، كما لا يصفه من خلقه أعلم به سبحانه من رسوله، فوقفوا مع نصوص الكتاب والسنة دون محاولة لتجاوزها فلم يخوضوا فيها بالتحريف بدعوى أن ظاهرها غير مراد، بل أمروا النصوص كما جاءت، كتفين بفهم المعنى العام الذي يدل عليه اللفظ بالوضع دون تعمق أو تفلسف، أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله الأمين، عليه الصلاة والسلام، دون أن يصل بهم هذا الإثبات إلى حد التشبيه والتجسيم، بل سلكوا طريقاً وسطاً بين التعطيل والتشبيه والتجسيم، وهو طريق السلام كما ترى، وكما سيتضمن عندما نأخذ في التفصيل إن شاء الله.

وسر المسألة أن معرفة حقيقة الصفة وكيفيتها تابعة لمعرفة حقيقة الموصوف وكيفيته، فإذا كان إيمان العباد بالله إيمان إثبات وتسليم دون محاولة لمعرفة حقيقة ذاته سبحانه فيلزم أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك إيمان إثبات وتسليم لله، ولرسوله صلى الله عليه وسلم،

ولا يسلم إيمان المرء إلا بهذا التسلیم وحده، ذلك لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحذو حذوه، ولا فرق عندهم بين هذه الصفات الخبرية التي تتحدث عنها وبين الصفات الأخرى من صفات المعانی والمعنوية والسلبية التي تقدمت، وتقدم الحديث عنها في غير موضع من الرسالة إذ كلها تبقى على ظاهرها، الظاهر الذي يليق بالله تعالى، ولا يفهم من النصوص إلا ذلك الظاهر اللائق، بل لا يجوز أن يعتقد أن النصوص قد تدل بظاهرها على مالا يليق بالله، لما في ذلك من إساءة أدب، بل إساءة ظن بالله الذي أنزل تلك النصوص، وأوحى بها إلى رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام. وهل يجوز أن يعتقد أن الله ينزل آيات، ويوحى إلى نبيه بأحاديث ظاهرها ضلال أو كفر؟ ثم إن الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام لا يبين المعانی الصحيحة الحقة لأصحابه؟! فلازم ذلك أن الصحابة لم يفهّموا هذه النصوص على حقيقتها، فكيف يفهمون لأن الرسول لم يبين لهم تلك الحقيقة التي فهمها الخلف فيما بعد، وليت شعري من أين فهموها؟!!

وقصارى القول: أن صفة الاستواء وما ذُكر بعدها في الصفحة السابقة من الصفات تبقى على ظاهرها كما يليق بالله تعالى، هذا هو موقف السلف بالاختصار.

ثانياً: موقف الخلف في الجملة:

أما الخلف: فمرادنا بهم علماء الكلام على اختلاف مناهجهم ومشاربهم، فإنهم قد تكفلوا جميعاً، فخاضوا - وهم في غنى عن الخوض، لو وُفقوا - وقد ذهبوا في تكاليفهم ذلك مذاهب مختلفة ومتعددة، منهم من يقول صفات الأفعال، وبعض الصفات الخبرية، وهم الأشاعرة مع إثابتهم كثيراً من الصفات الذاتية، كما سيأتي تفصيل ذلك، ومنهم من ينفي هذه الصفات نفياً دون اكتراث، أو التفات إلى النصوص الصحيحة الصريرة من الكتاب والسنة التي نطقت بهذه الصفات بأساليب متنوعة بدعوى أنها أدلة لفظية لا تفي بالعلم واليقين، وهي مع ذلك مخالفة للدليل العقلي القطعي الذي يدل على أن إثبات هذه الصفات يؤدي إلى أحد مستحيلين:

1- إما تعدد القدماء إن قلنا: إن هذه الصفات قديمة قدم الذات، لأن ذلك يتنافى مع التوحيد، هكذا زعموا لأن حقيقة التوحيد عندهم نفي الصفات وإثبات ذات مجردة

ذهبية، لا وجود لها في الخارج.

2- أو حلول الحوادث بذاته تعالى، إن قلنا: إنها حادثة، وذلك محال على الله، لأنه يؤدي إلى القول بأن الله محل للحوادث. وما أدى إلى الحال فهو محال. فإذا ثبتها إذًا محال. هكذا زعموا !!.

هذا موقف الجهمية والمعتزلة، وبهذه الشرارة التي زعموها أدلة قطعية نفوا جميع صفات الكمال - وصفات الله كلها كمال - ولم يثبتوا له أي صفة حتى أصبح وجود الله عندهم، وفي زعمهم وجوداً ذهنياً، إذ لا يتصور في الخارج موجود مجرد عن الصفات. وإنما يفرضه الذهن فرضاً كما يفرض أو يتخيل أي محال.

وهذه التبيحة الحتمية التي لا بد منها لكل من أعرض عن كتاب الله، وهدي نبيه واتبع هواه.

مناقشة الأشاعرة بالأدلة العقلية:

ومن وصل إلى هذا المستوى من الإعراض، قلماً تجدي معه المناقشة، فلتترك المعتزلة إذاً لنعود لمناقشة الأشاعرة لقربهم من الصواب نوعاً ما، وعلى الرغم مما نقوله، ويقوله غيرنا من أن الأشاعرة يعدون من المثبتة، أو من الصفاتية، لإثباتهم كثيراً من الصفات الذاتية التي يسمونها - في اصطلاحهم - صفات المعانى وغيرها. على الرغم من هذا النوع من الإثبات، فإنهم وافقوا المعتزلة في تأويل الصفات الخبرية³⁵²، ذاتية أو فعلية فبذلك وقعوا في تناقض لم يقع فيه أحد لا من المثبتة ولا من النفاة، لأنهم فرقوا بين ما جمع الله في كتابه، أو فيما أوحاه إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، فترابطهم يثبتون السمع والبصر مثلاً، ولا يخطر ببالهم شيء من لوازم سمع وبصر المخلوقين، بل يزعمون أنهم يثبتون هذه الصفات على ما يليق بالله، فما هو المانع العقلي إذاً من إثبات الوجه، واليدين، وغيرهما مما أوجبوا التأويل فيه من الصفات على ما يليق بالله؟! فما المانع أن ثبت لله وجهًا يليق به، واستواء يليق به دون التفات إلى لوازم وجه المخلوق، وبجيء المخلوق، واستواه؟! وما الذي

³⁵² تأوياً يفضي إلى نفي الصفة بحيث لا يثبت إلا لازم الصفة - كقولهم: المراد بالرحمة الإنعام مثلاً، والإنعم ليس هو الصفة، وإنما هو لازم الصفة، وهكذا في جميع الصفات الخبرية والفعلية.

يمنعهم أن يثبتوا جميع الصفات الثابتة بالأدلة النقلية دون أن يفرقوا بينها؟!! في ضوء قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، والآية جمعت بين التنزيه والإثبات كما ترى ومعها آيات أخرى كثيرة في هذا المعنى، هل لعدم الثقة في كلام الله، وكلام رسوله مع الثقة الكاملة فيما يقوله الشيوخ؟!! فادعوا وجوب تأويل قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي}، وقوله تعالى: {وَيَقِنَى وَجْهُ رَبِّكَ} وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}، وغيرها من نصوص الصفات مع عدم وجوب تأويل قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وغيرها من النصوص التي بينت نوعاً خاصاً من الصفات، وهي صفات المعاني والصفات المعنوية على الاصطلاح الخاص بهم، وكذلك الصفات السلبية على تفسيرهم.

إن هذه الدعوى، وهذا التصرف الأشعري أو الكلابي على الأصح - إنما هو تصرف يستند إلى مجرد التقليد، لا يستند إلى دليل نceği، أو عقلي مقبول لدى غيرهم من العقلاة، بل الذي ثبت بالتجربة والدراسة أن اللاحق منهم يرث هذا المنهج من السابق. فما وجده في كتاب من سبقه، أو سمعه من شيوخه هو المذهب الصحيح وهو الدين وهو العقيدة دون تفكير في الدليل، ومن جهة أخرى، إن ما نفاه الشيوخ هو المنفي، ولو دلت عليه آية صريحة أو سنة صحيحة.

والشيخ لا يسئل ولا يناقش فيما أثبته أو نفاه، بدعوى أن المناقشة غير جائزه في مثل هذه الموضوعات، والأسلوب التقليدي المتبعة هو (هكذا نقلنا عن مشائخنا، وهم أعلم منا)!!

وبعد، فإن الأسلوب الذي أشرنا إليه هو الأسلوب الذي كان متبعاً، وملتزماً لدى مشائخنا الذين درسنا عليهم العقيدة الأشعرية، وإنما نوّهت به، أو روّيته لأثبت بالعيان، لا بالإخبار، أن العقيدة الأشعرية كثيراً ما تعتمد على التقليد³⁵³ الوراثي كما أسلفنا، وهذا هو سر تناقضهم بالتفريق بين الصفات كما تقدمت الإشارة إلى الأمثلة، والذي يقتضيه

³⁵³ زد على ذلك تأثر متأخر الأشاعرة بفكر المعتزلة، وآراء الفلاسفة كما يلاحظ ذلك لدى الرازى والأمدى وأمثالهما ممن وقعوا في التفريق بين الصفات دون مبرر.

المنطق السليم إما أن يثبتوا جميع الصفات الثابتة بالكتاب والسنّة، دون تفريق بين صفة وصفة، وهو المنهج السلفي الذي عليه علماء الحديث والسنّة قديماً وحديثاً، وهو الذي يساير العقل والنقل كما علمنا ما تقدم، وفيه السلامه والعافية من القول على الله بغير علم، وهو موقف خطير جداً كما لا يخفى.

وإما أن ينفوا جميع الصفات دون تفريق بين الذاتية والفعالية فيقفوا مع المعتزلة صفاً واحداً، ليتجه المصلحون السلفيون اتجاهًا واحدًا ويواجهوا جبهة واحدة تنفي جميع الصفات ولا تؤمن إلا بالوجود الذهني هذا هو المفترض، ولكن الواقع خلاف هذا المفترض كما رأيت.

خلاصة مواقفهم من معانٍ تلك النصوص:

1- هناك خلف يتناقض، فيثبت بعض الصفات مع اعتقاد وجوب تأويل بعض الصفات، والخروج بها ن ظاهرها، مع وجوب اعتقاد أن ظواهر تلك النصوص غير مراده، فالتفويض محتم إذاً، ومعناه الإعراض عن تدبر النصوص، وفهم معانيها.

وكل نص أوهم التشبيها
أوّله أو فوّض ورم تنزيها

هكذا زعموا! {أَلَّا تُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} !!³⁵⁴

2- هناك خلف ذهب بعيداً عن النصوص، ولم يلتفتوا إلى الأدلة النقلية، فلم يثبتوا الله شيئاً من الصفات، لا الذاتية ولا الفعلية، بل وصفوا الله بسلوب كثيرة نقل كثيراً منها الإمام أبو الحسن الأشعري الذي عاش بينهم أربعين عاماً، ثم تاب الله عليه فتاب في آخر حياته، فنقل كثيراً من السلوب التي استخدمته الجهمية وهم غلاة المعتزلة التي تدل على أن القوم ليس لديهم مسكة من تقدير الله وتعظيمه تعالى، إذ يصرحون بعدم صلاحية النصوص في هذا الباب، فيعمدون إلى الإجمال في الإثبات، والتفصيل في النفي عكس طريقة القرآن إذ يقولون مثلاً: ليس بجسم، ولا عرض، ولا ذي برودة، ولا ذي حرارة، ولا لون، ولا طعم، ولا جثة، ولا دم... الخ.

أين هذا من أسلوب القرآن، الذي يحمل النفي في مثل قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ}

³⁵⁴ سورة البقرة آية: 140.

شَيْءٌ} ³⁵⁵، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} ³⁵⁶، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} ³⁵⁷، {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ
وَلَا نَوْمٌ} ³⁵⁸، ويفصل في الإثبات: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ³⁵⁹، {الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}،
{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ³⁶⁰، {ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} ³⁶¹، {غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدٍ
الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ} ³⁶².

بين يدي الصفات المختارة

فكمالات الله تعالى لا تدخل تحت حصر أو عدّ. صفات الله العلي وأسماؤه الحسنى لا تختصى، ولكننا سوف نختار من صفات الله الكثيرة تسع عشرة صفة لشخصها بالحديث. وبيان موقف السلف والخلف من معانيها بإيجاز، ثم نتبعها بالحديث عن رؤية المؤمنين بهم في الآخرة فتصبح الصفات التي نتناولها بالحديث عشرين صفة، وسر اختيارنا إليها من بين الصفات الأخرى واهتمامنا بها دون غيرها، هو ما نعلمه من الخلاف الحادّ، والنّزاع المزن من بين السلف والخلف في معانى هذه الصفات المختارة بصورة لم تقع في أي صفة أخرى من صفات ربنا تعالى، إذ أجمع الخلف معتزلهم وأشعريهم على نفي هذه الصفات، أو تحريف نصوصها باسم التأويل، فصارت النتيجة استحالة هذه الصفات على الله في زعمهم وعدم جواز إثباتها الله تعالى بدعوى أنها لا تليق بالله، على تفصيل معروف في موضعه.

هذا الموقف هو الذي حملنا على اختيار هذه الصفات لتكون موضوع حديثنا الرئيسي في هذه الرسالة، وهي زبدة الرسالة المقصودة بالذات.
وأما الصفات التي يثبتها جميع الصفاتية من السلفيين، والأشاعرة، فسوف نمسك عن التوسيع فيها لعدم الحاجة الملحة التي تدعو للخوض فيها.

³⁵⁵ سورة الشورى آية: 11.
³⁵⁶ سورة الإخلاص آية: 4.
³⁵⁷ سورة مريم آية: 65.
³⁵⁸ سورة البقرة آية: 255.
³⁵⁹ سورة الشورى آية: 11.
³⁶⁰ سورة الحج آية: 62.
³⁶¹ سورة البقرة آية: 129.
³⁶² سورة البقرة آية: 105.
³⁶³ سورة غافر آية: 3.

الفصل الرابع: معاني تلك الصفات بالتفصيل

أ- الصفات الفعلية:

الصفة الأولى: صفة استواء الله عز وجل على العرش وعلوه على خلقه:

وقد ورد ذكر هذه الصفة في القرآن الكريم في عديد من الآيات القرآنية، وأما بصيغة

(استوى) فقد ذكرت هذه الصفة في سبع آيات على النحو التالي على ترتيب السور:

1- آية سورة الأعراف: وهي قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} (آية: 53).

2- آية سورة يونس: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} (آية: 3).

3- آية سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} (آية: 2).

4- آية سورة طه: {طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى

تَنْزِيلًا مَمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (آية 1-5).

5- آية سورة الفرقان: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى

بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} (آية 58-59).

6- آية سورة السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ

الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} (آية 4-5).

7- آية سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا

يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعْكُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ} (آية: 4).

هذه الآيات الكريمة، وفي معناها عدة نصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة التي يأتي ذكرها إن شاء الله، كلها تدل على علو الله تعالى على خلقه، كما يليق به، وأما هذه الآيات السبع فتنص على أن الله تعالى استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض استواء يليق به، ولا نعلم منه إلا المعنى العام المفهوم من الوضع، إذاً هنا صفتان:

1 - صفة استواء على العرش: وهي صفة فعلية خبرية كما دلت عليه الآيات السابقة.

2 - صفة العلو: وهي صفة ذاتية لازمة للذات بمعنى أنه تعالى لم ينزل في علوه، وهي في الوقت نفسه عقلية وسمعية أي فهي ثابتة بالعقل والفطرة، والسمع، بل السمع جاء مؤكداً بما آمن به العباد بفطرهم، وبعقوتهم من أن الله يدعى من فوق، وترفع إليه أكف الضراعة، وقلوب العباد مشدودة إلى فوق، ولو في حال وضعهم جباههم على الأرض ساجدين لربهم الأعلى الذي يراهم من فوقهم، ويحيي دعوهم، وهم ساجدون له سبحانه. وهذا الاعتقاد ضروري لا يستطيع أي إنسان دفعه عن نفسه، ومن الحكم اللطيفة أن شرع الله لعباده أن يقولوا في سجودهم: "سبحان رب الأعلى" شرع لهم ذلك على لسان نبيه، وفي هدي رسوله إشارة إلى علوه الدائم، حتى لا يفهم من سجود العبد على الأرض أن معبوده في أسفل منه - حاشاه - بل كلما يزداد العبد خضوعاً وتذلاً، لمعبوده العلي العظيم ازداد منه قرباً معنوياً ومعية خاصة، تخص خواص عباده المؤمنين، وفي هذا يقول رسول المهدى، ونبي الرحمة محمد عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد فأكثروا الدعاء"³⁶⁴.

ومن الآيات التي تدل على علو الله على خلقه، علاوة على الآيات السبع التي ذكرناها والتي تنص على استواء الله على عرشه كما يليق به، قوله تعالى:

{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}³⁶⁵، وقد جاءت الفوقيـة في هذه الآية مقرونة بحرف (من) وهي معيـنة للفوقيـة (بالذات)³⁶⁶، وهو معنى معروـف عند أهل اللغة، بخلاف قوله

³⁶⁴ صحيح مسلم، باب ما يقال في الركوع والسجود 200/4.

³⁶⁵ سورة النحل آية: 50.

³⁶⁶ راجع شرح العقيدة الطحاوية.

تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} ³⁶⁷، وهي محتملة كما لا يخفي.

1- قوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} ³⁶⁸.

2- {بَلْ رَفِيعُ اللَّهِ إِلَيْهِ} ³⁶⁹.

3- {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} ³⁷⁰.

4- {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} ³⁷¹.

5- {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} ³⁷².

وبعد، فهذه طائفة من آيات الكتاب المبين وفي معناها آيات أخرى عديدة اقتصرنا على هذا المقدار خشية الإطالة، وكلها تدل دلالة واضحة على علو الله على خلقه، وأنه مستو على عرشه كما يليق به.

ونضيف إليها بعض الأحاديث الواردة في هذا المعنى، ونقتصر على ما صح منها فقط، وفيها الكفاية مع الآيات السابقة للدلالة على المقصود، وهي كالتالي:

1- قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ لَمَا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عَنْهُ فَوْقُ الْعَرْشِ، إِنْ رَحْمَتِي سَبَقْتُ غَضْبِي" ، وفي رواية: "غَلَبْتُ غَضْبِي" ³⁷³.

2- قول أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وهي تعز وتفتخر على أمهات المؤمنين زوجات النبي رضي الله عنهم إذ تقول: "زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات" ³⁷⁴.

يُستدل بقول أم المؤمنين زينب رضي الله عنها لأنها قالت ذلك اعتقاداً منها بأن الله فوق خلقه – وهو اعتقاد كل صاحب فطرة سليمة – وليس هو في كل مكان، كما تزعم بعض الجهمية وأتباعهم، وقد كان ذلك في زمن نزول الوحي فهو إذاً اعتقاد فطري أثبته الشرع، والله الحمد والمنة.

³⁶⁷ سورة الأنعام آية: 18، 61.

³⁶⁸ سورة المعارج آية: 4.

³⁶⁹ سورة النساء آية: 158.

³⁷⁰ سورة آل عمران آية: 55.

³⁷¹ سورة فاطر آية: 10.

³⁷² سورة الملك آية: 16.

³⁷³ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

³⁷⁴ البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك في التوحيد.

وهو أخيراً يصور لنا فقه السلف في هذا الباب، وهم يفهمون معانى النصوص على ظواهرها مع التنزيه بمعناه الصحيح، وهو إثبات لا يتضمن التشبيه.

3- قوله عليه الصلاة والسلام عند تفسير قوله تعالى: **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ}**³⁷⁵ ، "أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعده شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء".³⁷⁶

وقد قال أهل العلم: المراد بالظهور عنا العلو، ومنه قوله تعالى: **{فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ}**³⁷⁷ ، أي: يعلوه، و قالوا: فهذه الأسماء الأربع متقابلة: اسمان منهما لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه)³⁷⁸ اهـ.

فهو سبحانه قريب في علوه كما يليق به، وعلى في قربه.

3- قوله عليه الصلاة والسلام: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيقصد الذين باتوا فيكم فيسألهم"³⁷⁹ الحديث.

5- قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدِيهِ أَنْ يَرْدِهَا صُفْرًا".³⁸⁰

6- إشارته عليه الصلاة والسلام إليه تعالى بأصبعه في حجة الوداع - وهو أعلم بربه سبحانه - وفي ذلك اليوم العظيم وفي المكان المقدس العظيم يرفع النبي عليه الصلاة والسلام إصبعه الكريمة إلى السماء يرفعها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: "اللهم اشهد"، ونحن نشهد أنه عليه الصلاة والسلام بلغ البلاغ المبين، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعرفهم برهم الأعلى.³⁸¹

وهذه مقتطفات من حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي شرح فيه حجة الوداع شرعاً كاملاً ووافياً، رواه مسلم وبعض أصحاب السنن.

³⁷⁵ سورة الحديد آية: 3.

³⁷⁶ مسلم في التفسير.

³⁷⁷ سورة الكهف آية: 97.

³⁷⁸ راجع شرح العقيدة الطحاوية ص: 316.

³⁷⁹ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

³⁸⁰ صحيح أخرجه الحاكم، وصفراً أي: خالية، كناية عن إجابة الدعاء.

³⁸¹ راجع شرح العقيدة الطحاوية ص: 321 منقول مع التصرف.

وقد خاطب النبي أصحابه في هذه الخطبة المشار إليها قائلاً: "إنكم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحـت" أعظمـها من شهادة لأعْظَمـ مشهود له.

وبعد: فلا يخفى خطأ قول الذي قول: لا تجوز الإشارة الحسية إلى السماء، بل ربما قال: إن من اعتقاد أن الله في السماء كفر، وإلا فهو فاسق³⁸².

وما أشد خطأ قول الذين يزعمون أن الذي يشير بإصبعه إلى السماء عند قراءة قوله: {إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ}، أو قوله تعالى: {أَمَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} تقطع أصبعه، وربما نسبوا هذا القول إلى بعض الأئمة؟!! كالأمام مالك والإمام أحمد رحمهما الله، والنسبة غير صحيحة، بل نسبة باطلة وغير لائقة³⁸³.

وحدث جابر الذي تقدم فيه التصريح بأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى السماء إشارة حسية، وهو يقول لربه سبحانه الذي يشير إليه: "اللهم اشهد"، وهو يرد هذا الرعم، والحدث مخرج في صحيح مسلم كما تقدم، ومتلقي بالقبول فكيف يعتذر لهؤلاء إذا؟!!

في نظرة خير ما يعتذر به لأمثال هؤلاء هو الجهل، وعدم الاطلاع على السنة، ثم التقليد المتواتر الذي تحدثنا عنه فيما تقدم وقررنا أنه هو المستند الوحيد للأشاعرة الجدد.

7- حديث الإسراء والمعراج وفيه عدة نقاط تدل على المقصود:

أ- مجرد العروج إلى فوق السماء السابعة بل إلى حيث سمع صريف الأقلام، أقلام الملائكة الذي يكتبون ما يكتبون بأمر الله وإلى حيث سمع كلام الله وهو سبحانه يخاطبه في شأن الصلاة.

ب- ترددـه عليه الصلاة والسلام بين موسى وبين ربه سبحانه في طلب تخفيف الصلاة عن أمته.

جـ- ما جاء في الحديث: ثم رجـع إلى المكان الذي كان فيه. أي حيث كلمـه ربه،

³⁸² راجـع حاشية الدسوقي على السنوسية في مبحث العلو.

³⁸³ راجـع الملل والنحل للشهرستاني.

وفرض عليه الصلاة، وغير ذلك من النقاط في روایات الحديث المذکور في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما.

8- سؤال الجارية بلفظ (أين الله؟) في حديث صحيح عند مسلم، وهي قصة معروفة لجارية معاوية بن الحكم السلمي حيث قال النبي للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: اعتقدتها فإنها مؤمنة.

ولقد ذكرني هذا السؤال النبوى الكريم والرحيم أيضاً عبارة تقليدية كنت درستها وأنا طالب صغير لم أبلغ الحلم، كنت درستها في ضمن ما درسته في بعض كتب الأشعرية وهي: لا يسئل عن الله بالألفاظ الآتية:

1- أين، 2- وكيف، 3- ومتى، 4- وكم

كان من مشائخنا لا يسمحون لنا بشرح هذه الألفاظ، والسؤال عن الجواب لو سئل الإنسان عنها، ويقولون: هكذا تؤخذ، ولا تناقش لأن النقاش في هذه المواضيع غير جائز.

وقد كان المفروض بل الواجب أن يكون طالب العلم على شيء من المعرفة ليتولى الإجابة على كل سؤال إذ لا بد أن يكون لكل سؤال جواب، فمثلاً لو سئل الإنسان: (أين الله؟) فهو لفظ سُأله رسول الله الجارية التي يريد مولاها عتقها، إن كانت مؤمنة، وهو لا يعلم هل هي مؤمنة أم لا، ولما عرض عتقها على رسول الله عليه الصلاة والسلام طلبها الرسول فوجه لها سؤالين فقط، اختباراً لإيمانها.

السؤال الأول: "أين الله؟" الجواب: في السماء.

السؤال الثاني: "من أنا؟" الجواب: أنت رسول الله.

النتيجة: "اعتقدتها فإنها مؤمنة"، أي باقية على إيمانها الفطري الذي لم تلوثه الآراء الفاسدة، فليحذر الذين يحرمون استخدام هذه اللفظة في حق الله جهلاً منهم بأن الرسول استخدمها كما رأيت.

- نعم لو سئل الإنسان أين الله؟ الجواب: في السماء.

ولو سئل: (كيف الله؟) الجواب: لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه إذ لا يحيطون به علمًا.

ولو سئل: (مَنْ أَنْشَأَ الْجَهَنَّمَ؟) الجواب: هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء.

ولو سئل: (مَنْ أَنْشَأَ الْجَهَنَّمَ؟) الجواب: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}**.

هكذا يجب أن يُعد العدة كل طالب علم، ويستحضر الأجبوبة على كل سؤال مقدر وخصوصاً في هذا الزمن، زمن الكلام الكثير والعلم القليل، بصرف النظر هل هذه الأسئلة واردة، أو غير واردة أو هل هي مستساغة، أم لا؟

9- قوله عليه الصلاة والسلام: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض
يرحمكم من في السماء"³⁸⁴.

10- قوله عليه الصلاة والسلام: "أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ؟" يأتيني خبر
السماء صباحاً ومساء³⁸⁵.

الآثار المروية عن التابعين وتابعبي التابعين في مسألة العلو:

1- عن كعب الأحبار قال: "قال الله عز وجل في التوراة: أنا الله فوق عبادي،
وعرشي فوق جميع خلقني، وأنا على عرشي أدب أمر عبادي، لا يخفى على شيء في
السماء، ولا في الأرض".³⁸⁶

2- عن مسروق أنه كان إذا حدث عن عائشة قال: "حدثتني الصديقة بنت الصديق
حبيبة حبيب الله المرأة من فوق سبع سموات".³⁸⁷

3- أثر مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى: **{مَا يَكُونُ مِنْ تَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا
هُوَ رَابِعُهُمْ}** قال: "هو على عرشه وعلمه معهم"، وفي لفظ: "هو فوق العرش وعلمه
معهم"، وفي لفظ: "هو فوق العرش وعلمه معهم أينما كانوا".³⁸⁸

³⁸⁴ أبو داود والترمذى وصححه وغيره، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال المحدث الألبانى فى تعليقه على العلو: "وهو صحيح لغيره" (العلو للذهبي بتحقيق الألبانى ص: 84-83).

³⁸⁵ متفق عليه.
³⁸⁶ مختصر العلو للذهبي ص: 128، بتحقيق المحدث الألبانى، قال الذهبى: رواه ثقات، وذكر الألبانى ما يؤيد ذلك مدعماً كلامه بما رواه ابن القيم عن أبي الشيخ وابن بطة.

³⁸⁷ المصدر السابق، وإسناده صحيح.
³⁸⁸ المصادر السابقة وابن بطة... هو أبو عبد الله. رواه أيضاً أبو عمر بن عبد البر وأبو أحمد العسال. قال الذهبى: مقاتل ثقة إمام، يراجع العلو بتحقيق الألبانى ص: 131-128.

4- أثر عبد الرحمن بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده قال: "شهد خالد بن عبد الله القسري - وخطبهم بواسط - فقال: يا أيها الناس صحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه".
وهذه القصة ذكرها غير واحد من أهل العلم، وهي مشهورة، ذكرها البخاري في خلق أفعال العباد، والدارمي في الرد على الجهمية وإن كان في سندتها كلام لبعض أهل العلم.

5- روى أبو عبد الله الحاكم عن الأوزاعي قال: "كنا - والتابعون متوافرون- نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاتة"³⁸⁹.
6- روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية: حدثني أبي (ذكر سنته) عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس: "الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء"³⁹⁰.

7- قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي والليث بن سعد ومالكاً والثورى عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية وغير ذلك؟ فقالوا: "امضها بلا كيف"³⁹¹، وفي لفظ: "أمروها كما جاءت بلا كيف"، وقولهم: "أمروها كما جاءت" يرد على المعطلة. وقولهم: "بلا كيف" يرد قول المشبهة³⁹².

وبعد هذه أنواع الأدلة الثلاثة التي صنفناها على الوجه التالي:

1- آيات من الكتاب المبين اختربنا منها نحو ثلث عشرة آية.
2- أحاديث صحاح انتخبنا منها عشرة أحاديث.
3- آثار وكلام أهل العلم من التابعين وتابعיהם، اقتصرنا منها على سبعة آثار على كثرتها، رغبة في الإيجاز.

ولعل قائلاً يقول: ما هو الموجب لذكر الآثار بعد الاستدلال بالأيات القرآنية

³⁸⁹ الذهبى فى العلو ص: 130-129، تحقيق المحدث الألبانى، وابن تيمية فى الحموية الكبرى، وتقىدم.

³⁹⁰ المصدر السابق.

³⁹¹ المصدر السابق.

³⁹² الذهبى فى العلو، وابن تيمية فى الحموية الكبرى وتقىدم.

والأحاديث النبوية؟!!

الجواب: ذكر الآثار بعد النصوص يفيد أمرين مهمين:

الأمر الأول: يفيد أن النصوص المذكورة لم تنسخ، بل هي محكمة باقية كما جاءت إذ تعتبر هذه الآثار تفسيراً وبياناً للنصوص.

الأمر الثاني: تحديد مفهوم السلف، وأنهم كانوا يفهمون من هذه النصوص كتاباً وسنة ما تدل عليه بوضعها وبظاهرها باقية على حقيقتها، ولم يؤولوها ويخرجنها عن ظاهرها كما يزعم الخلف، والله أعلم.

أعود فأقول: إن هذه الأنواع الثلاثة من الأدلة قليل من كثير من الأدلة الدالة على علو الله تعالى على خلقه، واستواه على عرشه على ما يليق به تعالى.

إذاً إن صفة العلو أو الفوقيّة صفة كمال ثابتة بوابل من أدلة الكتاب والسنّة ودرج على إثباتها على ظاهرها جميع الصحابة والتابعين وتابعיהם بإحسان، وليس فيها نقص ولا تستلزم نقصاً ولا توجب محدودراً، ولا تخالف كتاباً ولا سنة، بل توافقهما كما رأيت، وقد عقد عليها إجماع المسلمين الأوّلين كما علمت، وهم القوم الذين يحتاج بإجماعهم، لأنهم خير هذه الأمة "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِيٌّ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَهُمْ"³⁹³، وإذا كان الأمر كذلك فما هي شبهة الأشاعرة والحالة ما ذكر؟!!

خلاصة شبهتهم انهم تصورو - خطأ - أن النصوص التي نطقـت بأن الله في السماء تدل بظاهرها على أنه تعالى مظروف في جوف السماء فشبهـوه بمخلوق داـخل مخلوق آخر، كما فهمـوا - خطأ - أيضاً من قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ³⁹⁴، وما في معناه من النصوص أنه تعالى جالـس على العرش، وأنه محتاجـ إليه، فـشبهـوه بـإنسـان جالـس على سـريرـه، محتاجـاً إـلـيـهـ، فأرادـوا أن يـفـرـوا من هـذا التـشـبـيهـ الـذـيـ وـقـعواـ فـيـ لـسـوءـ فـهـمـهمـ، فـوـقـعواـ فـيـ التـعـطـيلـ.

وأما النصوص فلا تدل على ما لا يليق بالله دائمـاً - وحـاشـاهـاـ - فـأـمـرـهـمـ يـتـرـددـ إذـاـ

³⁹³ متفق عليه وتقـدمـ.

³⁹⁴ سورة طه آية: 5.

بين التشبيه والتعطيل. ولو وقفوا حيث وقف السلف من قبلهم، وهو الموقف الذي اختاره الإمام أبي الحسن الأشعري في آخر أطواره، نعم لو وقفوا حيث وقف القوم، فسلموا لله ولرسوله، لما وقعا فيما وقعوا فيه من الاضطراب في العقيدة، وعدم اليقين فيما يعتقدون نحو ربهم وحالقهم. وعدم اليقين فيما يعتقد العبد نحو ربه أمر له خطورته في أي جزئية فيما يجب إثباته لله عز وجل أو نفيه عنه.

ثم إنهم اختلفوا بعد ما نفوا صفة العلو والاستواء اختلافاً خطيراً، حيث زعم بعضهم بأنه سبحانه وتعالى في كل مكان بذاته، بينما يزعم الآخرون بأنه تعالى: ليس فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا يمينه، ولا يساره. ونص كلام بعضهم هكذا: "فليس الله عن يمين العرش، ولا عن شماله، ولا أمامه، ولا خلفه، ولا فوقه، ولا تحته، فليحذر كل الخدر مما يعتقد العامة من أن الله تعالى فوق العالم، ثم استدرك قائلاً: لكن الصحيح أن معتقد الجهة لا يكفر"³⁹⁵، وهذه العبارة كان يحفظها أطفالنا حفظ الفاتحة ظناً منهم ومن مشايخهم أنها عقيدة سلف هذه الأمة، التي بلغها لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا تزال تدرس في كثير من معاهدنا وجامعاتنا العربية والإسلامية على حساب عقيدة أهل السنة والجماعة.

فعقيدة الجماعة مجھولة لديهم، لأنهم لا يدرسوها، وتلك الشبهة التي أدّت إلى هذا المصير، وهو الاضطراب والتردد – كما رأيت – شبهة واهية على خطورتها، لا تثبت أمام تلك الأدلة المتنوعة التي سبق أن ذكرنا بعضها أو طرفاً منها كما نقلنا أقوال بعض الأئمة في هذا المعنى عند مناقشتنا موقف المعتزلة والأشاعرة في البحث الثامن من المدخل.

قال الحافظ ابن القيم: إن الأحاديث الصحيحة التي وردت في إثبات استواءه تعالى بلغت خمسين حديثاً، ثم ذكر بعدها أقوال عدد كبير من الصحابة والتابعين والأئمة الأربع وغيرهم في إثبات الاستواء، وله رحمة الله كلام طويل ونفيس في هذه الصفة وغيرها من صفات الأفعال التي أنكرتها الأشاعرة في كثير من كتبه القيمة³⁹⁶، وبعد، فإني لعلَّ يقين

³⁹⁵ حاشية البيجوري ص: 26 طبعة مصطفى محمد بمصر، وحاشية النضالي على كفاية العوام ص: 62 مصطفى البابي الحلبي.

³⁹⁶ راجع: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص: 319 لابن القيم.

لا يخالطه شك في أن كل من ينفي علو الله تعالى بلسانه تقليداً، أو مسيرة لجمهور أهل الكلام فإن ضميره يكذبه من داخله، وهو متكلف يهرف بما لا يعرف، وأن قلبه يلتفت إلى فوق عندما يشرع في الدعاء، والتضرع إلى الله، قبل أن يرفع يديه إلى السماء، وهو يعلم ذلك من نفسه، ولكن التقليد وتقدير الآراء والاعتقاد في الشیوخ، ومسيرة الجمهور، كل ذلك حال دون اتباع الحق الذي نطق به الكتاب والسنة، ودللت عليه الفطرة، وأجمع عليه المسلمون الأولون من الصحابة والتابعين، وسبق أن ذكرنا قول الإمام الأوزاعي وهو يخبر ما كان ي قوله أتباع التابعين ويعتقدونه إذ يقول: "كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن ما وردت به السنة من الصفات" ³⁹⁷.

نقل هذا التصريح غير واحد من أهل العلم مثل الذهبي، والبيهقي، وأخيراً الإمام ابن تيمية في الحموية الكبرى، وهذا التصريح - كما ترى يعني إجماع التابعين، وهو مبني على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصحيح السنة، وهو أقوى إجماع عرف - فيما أعلم - وقد ذكر الأوزاعي هذا الإجماع للرد على عقيدة الجهمية التي أحذت تظاهر في عصر تابعي التابعين ليبين للناس أن ما يدعوه إليه (جهم) وأتباعه مختلف لإجماع الصحابة والتابعين وأئمة تابعي التابعين.

وبعد: فإن صفة استواء الله على عرشه، وصفة الكلام، وموضع إثبات رؤية الله للمؤمنين يوم القيمة هذه المسائل التي كثر فيها اضطراب الأشاعرة وتناقضهم، ولذلك كثر حديث الأئمة وكلامهم فيها ومناقشتهم للأشاعرة بأساليب مختلفة، وجمعوا فيما ألفوا من الكتب في الرد عليهم أدلة عقلية ونقلية، فهذا الحافظ ابن القيم ينافق الأشاعرة، ويبطل دعواهم بأن معنى (استوى) في الآيات التي سبق أن سقناها بمعنى (استولى) أو بمحاز عن الملك والسلطان، يبطل هذه الدعوى باثنين وأربعين وجهاً ³⁹⁸.

ويثبت بأن الفعل (استوى) في مثل سياق الآيات السبع المذكورة لا يكون إلا بمعنى

³⁹⁷ ابن القيم: اجتماع الجيوش الإسلامية على المعطلة والجهمية 39.

³⁹⁸ اجتماع الجيوش الإسلامية ص: 39.

(علا) و (ارتفاع)، هذا ما يدل عليه اللفظ بالوضع، ويجب أن ينتهي إلى هنا علم العباد، وأما ما زاد على هذا القدر من محاولة إدراك حقيقة الصفة، أو اللجوء إلى التأويل، والخروج باللفظ عن ظاهره، أو دعوى التفويض والإعراض عن المعنى الظاهر للغرض، فكل ذلك تكليف، نهينا عنه، أو قول على الله بغير علم. وهو من جملة ما حرم الله على عباده حيث يقول تعالى: {وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}³⁹⁹، ويقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا}⁴⁰⁰، والله المستعان.

الصفة الثانية: صفة المعيية والقرب

إذاً كنا قد انتهينا من الكلام على صفة استواء الله على عرشه كما يليق به دون حاجته إليه، ليحمله، بل هو الحامل سبحانه للعرش، وما دون العرش بقدرته سبحانه، بعد هذا كله أرى من المناسب جداً أن نتحدث عن معية الله تعالى، وقربه من عباده كما يليق به، لما نلاحظ من أن بعض الناس يتصورون – خطأ – صعوبة التوفيق بين استواء الله على عرشه وأنه فوق جميع مخلوقاته، وبين قربه من عباده وأنه معهم حيثما كانوا!! علماً بأنه قد وردت نصوص قرآنية، وأخرى من الأحاديث النبوية لثبت المعيية والقرب كما ثبتت صفة العلو والفوقية. وب تتبع النصوص المشار إليها، وتدارسها يتبين أن المعيية تقسم إلى قسمين:

1 - معيية عامة تثبت أحکامها لجميع الخلق. بمعنى أن الله مع جميع ما خلق يعلم ما هم عليه، ولا تخفي عليه منهم خافية في الأرض، ولا في السماء، بل قد أحاط كل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

ومن نصوص المعيية العامة قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}⁴⁰¹.

2 - القسم الثاني: المعيية الخاصة: وهذا القسم لخواص عباده تعالى الذين خصهم بال توفيق فتحلوا بالتقوى، والإحسان والصبر وجميع الشمائل الكريمة، ومن أمثلة هذا القسم

³⁹⁹ سورة البقرة آية: 169.

⁴⁰⁰ سورة الإسراء آية: 36.

⁴⁰¹ سورة الحديد آية: 4.

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}⁴⁰²، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}⁴⁰³، ومن أوضح أمثلة هذا القسم تلك المعية العظيمة التي كان يخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه في الغار أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ويطمئنه بها إذ يقول له: {لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}⁴⁰⁴، ما أعظمها من معية وأعظم به من قرب، حيث يكون الله وحده صاحبها في ذلك السفر، وخليفتهم في الأهل وهو معهما بنصره وتأييده وحفظه والدفاع عنهم، وهما في غاية العجز والضعف في تلك اللحظة الحاسمة، وهو مع من خلفاهم في مكة بالحفظ والكلا، وبالربط على قلوبهم حتى يأتي الله بالفرج، مهما طال الليل إذ لا يد من الصبح، هذه أحكام المعية الخاصة بالاختصار.

والمعية ل نوعيها لا تفيد المخالطة، والممازجة الذاتية لا شرعاً، ولا لغة بل تمنع ذلك باعتبار إضافتها إلى الله تعالى. أما لغة فإن لفظة (مع) لا تدل إلا على مطلق المصاحبة⁴⁰⁵ والمقارنة، وهذه المقارنة أو المصاحبة أعم من أن تكون بالذات أو بمعان آخر، وإن السياق والقرائن التي تحيط بالمقام هي التي تعين نوع تلك المصاحبة، فإذا وصف الله نفسه بالمعية في عديد من الآيات القرآنية وجاء ذكرها فيما صح عن رسوله عليه الصلاة والسلام فعلينا أن نؤمن بأن معيته سبحانه إنما هي معية علم واطلاع وإحاطة إن كانت عامة على ما تقدم من التفصيل، وتزيد عليها معنى الحفظ والنصر والتأييد إن كانت خاصة. ولا ينبغي أن نفهم منها أي معنى من المعاني التي لا تليق بالله تعالى، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضي عنه: "فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف لكتاب، والسنة وإجماع سلف هذه الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح العقول وللأدلة الكثيرة، و هو لاء يقولون أقوالاً متناقضة"⁴⁰⁶ ا.هـ

إذ لا يوجد نص صحيح وصريح من كاتب أو سنة يشير إشارة، ولو خفية إلى أن الله في كل مكان بذاته، بل النصوص تدل دلالة واضحة على خلاف ذلك، كما تقدم في

⁴⁰² سورة النحل آية: 128.

⁴⁰³ سورة البقرة آية: 153.

⁴⁰⁴ سورة التوبة آية: 40.

⁴⁰⁵ القاموس المحيط.

⁴⁰⁶ ابن تيمية مجموع الفتاوى 5/130 طبعة الرياض.

غير موضع.

وربما يفهم بعض الناس من كلام شيخ الإسلام⁴⁰⁷ حيث يقول: "إن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة" قد يفهم من هذا الكلام بأن ابن تيمية من يقول بأن الله تعالى بذاته معنا في الأرض، أو في كل مكان، وهو بعيد من مثل هذا الحلول رحمه الله. وكلامه الذي نقلناه آنفًا الذي يقول فيه: "فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف للكتاب والسنة" ... الخ يمكن أن يصحح هذا المفهوم الخاطئ، ويرد هذا الاتهام، والحقيقة التي يعنيها شيخ الإسلام هي الحقيقة التي يتصورها كل من فهم معنى كلمة (مع) وفهم أحكامها، لأن أحكامها يختلف باختلاف الموارد، وسبق أن مثلنا لذلك عند تقسيم المعية إلى العامة والخاصة.

شبهة القائلين بأنه في كل مكان بذاته

إذ برأنا ساحة ابن تيمية من القول بأن الله في كل مكان بذاته، حيث شرحنا كلامه بكلامه، ينبغي أن نعرف ما هي الشبهة التي أوقعت بعض الناس في هذا الاعتقاد!! بعد البحث ما وسعنا البحث في هذه النقطة لم نجد لهم متمسّكاً إلا التعلق ببعض العمومات في بعض النصوص التي ذكر المعية أو ذكر القرب، وهي التي تقدم ذكر بعضها، وسيأتي ذكر البعض الآخر، لأنهم لم يفهموا المراد منها، ومراد المتكلم - كما يقول شيخ الإسلام - إنما يفهم بتفهيم من المتكلم نفسه، وبتصريح منه بأنه أراد بكلامه كذا وكذا إن كان في كلامه إجمال وإهمام، أو يحف كلامه بقرائن تعين مراده من كلامه، وليس في كتاب الله أو في سنة رسول الله إيهام يصل بالقارئ والمطلع إلى درجة الحيرة وال الوقوع في الاعتقاد الفاسد، إذا حالفه التوفيق من الله فجمع بين النصوص بالطرق المعروفة عند أهل العلم.

أما في هذه المسألة فإن الجمجم والتوفيق بين نصوص الفوقيه والعلو وبين نصوص المعية والقرب، ففي غاية الوضوح لمن وفق لفهم نصوص المسألة، وملخصه كالتالي:

أ- إن الله تعالى أخبرنا بأنه فوق خلقه مستو على عرشه وهو في العلو لا في السفل،

⁴⁰⁷ مجموع الفتاوى في المجلد الخامس ص: 102.

أخبرنا عن ذلك بأساليب مختلفة ومتعددة في كتابه وفيما أوحاه إلى رسوله وأمينه على وحيه:

- 1- مثل قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ⁴⁰⁸.
- 2- {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ⁴⁰⁹.
- 3- {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ} ⁴¹⁰.
- 4- {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} ⁴¹¹.
- 5- {إِنِّي مُتَوَقِّفٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} ⁴¹².

هذه آيات من القرآن الكريم أما من السنة فمنها ما يلي:

- 1- "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ وَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضْبِي - أَوْ غَلَبَتْ غَضْبِي" ⁴¹³.
- 2- وفي آخر حديث الأواعال: "اللَّهُ فَوْقُ الْعَرْشِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ"، وفي لفظ: "وَلَا يَخْفَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ" ⁴¹⁴.
- 3- حديث الإسراء والمعراج بкамله ⁴¹⁵، وفيه نقاط تعتبر نصاً في الموضوع منها نقطة تتحدث عن لحظة فرض الصلوات الخمسين حيث خاطبه ربه سبحانه وأسمعه كلامه دون واسطة جبرائيل، ومنها ترددته بين موسى وبين ربه سبحانه وهو يشفع لأمته في تخفيف عدد الصلوات المفروضة لتخفض من خمسين إلى خمس من حيث العدد، وهناك نصوص أخرى في هذا المعنى.

وهذه الآيات وتلك الأحاديث وما في معناها من نصوص كثيرة، وآثار، وأقوال السلف مستنبطة من النصوص لا تعتبر نصاً لا يقبل الجدل في أن الله تعالى فوق سماواته مستوٍ على عرشه كما يليق به، فاستواهه معلوم المعنى من هذه النصوص، وكيفية استواهه

⁴⁰⁸ سورة طه آية: 5.

⁴⁰⁹ سورة الفرقان آية: 59.

⁴¹⁰ سورة الملك آية: 16.

⁴¹¹ سورة فاطر آية: 10.

⁴¹² سورة آل عمران آية: 55، وتقدمت هذه الآيات وغيرها في صفة الاستواء.

⁴¹³ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة 69/17، شرح النووي الطبعه الأولى وأصله متافق عليه، وتقديم في صفة الاستواء.

⁴¹⁴ راجع أبا دواد في سننه 93/5 رقم 7423.

⁴¹⁵ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد 258 وأصله متافق عليه، وأخرجه أصحاب السنن، وتقديم في صفة الاستواء.

مجھولة، ولكن الإيمان بذلك الاستواء واجب، والبحث والتنقیب عن الكیفیة بدعة. فلا ينبغي أن يشك مسلم في ذلك.

وقد تقدم البحث مستوى في صفة استواء الله تعالى، وتقديم قول الإمام مالك الذي أشرنا إليه هنا.

ب- إذا ثبت - دون شك - من هذه الأدلة أن الله تعالى فوق سماواته مستو على عرشه (بداته) بائن من خلقه، ثم وردتنا نصوص تثبت أنه تعالى مع جميع خلقه، لا يخفى عليه شيء من أمورهم وشئونهم.

وخصوص خواص عباده بأنه معهم في ظروف خاصة تتطلب النصر والتأييد والحفظ والكلاء، والدفاع عنهم حتى يتصرّوا، ويتصرّبم دين الله وشرعيته، إذا ثبت ذلك لا يفهم من مجموع هذه النصوص إلا أن الله لا يزال ولم يزال أبداً في علوه وفوقيته سبحانه، وهو مع ذلك لا يزال معهم في كل لحظة إما بالمعية العامة، وإما بالمعية الخاصة في ضوء البيان الذي تقدم، وبهذا وحده تجتمع النصوص وتفهم وتطمئن النفوس إلى معانٍ تلك النصوص التي إذا لم تجتمع بمثل هذا الجمع أو همت الغرّ الساذج أنها في غاية من التضارب والاصطدام، ويقف موقف المترجج الجبان، ولسان حاله يقول: اللهم سلم سلم.

وفي واقع الأمر ليس هناك إلا السلامة لو كان يفقهه.

وأما نصوص المعية والقرب التي يتعلّقون بعمومها كما تقدّم، والتي يحاولون أن يفهموا منها بأن الله في كل مكان بذاته - وهي لا تدل على ذلك، لو فهموها حق فهمها - وتلك النصوص هي:

1- {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .⁴¹⁶

2- {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْتَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ

416 سورة الحديد آية: 4

مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ⁴¹⁷.

والمعية في الآيتين معية عامة - كما تقدم - فآية سورة الحديد يخبر الله فيها بأنه سبحانه عالم بكل ما يجري في العالم السفلي والعلوي بالتفصيل، وهو مع عباده أينما كانوا لأنَّه بصير بجميع أعمالهم خبير بها، فذِكْرُ العلم في أول الآية قبل ذكر المعية ثم تذليل الآية بأنه بصير بأعمالهم قرينة واضحة بأنَّ المراد بالمعية معية العلم والإحاطة، أما قرينة آية سورة المجادلة فإنَّها أقوى وأصرَّح، حيث بدأت الآية الحديث بالعلم، وختمت بالعلم أيضاً. وإذا أمعنا النظر في أحكام المعية في الآيتين الكريتين، وأضفنا إليهما النصوص التي جاء فيها ذكر قرب الله تعالى من بعض عباده في كتابه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام نستطيع أن نفهم منها ما فهمنا من الآيتين السابقتين، لأنَّ القرينة المذكورة هناك سوف تجري في بقية النصوص التي فيها ذكر المعية أو القرب إن جاءت خالية من القرينة، فيضاف إلى ذلك إخبار الله عن نفسه بأنه فوق سماواته، وقد تقدم ذلك قريباً، مع ما فطر الله عليه عباده من أنه تعالى يدعى من فوق، لا من أسفل، بل يعتبر هذا علماً ضرورياً لا يمكن تجاهله إلا من أنكر نداء فطرته، متأثراً بعلم الكلام وفلسفة الفلاسفة، وبهذا الجمع والتوفيق بين نصوص العلو، وبين نصوص المعية تلتئم النصوص، وتنسجم، وتفسر بعضها ببعضًا، لا تتنافر ولا تتضارب، والله الحمد والمنة.

قال الحافظ ابن القيم - في صدد حديثه عن المعية والقرب: (وهذا القرب لا ينافي مباهنة الله لخلقه واستوائه على عرشه بل يلازمـه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنه نوع آخر ⁴¹⁸ اـهـ). وهذا المعنى هو الذي نحن بصدد تقريره بتوفيق الله.

قال الحافظ ابن عبد البر - وهو يناقش نفاة العلو -: "وأما احتجاجهم بقوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ تَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} ⁴¹⁹"، فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية لأنَّ

⁴¹⁷ سورة المجادلة آية: 7.

⁴¹⁸ ابن القيم مدارج السالكين 2/ 266 بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

⁴¹⁹ سورة المجادلة آية: 7.

علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأویل قالوا في تأویل هذه الآية: هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتاج بقوله⁴²⁰.

وهذا الكلام من ابن عبد البر لا يعني إلا الإجماع، وإذا أضفناه إلى ما تقدم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام تلميذه ابن القيم، وكلام من نقلنا كلامهم من الأئمة والعلماء، إن مجموع ذلك يفيد ضرورة أن هذا المفهوم هو المفهوم الوحيد الذي كان عليه المسلمون الأولون قبل أن تظهر فرق أهل الكلام التي فرقت المسلمين بأرائها وفلسفتها، ولقد كان المسلمون في عافية من شرهم. وقبل نهاية حديثنا عن المعيبة والقرب نحن أن ننوه بفائدة تتعلق بهذه المسألة العظيمة.

ذكر الله تعالى قربه من بعض عباده في حالتين اثنتين فقط:
الأولى: ذكر في معرض إجابة دعاء من دعاه حيث يقول الله تعالى: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}**⁴²¹، ومعنى القرب هنا واضح، وهو قرب إجابة من دعاه، إذ هو معه، قريب منه، يرى مكانه، ويسمع دعاءه، ويعلم ما يريد العبد أن يقوله قبل أن يقوله لأنه هو الذي وفقه ليدعوه، ثم هو الذي يجيب دعاءه، فهذا قربه من داعيه.

يقول بعض أهل العلم: إن الآية المذكورة نزلت جواباً للصحابي رضي الله عنهم حين سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلين: "ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه"؟ فأنزل الله هذه الآية.

الثانية: ذكر القرب في إثابة عابديه، والمتقربيين إليه بالأعمال الصالحة، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد"⁴²²، وقال عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون رب من العبد في حوف الليل الآخر"⁴²³.

وورد في صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "كنا مع

⁴²⁰ ابن عبد البر التمہید 139/7 بتحقيق عبد الله صدیق.

⁴²¹ سورة البقرة آية: 186.

⁴²² أخرجه مسلم 350/1.

⁴²³ أخرجه الترمذی والنسائي والحاکم من حديث عمرو بن عبسة، وصححه الحاکم على شرط مسلم، وأقره الذهبي (راجع فیض القدیر 69/2).

النبي عليه الصلاة والسلام في سفر، فارتقت أصواتنا بالتكبير، فقال: "يا أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته" ⁴²⁴.

هكذا ينتهي الحديث عن المعية والقرب معاً بهد التوفيق بينهما، وبين علو الله تعالى على خلقه، لثبت بأنه تعالى مع عباده، وقريب منهم وهو في علوه، والعلو وصف ذاتي له سبحانه، دائماً وأبداً.

الصفة الثالثة: صفة النزول:

هذه الصفة من صفات الأفعال التي كثر فيها النزاع بين السلف والخلف، كاختلافهم في جميع الأفعال عامة، والأفعال اللاحمة خاصة. مثل الاستواء والجيء والإتيان.

والقول الحق المؤيد بالأدلة هو الذي عليه سلف الأمة من أن الله تعالى تقوم به هذه الأفعال فيكون النزول فعلاً فعَلَه سبحانه وكذلك مجيهه وسائر أفعاله.

يقول الإمام ابن تيمية في تأييد هذا القول: "وهذا قول السلف قاطبة وجمahir الطوائف" ⁴²⁵ اهـ.

وذلك لأنهم يأخذون النصوص على ما وردت دون أن يفرقوا بين ما جمع الله من الصفات والأسماء والأفعال، وأما الخلف فموقفهم مضطرب جداً في هذه الصفة كغيرها من صفات الأفعال منهم من ينكر النزول إنكاراً فيقول: ما ثم نزول أصلاً.

ومنهم من يقول: إنه ينزل نزولاً بحيث يخلو منه العرش، وهذا يعني أن القوم يحاولون إدراك الكيفية وإلا فالإنكار السافر أو التشبيه، وهو موقف خطير على إيمان المرء. قال الإمام ابن تيمية: "إن أبا بكر الإسماعيلي كتب إلى أهل "جيلان" إن الله ينزل إلى سماء الدنيا على ما صح به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى: {هَلْ

⁴²⁴ صحيح البخاري في التوحيد 144/17 ط البابي الحلبي.

⁴²⁵ شرح حديث النزول ضمن المجموع 395/5

يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْعَمَامِ⁴²⁶، وقال: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا}⁴²⁷، نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، ولو شاء الله سبحانه أن يعين ذلك فعل. فانتهينا إلى ما أحكمه. وكفنا عن الذي يتسابه، ثم تلا قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ}^{428 الآية.}

وقال عبد الرحمن بن منده بإسناده عن حرب بن إسماعيل، قال: "سألت إسحاق بن إبراهيم قلت: حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **"يَنْزَلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟"** قال: نعم، ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا، كما شاء، وكيف شاء. وقال عن حرب: "لا يجوز الخوض في أمر الله تعالى كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين، لقوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}⁴²⁹.

وروى أيضاً عن حرب قال: "هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الحديث والأثر، وأهل السنة المعروفين بها، وهو مذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، والحميدي وغيرهم، كان قوله إن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء، وكما شاء **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**"⁴³⁰.

وقال حماد بن زيد: "إن الله على عرشه، ولكن يقرب من خلقه، كيف شاء"، قال إبراهيم بن الأشعث: سمعت فضيل بن عياض يقول: "إذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء"، وروي مثل ذلك عن الأوزاعي وغيره من السلف أنهم قالوا في حديث النزول: يفعل الله ما يشاء.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: والأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات نزول رب⁴³¹ يوم القيمة كثيرة، وكذلك إتيانه لأهل الجنة كيوم الجمعة⁴³² اهـ.

وهذه الأحاديث التي يحتج بها السلف جاءت موافقة للقرآن، وهذا ما احتج به الإمام

⁴²⁶ سورة البقرة آية: 210.

⁴²⁷ سورة الفجر آية: 22.

⁴²⁸ سورة آل عمران آية: 7.

⁴²⁹ سورة الأنبياء آية: 23.

⁴³⁰ سورة الشورى آية: 11.

⁴³¹ ابن تيمية في مجموع الفتاوى 374/5 طبعة الرياض شرح حديث النزول.

⁴³² شرح حديث النزول في المجموع، وتقدم.

إسحاق بن إبراهيم بن راهويه على بعض الجهمية بحضوره الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان، وذلك حين سئل إسحاق، سأله رجل في مجلس الأمير عن حديث النزول أصحح هو؟ قال إسحاق: نعم، قال السائل: كيف ينزل؟!! قال إسحاق أثبته فوق، حتى أصف لك النزول، فقل له الرجل: أثبته فوق، فقال إسحاق: قال الله تعالى: **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَّا صَفَّا}**⁴³³، فقال الأمير عبد الله: يا أبا يعقوب! أهذا يوم القيمة، قال إسحاق: أعز الله الأمير ومن يأتي يوم القيمة فمن يمنعه اليوم...؟

وأما السؤال: فهل نزل يخلو عنه العرش أم لا؟

إن المفروض عدم ورود هذا السؤال، وهي مسألة قد خاض فيها الناس بل حتى بعض السلفيين المعاصرين، وقد كان الواجب الإمساك عن الخوض في هذه النقطة التي سكت عنها السلف.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة: "إن الصواب المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أن الله سبحانه لا يزال فوق العرش، ولا يخلو منه العرش مع دنوه ونزوله إلى السماء الدنيا، ولا يكون العرش فوقه، وكذلك يوم القيمة كما جاء في الكتاب والسنة، وليس نزوله كنزول أجسام بني آدم من السطح إلى الأرض، بحيث يبقى السقف فوقهم"⁴³⁴، بل الله منزه عن ذلك، فالله سبحانه وتعالى قريب في علوه وعلى في قربه، وهو مع جميع مخلوقاته بعلمه واطلاعه على تفاصيل أحواههم، وهو مع الصابرين والمحسينين والمتقين من عباده بالكفاء والحفظ والنصر **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**.

إذاً فإن السلف انطلاقاً من إيمانهم بتلك الأحاديث التي أشرنا إليها والتي يأتي الكلام عليها - إن شاء الله - إنهم يثبتون نزول رب سبحانه إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، كما يليق بجلاله وعظمته، ويثبتون المعنى العام للنزول دون الخوض والتنقيب عن الكيفية إيماناً منهم بأن معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الموصوف، فحيث آمنا بالله إيمان تسليم دون بحث عن كنه ذاته سبحانه، فيجب الإيمان بجميع الصفات التي

⁴³³ سورة الفجر آية: 22.
⁴³⁴ شرح حديث النزول ضمن المجموع، وتقدير.

أثبتتها لنفسه، أو أثبتهما له رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، وصفة النزول إلى سماء الدنيا من الصفات التي أخبر عنها الرسول، ويشهد له القرآن حيث أخبر رب سبحانه عن مجده يوم القيمة كما تقدم⁴³⁵.

فنستطيع أن نقول: إن النزول ثابت بالكتاب والسنّة، ولو لا هذه التحول لكوننا عن إثباتها. هذا هو الذي يعني بأنها خبرية محضة، إلا أن العقل الصريح والفطرة السليمة لا يرفضان كل ما ثبت بالنقل الصحيح، ولا يدعنه مستحيلاً، كما يزعم بعض الزاعمين، لأن العقل يشهد أن الذي يفعل ما يشاء أن يفعل مثل النزول والاستواء والتجيء مثلاً، والقادر على كل شيء أكمل من الذي لا يفعل كل ما يريد فعله لأنه {فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} ⁴³⁶، هكذا بصيغة "فعال" وهي تدل على كثرة الفعل، وقد يفهم من الكثرة التنوع، والله أعلم.

هكذا يجتمع العقل والنقل على الدلالة على صفات الأفعال بما في ذلك نزول رب سبحانه إلى السماء الدنيا كيف يشاء، والله الحمد والمنة.

ذكر بعض الأحاديث الواردة في هذا الباب:

وقد وردت في إثبات صفة النزول أحاديث كثيرة، وصفها الإمام ابن تيمية بالتواتر، وذكر الحافظ ابن عبد البر بأنها منقوله عن طريق متواتر ووجوه كثيرة من أخبار العدول، ولإمام الذهبـي كلام يؤيد ما قاله الإمامان ابن تيمية، وابن عبد البر رحمـهم الله، إذ يقول:

"وقد ألفت أحاديث النزول في جزء، وذلك متواتر أقطع به"⁴³⁷ ومن هذه الأحاديث المشار إليها:

1- حديث أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام: "ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول". وفي رواية: "حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: أنا الملك من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي

⁴³⁵ راجع شرح حديث النزول 377/5 ضمن مجموع الفتاوى.

⁴³⁶ سورة البروج آية: 16.

⁴³⁷ العلو للذهبـي بتحقيق الألبـاني ص: 116.

438 يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك".

قال الذهبي: رواه أحمد، وإسناده قوي اهـ.

2- حديث أبي هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له" 439 .

قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد: "هذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، رواه أكثر الرواية عن مالك... إلى أن قال: وفيه دليل على أن الله في السماء على عرشه، من فوق سبع سموات، كما قالت الجماعة، وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: إن الله عز وجل في كل مكان، وليس على العرش، والدليل على صحة ما قالوه 440 أهل الحق في ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} 441 ، ثم ساق عدة آيات في هذا المعنى، وهي التي سبق ذكرها.

وقد ناقش الحافظ ابن عبد البر مسألة الاستواء على العرش، ومسألة النزول وربط بينهما، ونقل نقولاً مثبتة وأخرى نافية، ومن أغرب تلك النقول ما نقله عن وكيع أنه كان يقول: كفر بشر بن المريسي 442 في صفتة هذه، قال: هو في كل شيء، قيل له: وفي قلنستوك هذه؟ قال: نعم، قيل له: وفي جوف حمارك؟ قال: نعم، وقال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية 443 .

قلت: وقد صدق، ولا يشك في صحة قول ابن المبارك وصدقه من سمع كلام بشر السابق آنفًا ذلك الكلام الذي يقشعر جلد المرأة عند النطق به، ويقف شعره، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به بشراً وأمثاله.

ثم قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: "وأما قوله عليه الصلاة والسلام في هذا

438 المصدر السابق والحافظ ابن عبد البر في التمهيد 128/7.

439 رواه البخاري في الصلاة وفي الدعوات. ورواه أيضاً في التوحيد. ورواه مسلم.

440 الحافظ يكثر من استعمال لغة أكلوه البراغيث في التمهيد، وهي لغة قليلة كما لا يخفى.

441 سورة طه آية: 5.

442 بشر هذا هو ابن غياث المريسي، كان يعيش في دولة هارون الرشيد مختفيًا، وقد كان بارعاً في علم الكلام، حتى اضطربت عقيدته وصدرت منه عبارات كفره العلماء بها.

443 راجع التمهيد للحافظ ابن عبد البر بتحقيق عبد الله بن صديق 129/7-143.

ال الحديث: "يَنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارِكْ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا" فقد أكثر الناس في التنازع فيه، والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أهملهم يقولون: ينزل كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويصدقون بهذا الحديث، ولا يكفيون، والقول في كيفية النزول، كالقول في كيفية الاستواء والجحى، والحجفة في ذلك واحدة، وقد قال قوم من أهل الأثر أيضاً: إنه ينزل أمره وتنزل رحمته، وروى ذلك عن حبيب كاتب مالك. وغيره. وأنكره منهم آخرون، وقالوا: هذا ليس بشيء، لأن أمره ورحمته لا يزالان أبداً في الليل والنهر، وتعالى الملك الجبار الذي إذا أراد أمراً قال له: كن فيكون في أي وقت شاء"⁴⁴⁴ اهـ.

قلت: حبيب بن أبي حبيب هذا الذي روی عنه الأثر السابق هو أبو محمد المصري متوفى، كذبه أحمد وأبو داود وجماعة، توفي سنة 216هـ⁴⁴⁵.

وهذا التأويل الذي يتوارثه النفاء فيما بينهم في معنى النزول قد ناقشه الإمام ابن تيمية في كتابه الفريد في بابه "شرح حديث النزول" وأبطله من عدة وجوه، ومن ذلك أن سياق الحديث يأبى ذلك التأويل، فإن قوله تعالى: "أَنَا الْمَلِكُ" إلى آخر الحديث صريح في أن الله هو الذي ينزل كيف يشاء، وما ذكره شيخ الإسلام حول هذا المعنى أنه قال: "وقد سئل بعض نفاة العلو عن النزول فقال: ينزل أمره - فقال له السائل: فممن ينزل؟!! إن عندك فوق العالم شيء فممن ينزل الأمر؟ من العدم المحس؟ فبهاه"⁴⁴⁶ اهـ.

ويكون معنى الكلام إذا كنت لا تؤمن بأن الله في العلو، فكيف تزعم بأن الأمر ينزل. فممن ينزل الأمر، فإن الله ليس فوق العالم في زعمك؟ وهو سؤال مفحوم كما ترى، ولذلك بحت الذي نفى العلو، ثم زعم نزول الأمر، لأن النزول لا يكون في اللغة إلا من فوق، وهذا السؤال يمكن أن يوجه أيضاً إلى القائلين بأنه تعالى ليس فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا يمين العرش، ولا يساره، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على العدم، فيكون وجود الرب تعالى عند هؤلاء وجوداً ذهنياً ولا وجود له في الخارج كما لا يخفى، فإذاً من ينزل الأمر أو من تنزل الرحمة، والحالة ما ذكر؟!!

⁴⁴⁴ التمهيد للحافظ ابن عبد البر 7/143 تحقيق عبد الله بن صديق.

⁴⁴⁵ راجع تعليق عبد الله بن الصديق على التمهيد.

⁴⁴⁶ شرح حديث النزول في المجموع 5/131 طبعة الرياض.

وقال الحافظ ابن القيم: "إن نزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا قد تواترت الأخبار به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواها عنه نحو 28 نفساً من الصحابة، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يبلغه في كل موطن وبجمع ⁴⁴⁷ أهـ. ثم سرد أحاديث الصحابة ابتداء من حديث أبي بكر ثم على إلى آخر العدد المذكور مع الشرح والتعليق.

وقال محمد بن جرير الطبرى - بعد كلام طويل حول نصوص الصفات: "أهل العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف يثبتون جميع ذلك، ويؤمنون به بلا كيف ولا توهم. ويمرون الأحاديث الصحيحة كما جاءت من رسول الله عليه الصلاة والسلام" ⁴⁴⁸ أهـ.

قلت: بما في ذلك صفة النزول.

قال الحافظ ابن القيم: اختلف أهل السنة في نزول الرب تعالى على ثلاثة أقوال:
1 - أحدها: أنه ينزل بذاته، قال شيخنا: وهذا قول طوائف من أهل الحديث والسنة والصوفية والمتكلمين.

2 - وقالت طائفة منهم: لا ينزل بذاته.

3 - وقالت طائفة أخرى: نقول: ينزل، ولا نقول بذاته، ولا بغير ذاته، بل نطلق اللفظ كما أطلقه الرسول صلى الله عليه وسلم ونسكت عما سكت عنه ⁴⁴⁹ أهـ.
 وهذا ما يفهم من قول الإمام الأوزاعي وحماد بن زيد وإسحاق بن راهويه، وقد سبق نقل أقوالهم، وقد سئل الإمام أحمد فقال السائل: يا أبا عبد الله أينزل إلى السماء الدنيا؟ قال: نعم، ثم قال السائل: نزوله بعلمه أم ماذا؟! فقال الإمام: "اسكت عن هذا" غضب غضباً شديداً ثم قال: امض الحديث على ما روی ⁴⁵⁰ أهـ.

وموقف الإمام أحمد هنا شبيه بموقف الإمام مالك بن أنس في مسألة الاستواء، وهو موقف معروف رحمهما الله تعالى، بل هذا موقف أئمة السلف قاطبة في جميع صفات الله

⁴⁴⁷ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص: 380.

⁴⁴⁸ مختصر الصواعق المرسلة ص: 383.

⁴⁴⁹ المصدر السابق.

⁴⁵⁰ المصدر السابق.

تعالى لأن المعروف عنهم أنهم لا يتجاوزون الكتاب والسنّة في جميع المطالب الإلهية.

وما يشهد لما ذكرنا ما قاله الحافظ ابن القيم بعد ذكر أقسام الناس في مسألة الانتقال والحركة - وأما الذين أمسكوا عن الأمرين فقالوا: لا نقول يتحرك ويتنتقل ولا ننفي ذلك عنه، فهم أسعد بالصواب والاتباع، فإنهم نطقوا بما نطق به النص، وسكتوا عما سكت عنه، ثم قال رحمه الله: تظهر صحة هذه الطريقة ظهوراً تماماً فيما إذا كانت الألفاظ التي سكت عنها محملة محتملة لمعنىين: صحيح وفاسد، مثل لفظ الجسم والحيز والأعراض، ونحو ذلك من الألفاظ التي تحتها حق وباطل، قبل التفصيل، فهذه لا تقبل مطلقاً، ولا ترد مطلقاً لأنها لم يرد إثباتها ولا نفيها⁴⁵¹ اهـ.

والذي يظهر لي أن لفظ الحركة والانتقال من الألفاظ التي يجب عدم إطلاقها لا نفياً ولا إثباتاً، فيسعنا ما وسع السلف فيها وفي غيرها، وذلك أسلم، والله أعلم.

ومن أقوال هؤلاء الأئمة وموافقيهم يتضح جلياً موقف السلف الصالح من هذه الصفة وغيرها من جميع الصفات الإلهية، وهو الاكتفاء بفهم المعانى العامة للصفات، والإمساك عن الخوض فيما وراء ذلك، فهم لا يبالغون في الإثبات إلى حد التشبيه والتجمسيم كما لا يبالغون في النفي إلى حد التعطيل، بل يقفون مع ظاهر النصوص، ولا يتجاوزونها، وبالله التوفيق.

وأما موقف الخلف هنا كموقفهم في جميع الصفات على ما تقدم تفصيله من وجوب التأويل وعدم اعتقاد ظاهر النصوص، أما النزول فقد أولوه بنزول الملائكة تارة، وبنزول الأمر تارة أخرى، وقد سبق أن ناقشنا غير مرة، وبيننا أنه يؤدي إلى القول على الله بغير علم، مع بعده بما كان عليه المسلمون الأولون من الصحابة والتابعين. وهم الناس الذي يقتدي بهم في هذا الباب وغيره، ومخالفتهم تعتبر اتباع غير سبيل المؤمنين، وهو أمر في غاية الخطورة، كما لا يخفى.

وختاماً نقول قول الإمام مالك في صفة الاستواء: "النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، رحم الله سلفنا ما أقل كلامهم، وما أغزر معناه.

الصفة الرابعة: صفة مجيء الله تعالى يوم القيمة:

وإذاً كنا قد تحدثنا عن استواء الله على عرشه كما يليق به سبحانه، ثم أتبعنا ذلك بالحديث عن معية الله تعالى العامة مع خلقه، بعلمه واطلاعه والخاصة مع خاصة عباده بعلمه، وبنصره وتأييده، ثم أثبنا نزوله سبحانه إلى سماء الدنيا كل ليلة على ما يليق بعظمته وجلاله رحمة لعباده، يجيب دعوة الداعين، ويعطي السائلين.

وبعد الحديث عن هذه الصفات الثلاث فلتتبع ذلك بحديث موجز عن مجيء رب تعالى يوم القيمة لفصل القضاء بين عباده في ضوء الكتاب والسنة دون أن نتجاوزها، لأنهما نورنا الذي نستضيء به في عملنا هذا، فإذا كان الله تعالى يوم القيمة ثبتت بأيات من الكتاب العزيز، وبأحاديث نبوية صحيحة تلقاها علماء السلف بالقبول، ونقلوها إلى من بعدهم كما فهموها، ودرج على الإيمان بها من بعدهم وإقرارها، وإمارتها كما جاءت، وكما تلقوها. وهم خير القرون، بل هم الناس الذين يسألون عن فهمهم للنصوص كيف فهموها، وكيف عملوا بها، ليقتدى بهم، ولا سيما بباب الأسماء والصفات، فالخير والهدى والاطمئنان في اتباعهم، والتأسي بهم، والشر والضلal والاضطراب وعدم اليقين في الدين محقق في مخالفتهم واتباع غير سبيلهم.

فعلى هذا المفهوم نتحدث عن هذه الصفة كما تحدثنا عن غيرها على المفهوم نفسه، وبالله التوفيق.

الآيات في صفة الجيء:

جاءت في كتاب الله عدة آيات تخبرنا عن مجيء الله يوم القيمة ليفصل بين عباده وليحكم بينهم، ومن تلك الآيات قوله تعالى: **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا}**⁴⁵²، وقوله سبحانه: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْغَمَامِ}**⁴⁵³، وقوله سبحانه: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}**⁴⁵⁴.

ومن التقاليد الموروثة لدى كثير من المفسرين الذين ينهجون منهج الخلف أن يفسروا

⁴⁵² سورة الفجر آية: 22.

⁴⁵³ سورة البقرة آية: 210.

⁴⁵⁴ سورة الأنعام آية: 158.

"المجيء" المذكور في سورة الفجر **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَّا صَفَّا}**، يجيء أمر الله سبحانه - وقبل أن أواصل الحديث على هذه النقطة وما بعدها أريد أن أسأل أصحاب هذا الرأي: من أين يأتي أمر الله؟! فلا بد أن يكون الجواب: يأتي أمر الله من عند الله، فهو جواب لا بأس به. وبقي سؤال آخر: أين الله؟ الذي يأتي الأمر من عنده؟ هنا يضطرب النفا، فأول ما يفعله النفا من مثل هذا الموقف أن يقولوا: لا يسأل عن الله بأين؟ هكذا يفهمون!! وبذلك يبرهنون على بعدهم عن هدي الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أول من سأله عن الله بأين ليختبر إيمان تلك الجارية التي يريد مولاها أن يعتقها لو كانت مؤمنة. والقصة معروفة لدى طلاب العلم. أعود إلى السياق لأقول: إذا كان النفا لا يثبتون علو الله على خلقه، فلا معنى لقولهم: " جاءَ أَمْرَ رَبِّكَ !! لَأَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيُ الْأَمْرُ؟ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا زَعَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ يَأْتِي مِنْ كُلِّ مَكَانٍ . وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَالَ بِهَذَا القول !!

وعلى كل حال، فإنهم إن عاجلوا هذه الآية بهذا التهرب عن الحقيقة، ثم عاجلوا آية سورة البقرة بالأسلوب ذاته، مما يصنعون بقوله تعالى في سورة الأنعام **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} !!.**

أما المفسرون الذين ينهجون منهج السلف الذين يفسرون القرآن تفسيرًا لغوياً وأثرياً فيطبقون على أن معنى الآية هكذا. هل يتضرر هؤلاء الذين يعدلون بربهم الأوثان والأصنام ويکفرون بقاء الله، وجزائه، إلا أن تأتيهم الملائكة بالموت فتقبض أرواحهم، أو أن يأتיהם ربكم "يا محمد" يوم القيمة بين خلقه أو أن يأتיהם بعض آيات ربكم، من ظهرها طلوع الشمس من مغربها⁴⁵⁵.

هذا قول شيخ المفسرين الإمام ابن حrir الطبرى مع التصرف في العبارة، ثم نقل ابن حrir تفاسير بعض الصحابة والتابعين، ثم سرد عدداً من الأحاديث المرفوعة والموقوفة تأييداً لتفسيره. ثم إنني تتبعت أقوال المفسرين عند غير ابن حrir فلا يكادون يختلفون.

وقد نقل الإمام الشوكاني في تفسيره عند الآية المذكورة⁴⁵⁶ تفاسير كبار المفسرين مثل مقاتل، وابن مسعود، وحديثاً موقوفاً عن أبي سعيد⁴⁵⁷ الخدرى في تفسير الآية، في معنى مجيء الملائكة، وبمجيء الله تعالى، وبمجيء بعض آياته دون أدنى اختلاف إلا ما كان في العبارة والأسلوب لأنهم يستقون جميعاً من معين واحد، وهو "الوحى" الذى يستوحون منه مراد الله من كلامه سبحانه، ثم يستوضحون ما أشكل عليهم من سنة نبيهم، فلا يقولون على الله بغير علم.

وبعد: فليس لدى النهاة - فيما أحسب - جواب بالنسبة لهذه الآية ما لم يركبوا رؤوسهم، إذ لم يبق هناك من يضيغون إليه مجيء لأن الآية قطعت عليهم خط الرجعة - كما يقولون - حيث ذكرت مجيء الملائكة لقبض الأرواح، ثم ذكرت مجيء رب سبحانه للحساب والقضاء ثم ذكرت مجيء الله تعالى بأمره سبحانه، فأين يذهبون؟!! وماذا يصنعون؟ ولعلهم يسألون فيقولون: إذا قلت: ينزل رب، ويجيء يوم القيمة، فهل معنى ذلك أن هذا المجيء مجيء بانتقال؟ وهل يخلو منه العرش عندئذ؟

الجواب: هذا نوع من الخطأ الذي ناقشناه في صفة النزول، فخرجنا منه بالقول بأن أسعده الناس بالدليل هم المسكون عن القول بانتقال أو عدم انتقال، والمسكون عن القول بخلو العرش، أو عدم خلوه، لأنهم سكتوا عما سكت عنه الكتاب والسنة. هذا ملخص ما قلناه هناك، وبه نقول هنا، ونزيد أن محاولة معرفة هذه النقطة فيها محاولة الإلتحاط بالله علماً، وذلك مستحيل شرعاً وعقلاً. إنما الواقع أن الله هو الذي يحيط خلقه بعلمه، أما هو سبحانه يعلم ولا يحيط به علماً، **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءُ}**، ولا يحيطون بذاته ولا بصفاته ولا بأفعاله علماً، فالنزول والمجيء من أفعال ربنا تعالى فينتهي علمنا فيهما وفي غيرهما من أفعال ربنا بمعرفة المعنى العام وكفى. هذا هو مسلك سلفنا الصالح، فيسعنا ما وسعهم.

وكل شر في ابتداع من خلف

فكل خير في اتباع من سلف

⁴⁵⁶ الشوكاني: فتح القدير 5/172.
⁴⁵⁷ ويشهد لحديث أبي سعيد الموقوف حديث أبي هريرة المروي عند الشعيبين، وهو: طلوع الشمس من مغربها "فتح القدير للشوكاني" بل كل الأدلة التي ذكرناها في صفة النزول صالحة للاستدلال على هذه الصفة.

وَمَا يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَدِّثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَمَا يَحْدِثُهُ فِي نَهايَةِ الْمَطَافِ لَهُذِهِ الدَّارِ أَنْ يَأْمُرَ الشَّمْسَ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا بَدْلًا مِنْ شَرْقِهَا، إِعْلَانًا لِنَهايَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، مِنْ هَنَا يَغْلُقُ بَابُ التَّوْبَةِ، وَلَا يَقْبَلُ إِيمَانًا أَوْ عَمَلًا صَالِحًا مِنْ يَرِيدُ أَنْ يُؤْمِنُ، أَوْ يَعْمَلَ صَالِحًا بَعْدَ هَذَا الظَّلْوَعِ الْغَرِيبِ. ثُمَّ إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأُولَئِينَ وَالآخْرِينَ يَأْتِي يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِيَحْاسِبَ عِبَادَهُ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ⁴⁵⁸، هُنَاكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ بِصَدْقٍ وَيَقِينٍ {يَوْمَ يُكَسَّفُ عَنِ سَاقِهِ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ} ⁴⁵⁹، فَيَأْتِي الرَّبُّ تَعَالَى فَيُعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِعِلْمِهِ الْخَاصَّةِ فَيَسْجُدُونَ لَهُ سَبْحَانَهُ سَجْدَةً تَعْظِيمٍ وَشَكْرٍ فِي آنِ وَاحِدٍ، فَيَحَاوِلُ الْمَرْأَوْنُ أَنْ يَتَظَاهِرُوا كَعَادَهُمْ بِالسُّجُودِ الْأَجْوَفِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْضِحُهُمْ حَيْثُ تَصْبِحُ ظَهُورُهُمْ طَبْقًا لِمَا يَسْتَطِعُونَ السُّجُودَ بِلِّيْسَ قَطُّوْنَ عَلَى ظَهُورِهِمْ. هَكُذا يَأْتِي اللَّهُ وَيَحْاسِبُ عِبَادَهُ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، وَسَيَأْتِي مُزِيدٌ بَحْثٌ لَهُذِهِ النَّقْطَةِ عَنْ الْكَلَامِ عَلَى الرُّؤْيَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَهايَةِ الْكَلَامِ عَلَى الصَّفَاتِ الْمُخْتَارَةِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

الصفة الخامسة: صفة الكلام:

هَذِهِ الصَّفَةُ مِنَ الصَّفَاتِ الَّتِي ضَلَّ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ الصَّوَابِ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ تَشَبَّهُ صَفَةُ "الْإِسْتِوَاءِ"، بِلِّتَفْرِقِ النَّاسِ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ تَفْرِقَهُمْ فِي صَفَةِ "الْإِسْتِوَاءِ"؛ إِذْ تَفْرِقُ النَّاسَ فِيهَا إِلَى تِسْعَ فَرَقٍ كُلُّهَا تَائِهَةٌ عَنِ الْجَادَةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الَّتِي تَمْسَكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَخَيْرِهَا، وَأَمْسَكَتْ عَنِ الْخُوضِ تَأْدِبًا مَعَ نَصْوصِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَإِيمَانًا مِنْهَا بِتَلْكَ النَّصْوصِ الْمُتَضَافِرَةِ وَالْأَدَلَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي سُوفَ تَمَرَّ بِنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قُرْبًا، وَلِإِلَامِ الْطَّحاوِيِّ عِبَارَةً لطِيفَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى إِذْ يَقُولُ: وَلَا أَوْعَدَ اللَّهَ بِسَقْرٍ لَمْ قَالَ: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} ⁴⁶⁰، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ" ⁴⁶¹ اهـ.

وَصَفَةُ الْكَلَامِ - عَنْ الدِّرْسِ - صَفَةٌ دُّرْسَيَّةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى بِاعتِبَارِ نوعِ

⁴⁵⁸ سورة الزلزلة آية: 7، 8.

⁴⁵⁹ سورة القلم آية: 42.

⁴⁶⁰ سورة المدثر آية: 25.

⁴⁶¹ عقيدة الإمام الطحاوي مبحث الكلام ص: 179، طبعة المكتب الإسلامي بتحقيق الألباني.

الكلام، وهي صفة فعل تتعلق بها مشيئة الله تعالى باعتبار أفراد الكلام، لأن الكلام الذي خاطب الله به نوحًا عليه السلام في شأن ابنه: {إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}⁴⁶²، غير الكلام الذي خاطب به موسى عليه السلام: {أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}⁴⁶³، وهو غير الكلام الذي خاطب به عيسى عليه السلام: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنَّتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}⁴⁶⁴، وهذا الكلام كله غير الكلام الذي خاطب الله به خاتم رسالته، وإمامهم محمدًا عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج في شأن الصلاة "لقد حففت عن عبادي، وأمضيت فريضتي"⁴⁶⁵.

وهذا كله غير القرآن الذي أنزله عليه وختم به كتبه، هذا المعنى، وهذا الفهم هو المأثور عن أئمة الحديث والسنّة. وهم الفرقة الناجية التي تمسكت بما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام فيما نعتقد، وهذا يعني أنهم يثبتون لله كلاماً حقيقياً يسمعه المخاطب، وأن هذا القرآن الذي نقرأه بأسنتنا، ونحفظه في صدورنا ونكتبه في ألواحنا وكتبنا أنه كلام الله حقيقة لفظه ومعناه، ولا يبحثون عن كيفية تكلمه تعالى به، لأننا نؤمن به، ولا نحيط به علماً، هذا هو موقف السلف من صفة الكلام بإيجاز، لعلهم بأن الوصف بالتكلّم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، ولا يختلف العقلاة في ذلك، وكلنا نعلم أن معبد قوم موسى الذي اتخذوه من حليهم مما عيب عليهم عدم الكلام، بل يستدل بذلك على أنه ليس بإله، إذ يقول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلَيْهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَكْلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا}⁴⁶⁶.

1- ومن أقوى الأدلة على أن الله يتكلّم حقيقة، قوله تعالى: {وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}⁴⁶⁷، حيث أكد الكلام بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمعنى المجازي، وهو أسلوب معروف عند أهل اللغة، فمن قال: قتلت العدو قتلاً لا يفهم من كلامه إلا القتل الحقيقي الذي هو إزهاق الروح، بخلاف ما لو قال: قتلت العدو فسكت، فإنه يحتمل

⁴⁶² سورة هود آية: 46.

⁴⁶³ سورة القصص آية: 30.

⁴⁶⁴ سورة المائدّة آية: 116.

⁴⁶⁵ راجع شرح الطحاوي بتحقيق الألباني ص: 245.

⁴⁶⁶ سورة الأعراف آية: 148.

⁴⁶⁷ سورة النساء آية: 164.

القتل الحقيقي، ويحتمل الضرب الشديد المؤلم جداً، ولعله واضح.

وما يحكى في هذا الصدد أن بعض المعتزلة قال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ **{وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** بنصب لفظ الجلاله، ليكون موسى هو المتalking، لا "الله"!! فقال له أبو عمرو: هب أين قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله

تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَمَهُ رَبُّهُ}**⁴⁶⁸ !! فبهت المعتزلي !!

2- قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ}**⁴⁶⁹ ، فأنت ترى أن الله عاقبهم وأهانهم بترك تكليفهم تكليم إكرام وإنعام، ولكنه سبحانه يكلمهم ويوجههم بقوله: **{أَخْسُؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ}**⁴⁷⁰.

3- قوله تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاجْرِهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}**⁴⁷¹.

أما هذه الآية فمن أقوى الأدلة في أن هذا القرآن المقرء والمسموع كلام الله حقيقة، وهي رد مفحى لأولئك الذي يزعمون أن هذا القرآن ليس بكلام الله حقيقة، وإنما هو دال على كلام الله الحقيقي النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت، أو هو عبارة عنه، يا ليت شعرى من الذي عبر عما في نفس الله؟!! هذه عبارات تقليدية وموروثة يرددتها المقلدون، وهم لا يفقهون ماذا تعنى هذه العبارة؟!! وهي تعنى - فيما تعنى - الاستخفاف بالقرآن الكريم، وعدم احترامه الاحترام الذاتي، وإنما يحترم بواسطة غيره، وهو ذلك الكلام النفسي الذي يدل عليه. وهذا المعنى مصرح به في بعض كتبهم، وهم يضمنونه في أنفسهم، ولا يصرحون به في كل مكان إلا في مقام التعليم لبيان الواقع - كما يزعمون - هكذا يسيئون إلى كلام الله تأثراً بآراء أهل الكلام المذموم الذي يرجع سنته إلى ما وراء الإسلام، وهو دخيل على الإسلام، وليس من علوم المسلمين كما تقدم في أوائل الرسالة.

⁴⁶⁸ سورة الأعراف آية: 143.

⁴⁶⁹ سورة آل عمران آية: 77.

⁴⁷⁰ سورة المؤمنون آية: 108.

⁴⁷¹ سورة التوبه آية: 6.

هذه بعض آيات القرآن التي تدل على أن الله موصوف بصفة الكلام، ومنه القرآن،
وهنالك أحاديث في هذا المعنى منها:

1- قوله تعالى لأهل الجنة: "يا أهل الجنة هل رضيتم" الحديث، وهو حديث صحيح
عن أبي سعيد الخدري.

2- قال مسروق عن ابن مسعود: إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات شيئاً فإذا
فُزِّع⁴⁷² عن قلوبهم، وسكت الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا
الْحَقَّ} ⁴⁷³.

ويذكر عن جابر وعن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "يُحشِّر اللَّهُ الْعِبَادُ، فَيَناديُهُمْ بِصَوْتٍ يُسمِّعُهُ مِنْ قَرْبٍ، أَنَا الْمَلِكُ
أَنَّ الدِّيَانَ".

3- قال الإمام البخاري: باب كلام رب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، ثم ساق
سنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا
أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جَبَرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحَبَّهُ، فَيَحْبِبُهُ جَبَرِيلُ، ثُمَّ يَنادِي جَبَرِيلَ فِي
السَّمَاوَاتِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحَبَّهُ، فَيَحْبِبُهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، وَيُوَضِّعُ لَهُ الْقِبْوَلُ فِي أَهْلِ
الْأَرْضِ".

4- ثم ساق حديثاً آخر عن الأعرج عن أبي هريرة، وفيه: "ثُمَّ يُرْجَعُ الظِّنَّ بِاتِّوافِ
فِيهِمْ - يعنى الملائكة - فَيَسأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عَبْدَنِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكَنَا
هُمْ يَصْلُونَ وَأَتَيْنَاهُمْ يَصْلُونَ".

5- قال الإمام البخاري: باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}، ثم
ساق حديثاً مسندأً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة
والسلام، وفيه: "يقول الله عز وجل: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه
من أجلي".

⁴⁷² كشف عن قلوبهم الفزع والخوف وسكن الصوت، حاشية السندي على البخاري ص: 294.
⁴⁷³ سورة سباء آية: 23.

6- ثم قال الإمام البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه: باب كلام الرب عز وجل يوم القيمة مع الأنبياء وغيرهم.

ثم ساق حديث الشفاعة بطوله وألفاظه المختلفة، وفي آخره يقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: "فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي وكيريائي وعظمتي لأنحرجن منها من قال لا إله إلا الله".⁴⁷⁴

هذه الأحاديث وأخرى كثيرة في صحيح البخاري وصحيح مسلم وعند أصحاب السنن الأربع تضاف إلى الآيات الكثيرة التي تثبت الله الكلام اللغطي الحقيقي، ومن ذلك القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى.

هذه بعض الأدلة لأتباع السلف في إثبات صفة الكلام باقية على ظاهرها كما يليق بالله لا كما يناسب المخلوق.

موقف الخلف من هذه الصفة ومناقشتهم

أما الخلف فقد اختلفت آراؤهم، وتبينت مذاهبهم في هذه الصفة ولكنهم - على اختلافهم الشديد - متفقون على عدم إيمانهم بكلام الله الحقيقي اللغطي الذي يسمعه المخاطب والذي من جملته القرآن الكريم.

فنخص منهم هنا بالحديث الأشاعرة لاعتبارات كثيرة، ليس هذا محل بيانها ومن أهمها:

1- أئمهم هم الناس الذين لهم وجود جماعي، وبكثرة ملحوظة في دنيا المسلمين اليوم، لو كانت الكثرة لها اعتبار ما في المعنى الإيجابي لهذا الصدد.

2- ثم إنهم يهتفون بهتاف نحن "أهل السنة والجماعة" بصرف النظر هل "ليلي" تقر لهم بهذه الدعوى أم لا؟!

وكل يدعى وصلاً لليلي
وليلى لا تقر لهم بذلك

3- أئمهم أقرب من غيرهم نسبياً إلى منهج السلف، ولو في بعض المواقف ومع ذلك أن موقفهم من "معنى" كلام الله لغريب جداً، حيث زعموا أن كلام الله معنى واحد، قائم

⁴⁷⁴ هذه الأحاديث نقلناها من صحيح البخاري من كتاب التوحيد من أبواب مختلفة 294-295 بhashia السندي.

بздات الله تعالى، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة. فياليت شعرى من المعبر عما في نفس الله باللغتين؟!! إنه لموقف غريب ولا مثيل له حتى في كلام أهل الكلام مع ما فيهم من التطرف في بعض النقاط، وهذه العقيدة كانت في الأصل لابن كُلَّاب، وتبعه فيها أبو الحسن الأشعري عقب رجوعه عن الاعتزال وقبل وصوله إلى منهج السلف الذي يعتبر آخر الأطوار الثلاثة له رحمة الله، كما تقدم غير مرة في هذه الرسالة نفسها، أما الأشعرية المعاصرة فعلى ما كان عليه أبو الحسن في الطور الثاني، ولذا نسميهم أحياناً "الأشعرية الكلابية" فليعلم ذلك.

شبتهم في إنكار الكلام اللفظي:

وأما شبتهم فيما ذهبوا إليه أفهم يقولون: إن كان الله تعالى يتكلم بكلام له صوت وحرف، لزم من ذلك التشبيه والتجمسيم، لأنه لا بد له حينئذ من مخارج الحروف من اللسان والشفتين وغيرهما. والله منزه عن ذلك. إلى آخر كلامهم المعروف. هذه شبتهم وهي من أخوات ما تقدم من الشبهات ومن نسيج واحد.

الجواب: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله وعظمته، دون أن نلزم كلامه لوازم كلام البشر انتفت الشبهة. وقد جاء في القرآن الكريم أن بعض أعضاء بني آدم سوف تتكلم يوم القيمة كما ثبت في السنة كلام بعض الجمادات، وكل ذلك دون أن يكون لها مخارج الحروف، وإذا كنا نؤمن بكلام هذه الأشياء تصديقاً لخبر الله وخبر رسوله عليه الصلاة والسلام، فكيف نستبعد إذاً أن يتكلم الله كيف يشاء ومتى شاء، وهو على كل شيء قادر، أو كيف نحاول أن ندرك كيفية تكلمه؟ وإذا ما عجزنا عن الإدراك، نفينا كلامه، كأننا نكذب كتابه ورسوله الصادق الأمين. أو نتلاعب بالنصوص بعقولنا القاصرة بدعوى التأويل، ونحن عاجزون عن إدراك كيفية كلام الأشياء المذكورة، وهي من مخلوقات الله تعالى؟!!

فكم كان حسناً بل من الإنصاف الواجب لو فكر القوم في الرجوع إلى الجادة،

وهي خير من "بنّيات الطريق".

وإليكم النصوص المشار إليها من الكتاب والسنة:

1- قوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهَّدُ أَرْجُلُهُمْ} ⁴⁷⁵.

2- قوله تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدُوكُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} ⁴⁷⁶.

3- تسبيح الحصا، وتسبيح الطعام، وسلام الحجر على المعمور بالمعجزات الباهرات محمد عليه الصلاة والسلام، كما أثبتت السنة ذلك، ونحن وإياكم نؤمن بذلك كله، فلنؤمن إذاً بكلام الله الذي أنطقها، وهو على كل شيء قادر.

فقالوا: أما بالنسبة لهذا القرآن فهناك آية تدل على أنه مخلوق!! وهو قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} ⁴⁷⁷، لأن القرآن شيء، فلا بد أن يدخل في عموم "كل" لأنها من ألفاظ العموم.

والجواب على هذه الشبهة: أن هذا الاستدلال من أغرب أنواع الاستدلالات لما يأتي:

أولاً: كيف يسوغ لهم الاستدلال بالقرآن المخلوق -في زعمهم- على أن القرآن نفسه مخلوق؟!!

وبعبارة أخرى: إذا كان قوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، مخلوقاً -كما زعموا- فلا يصح أن يكون دليلاً لهم!!

هذا، وإن كان القوم لا يصرحون بهذا المعنى إلا في مقام التعليم -كما يقولون- احتراماً لهذا الكلام اللغظي الدال على الكلام النفسي الحقيقي -كما يزعمون- ولكن واقع عقيدتهم في القرآن هو ما ذكرنا، لأنهم يتافقون مع المعتزلة في أن القرآن مخلوق ⁴⁷⁸، وإن اختلفوا معهم في الأسلوب والطريقة لأن أولئك صرحاً فيما يعتقدون، كما تقدم

⁴⁷⁵ سورة يس آية: 65.

⁴⁷⁶ سورة فصلت آية: 21.

⁴⁷⁷ سورة الرعد آية: 16.

⁴⁷⁸ استقينا هذا المعنى من كتاب المواقف، وحاشية البیجوري على السنوسية، وحاشية الدسوقي على السنوسية، وهما من متأخرى الأشاعرة، وأدرى بكلام الأشاعرة المتأخرین "صاحب الدار أدرى بما في الدار".

البحث مفصلاً في مسألة الاستواء.

ثانياً: هل هم جهلوا أو تجاهلوا تجاهل عارف أن عموم "كل" في كل موضع بحسبه يختلف باختلاف الموضع، يعرف ذلك بالقرائن؟!! ولو أخذ العموم هنا كما أرادوا لدخلت في هذا العموم جميع صفات الله تعالى، بل المفهوم الصحيح أن عموم "كل" هنا إنما يعني كل شيء مخلوق. فلا يدخل في العموم شيء من صفات الله، من الكلام وغيره، وما يؤيد ما قلناه قوله تعالى في وصف الريح التي أرسلها الله إلى قوم "هود" {تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} ⁴⁷⁹، وهي لم تدمّر كل شيء موجود، وإنما دمرت ما أراد الله تدميره من الأشياء التي تستحق التدمير. أما مساكنهم وأشياء كثيرة أخرى لم تدمّر، وكذلك قوله تعالى وهو يخبرنا عن "بلقيس": {وَأُوتِيتْ مِنْ كُلَّ شَيْءٍ} ⁴⁸⁰، وهل أُوتِيت "بلقيس" من كل شيء في الدنيا أو حتى كل شيء في ناحيتها؟!! لا، وإنما أُوتِيت من كل شيء يحتاج إليه الملوك في مملكتهم، وهو أمر واضح كما ترى، ولو أن إنساناً قال: قد حضر وليمة فلان كل الناس، إنما يفهم السامع أنه حضرها جميع المدعين دون أن يختلف أحد لديه "بطاقة" الدعوة.

وبعد: فلما خنقتهم الأدلة، وضايقوهم أتباع السلف بالمناقشة حول النصوص التي وضعوها في غير موضعها، وأساؤوا فهمها، لجأوا إلى بيت شعر هزيل، لا مستند له، لشاعر نصري "الأخطل" حيث يقول:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

لجوء الغريق في السيل الجارف إلى كل ما تقع عليه يده أياً كان نوعه، وهو يحاول أن يجد ما يتعلق به ليسلم من الغرق، وربما مد يده إلى ذلك "الزبد" الذي يعلو السيل، ويتجمع أحياناً في بعض المنعطفات، فإذا ما وصلت يده إليه، لم يجده شيئاً، بل يتبعثر ويدهب مع الماء.

وبيت الأخطل كهذا الزبد أو هو كبيت العنكبوت {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَيَّبْتُ

⁴⁷⁹ سورة الأحقاف آية: 25

⁴⁸⁰ سورة النمل آية: 23

العنكبوت }⁴⁸¹ فالاستدلال به في غاية الفساد للأوجه التالية:

أولاًً: أن المستدلين بهذا البيت قد ردوا، أو من أصولهم أن يردوا أحاديث نبوية مهما بلغت من الصحة، وتلقاها أهل العلم بالقبول، ما لم تبلغ حد التواتر، أو بلغت حد التواتر عند بعضهم بدعوى أنها أخبار آحاد، أو أدلة لفظية!! فكيف يستدللون بهذا البيت الذي

يختلف أهل العلم في ثبوته؟!! وعلى فرض ثبوته فهل تواتر نقله؟!!

ثانياً: إن ما يريدون إثباته بهذا البيت النصري، من أن الكلام ما في النفس أي

"حديث النفس" مردود بالنصوص التالية:

أ- قوله عليه الصلاة والسلام: "إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام

الناس"⁴⁸².

ب- قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله تجاوز لأمي عما حدث به نفسها، ما لم

تكلم به أو تعمل به"⁴⁸³.

ج— قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث

أن لا يتكلموا في الصلاة"⁴⁸⁴.

فاستناداً إلى هذه النصوص قد اتفق العلماء على أن المصلني إذا تكلم في الصلاة عاماً لا غير مصلحتها، بطلت صلاته، كما اتفقوا على أن ما يقول بالقلب من حديث النفس لا يبطل الصلاة، فعلم باتفاقهم أن حديث النفس ليس بكلام، لغة وشرعًا. والشارع إنما خاطب الناس بلغة العرب وهي لغة قرآنهم، فإذا فإن الكلام ما كان بصوت وحرف مسموع، وما هو صريح في هذا المعنى حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: يا رسول الله! إننا لمؤاخذون بما نتكلّم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "وهل يكب الناس في النار على منا هم إلا حصائد ألسنتهم"⁴⁸⁵.

وهذا الحديث وإن لم يسلم سلامه كاملة في سنته حيث رمي بالانقطاع، إلا أنه

⁴⁸¹ سورة العنكبوت آية: 41.

⁴⁸² رواه مسلم وغيره عن معاوية بن الحكم، تخريج المحدث الألباني وتحقيقه لشرح الطحاوية.

⁴⁸³

متافق عليه المصدر السابق.

⁴⁸⁴ النسائي وغيره بسنده حسن. المصدر السابق.

⁴⁸⁵

رواه الترمذى وغيره بسنده فيه انقطاع تحقيق الألبانى على شرح الطحاوية.

يشهد له ما تقدم من الأحاديث الصاحح، ليدل على المقصود علمًا بأننا نستدل به من الناحية اللغوية مضموماً إلى ما تقدم، كما قلنا وبالله التوفيق.

وبعد: فلو ترك الناس على فطحهم السليمة، وعقولهم المستقيمة، ولغتهم العربية الواضحة لم ينزلقوا هذه الانزلاقات في المطالب الإلهية، ولا تنازعوا هذا النزاع الحاد، والله المستعان.

ومن المفيد جداً أن أضيف إلى ما ذكرت نموذجاً من كلام الإمام أبي الحسن الأشعري الذي تنتسب إليه الأشعرية المعاصرة أي إلى مذهبه الذي عاش عليه فترة من الزمن مع ابن كلاب، ثم تركه. وهذا النموذج عبارة عن مناقشة حادة مع الجهمية سجلها الإمام أبو الحسن في كتابه "الإبانة في أصول الديانة" وهو آخر كتاب ألفه بعد رجوعه إلى منهج السلف فيما نعلم، وهو على فقرتين، يقول الإمام أبو الحسن في فقرة:

أ- زعمت الجهمية - كما زعمت النصارى - لأن النصارى زعمت أن كلمة الله حواها بطن "مريم"، وزادت الجهمية عليهم فزعمت أن القرآن مخلوق، حل في شحرة فكانت الشجرة حاوية له فلزمهم أن تكون الشجرة متكلمة بذلك الكلام، ووجب عليهم أن مخلوقاً من المخلوقات كلام موسى، وأن الشجرة قالت: يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني.

ب- وقال الإمام أبو الحسن وهو يصف القرآن الذي تزعم الجهمية والأشاعرة معاً أنه مخلوق: "وهو متلو بالألسنة، قال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَائِكَ} ⁴⁸⁶".

ثم قال الإمام: والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة، محفوظ في صدورنا في الحقيقة، متلو بأسنمتنا في الحقيقة، مسموع لنا في الحقيقة كما قال عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاجْرِهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} ⁴⁸⁷، وقد قال الإمام قبل ذلك: القرآن في اللوح المحفوظ، وهو في صدور الذين أوتوا العلم، قال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} ⁴⁸⁸.

⁴⁸⁶ سورة القيمة آية: 16.

⁴⁸⁷ سورة التوبة آية: 6.

⁴⁸⁸ سورة العنكبوت آية: 49.

هكذا يؤكّد الإمام أبو الحسن بهذا الأسلوب في عدة مواضع في كتابه الإبانة أنّ هذا القرآن الذي نقرأه ونحفظه كلام الله حقيقة بـاللفاظه ومعانيه، وليس هو عبارة عن الكلام النفسي أو دللاً عليه أو ترجمة له كما يزعم متأخرو الأشاعرة، بل هو كلام الله عنده الله بقوله: **{حتى يسمع كلام الله}** لأن الكلام اللفظي المقصود هو المسموع، أما حديث النفس فلا يقرأ ولا يسمع.

وإذا قارنا بين ما سجله الإمام أبو الحسن الأشعري في "إبانته" وبين ما يقوله ويعتقده متأخرو الأشاعرة، نستطيع أن نقول بأن نسبتهم للإمام أبي الحسن غير صحيحة، فأرى من المناسب أن أسجل هنا ما قاله المحدث المصري السلفي الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله: "أما الأشعرية اسم المذهب المنسوب إلى أبي الحسن الأشعري في علم الكلام"، فكما أنه لا يمثل الأشعري ما كان عليه في طور اعتزاله، فإنه ليس من الإنصاف أن تلصق به الأشعرية بعد أن رجع إلى عقيدة السلف التي أراد أن يلقى الله تعالى عليها.

بل إن المذهب الأشعري المنسوب إليه إنما ينسب إلى ما كان عليه ابن كلّاب البصري المتوفى سنة 240هـ، كما أوضح ذلك تقي الدين ابن تيمية في كتابه العقل والنقل⁴⁸⁹، وهو كلام في غاية الوجاهة كما ترى، فلا يحتاج إلى تعليق.

ثم قال أبو الحسن - وهو يحاور الجهمية بأسلوب آخر غير الذي تقدم ليثبت بأن كلام الله - على تعدده وتنوعه - غير مخلوق، حيث يقول: "قد استعاد النبي عليه الصلاة والسلام بكلمات الله التامات من شر ما خلق" ، وعلم أمته بتلك الاستعادة وهي الالتجاء إلى الله من شر خلقه، فهي عبادة عظيمة، فلو كانت كلمات الله مخلوقة لما استعاد بها صلبي الله عليه وسلم ولما علم أمته، لأنه عليه الصلاة والسلام ينهى عن ذلك، بل يعده نوعاً من الإشراك بالله.

ما يستفاد من هذه الاستعادة:

ثم إن هذه الاستعادة المباركة تدلنا على الأمور التالية:

⁴⁸⁹ مختصر منهاج السنة ص: 43

أولاً: جواز الاستعاذه بأسمائه وصفاته كما يستعاذه بذاته، ويؤيد ما قلنا قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".⁴⁹⁰

ثانياً: أن كلمات الله ليست مخلوقة إذ لو كانت مخلوقة لما استعاذه بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما تقدم.

ثالثاً: إن كلام الله ليس معنى واحداً يقوم بالذات، ليس بحرف، ولا صوت، كما تزعمه الأشاعرة المتأخرة، بل كلمات الله لا حد لها، لأنها من كمالاته، فكمالاته سبحانه لا تنتهي، وما يزيد المقام بياناً قوله تعالى: {قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}⁴⁹¹، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .⁴⁹²

هذه المعاني هي التي يريد الإمام أبو الحسن إثباتها ليحاجج الجهمية، ومن يوافقهم في اعتقادهم بأن كلام الله مخلوق، وقد سبقه إلى مثل هذا الحوار إمام أهل السنة وقاطع البدعة الإمام أحمد بن حنبل حيث ألف كتاباً مستقلأً في الرد على الجهمية، وسبق أن تحدثنا عن ذلك الكتاب، ونود أن ننقل هنا نموذجاً من حواره مع الجهمية في كلام الله تعالى، فيبدأ الحوار هكذا:

قالت الجهمية: إن الله لا يكلم ولا يتكلم، إنما كون شيئاً فعبر عن الله، وخلق أصواتاً فأسع. وزعموا أن الكلام "اللفظي" لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين.

فيقول الإمام أحمد: قلنا: هل يجوز لكون أو لغير الله أن يقول: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّك}⁴⁹³؟ أو يقول: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}⁴⁹⁴، فمن زعم ذلك فقد زعم أن غير الله ادعى الربوبية كما زعم الجهم أن الله كون شيئاً كان

⁴⁹⁰ أخرجه مسلم وأصحاب السنن الأربع، وتقدم غير مرة.

⁴⁹¹ سورة الكهف آية: 109.

⁴⁹² سورة لقمان آية: 27.

⁴⁹³ سورة طه آية: 11، 12.

⁴⁹⁴ سورة طه آية: 14.

يقول ذلك المكوّن: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ⁴⁹⁵، وقال جل ثناؤه: {وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ⁴⁹⁶، إلى تلك الآيات التي ساقها، وهو يحاورهم، ثم قال: فهذا منصوص القرآن، ثم قال: فأما ما قالوا: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ" فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ إِلَّا سِيَّكُلْمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجِمَانُهُ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجِبُهُ".

ثم قال الإمام أحمد أما قولهم: إن الكلام لا يكون إلا من جوف، وفم وشفتين، ولسان، أليس الله قال للسموات والأرض: {إِنَّا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعَيْنَ} ⁴⁹⁷، أتراءها قالت: بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات؟!! وقال: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَأْوَدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُنَّ} ⁴⁹⁸، أتراءها يسبحن بجوف وفم ولسان وشفتين"؟!!

الجواب الذي لا بد منه "لا" في جميع هذه الاستفهامات، ولكن الله القادر على كل شيء هو الذي أنطق تلك الحمدات، فجعلها تتكلم حقيقة دون آلات معهودة للتalking عادة تسمى "مخارج الحروف"، فهل الذي مكن لهذه المخلوقات من التكلم يعجز عن الكلام؟ أو يمتنع عليه الكلام "اللفظي" - كما زعمت الجهمية - لماذا يمتنع عليه؟!! هل لأن الكلام نقص؟!! أو بعبارة أخرى: هل الكلام من صفات النقص أو من صفات الكمال؟!! أليس المخلوق الذي يتصرف بالكلام خير وأجمل من الذي لا يتكلم؟ الجواب "بلى" بإجماع العقلاة.

فهل توسع عقول الجهمية أن يكون المخلوق أكمل من الخالق؟ لأن كثيراً من المخلوقات تتصرف بالكلام - وهو صفة كمال - والخالق يمتنع عليه الكلام؟!!
أليس الذي يعطي الكمال أولى بأن يتصرف بالكمال على أكمل وجه بحيث لا يشاركه أحد في خصائص ذلك الكمال؟!! الجواب "بلى" لدى جميع العقلاة.

هذا المعنى هو الذي يدور حوله حوار الإمام أحمد، والزماماته للجهمية لو كانوا

⁴⁹⁵ سورة القصص آية: 30.

⁴⁹⁶ سورة النساء آية: 164.

⁴⁹⁷ سورة فصلت آية: 11.

⁴⁹⁸ سورة الأنبياء آية: 79.

منصفين وطلاب حق، وأخيراً هو الذي يريد إثباته أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة.

الصفة السادسة: صفة المحبة:

هذه الصفة تتحقق بين العبد الذي يحب ربه وسيده ومولاه، وبين ربه الكريم عز وجل الذي أخبر أنه يحب عباده المتدينين الحسينين، ومحبة العبد لربه - كما يراها بعض المحققين⁴⁹⁹، وكما هو الواقع - هي حقيقة "لا إله إلا الله"، وهي تتفاوت فيما بين العباد، فكلما يزداد العبد في تحقيق لا إله إلا الله يزداد محبة الله، ورغبة في لقائه، فأكثر العباد محبة الله الأنبياء ثم الصالحون من أتباعهم، لأن محبتهم لله حق المحبة هي التي حملتهم على تحمل المشاق والمصاعب، وعلى تحمل كل ما لا يقوى به في سبيل الدعوة إلى الله إلى محبته، والإيمان به سبحانه وإصلاح شئون عباده.

فالخوف والخشية والتفسيري في طاعة الله، وحسن عبادته، وتحمل الأذى في سبيل إظهار دينه، وإعلاء كلامه ونصح عباده، وتقديم الخير لهم كل أولئك ثمرات من ثمار محبة الله الصادقة التي لا تتم إلا إذا وصلت به تلك المحبة إلى درجة أنه من شدة محبته لربه ومن صحة محبته له، يحب كل من يحبه، والعمل الذي يحبه، وكل خصلة أو صفة يعلم أن الله يحبها ومن الأدعية المأثورة: "اللهم ارزقنا حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يقربنا إلى حبك".

ومحبة العبد لربه - إذا صحت، وتحقق فهي فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لجميع المحاب لها، إذ هي الطاقة المحركة للعبد إلى فعل كل خير واجتناب كل شر، بل كل تصرفات العبد في تعامله مع الله، وتعامله مع عباده نابعة من تلك الطاقة "المحبة" يتحرك العبد وي عمل ويعطي بتلك الطاقة لأن مقرها "القلب" الذي إذا صلح، صلح كل شيء، وإذا فسد، فسد كل شيء، فسد دينه، وفسد عقيدته، وقد محبة ربه ومولاه، وإذا ما تعطلت تلك الطاقة وغيره نبعها، هناك الملاك، والعبد في هذه الحالة قد مات قلبه كلياً وهو لا يدرى.

فهل صلاة العبد وحسنها والخشوع فيها إلا ثمرة من ثمرات محبته لربه سبحانه ورغبتها

⁴⁹⁹ الحافظ ابن القيم في مدارج السالكين وبدائع الفوائد "مبحث المحبة".

في قربه منه!!

وهل أنفق المنفقون من أموالهم وعصاره كدهم في مرضاه ربهم إلا محبتهم لربهم أكثر من محبتهم لأموالهم؟!! وهل صام عبد وحج وجاهد وتکبد المشاق في سبيل ذلك إلا بداع من محبته لربه ورغبتة فيما عنده سبحانه!!

وبالاختصار لم يعبد الله عبد، ولم يركع ولم يسجد إلا بداع الحبة، ولم يتکاسل ولم يعجز إلا لفقدان محبته لربه وتقديره لربه حق قدره أو نقصانها.

هذا هو مفهوم الحبة عند أهل السنة وعلماء الحديث الذين هم الناس الذين يقتدى بهم في مثل هذا المجال.

وأما حبة الرب سبحانه لعباده من أنبيائه وأوليائه أهل طاعته، فهي صفة عظيمة وحبية إلى قلوب عباده الحبيبين، وهي صفة مستقلة قائمة بالله تعالى، وهي فعل من أفعال رب تعالى يؤهل لهذه الحبة من شاء من عباده ويخلذ من شاء ولا يوفقه لينالها فرحمته وإحسانه وعطاؤه وإكرامه لمن شاء من عباده ثمرة من ثرات محبته، وثواب لها ومن موجباتها لأن الله تعالى لما أحبهم كان نصيبيهم من رحمته وإحسانه وعطائه أوفر نصيب وأنمه.

ولو قلت: إن حبة الله تعالى هي حقيقة إيمان العبد بربه لما بالغت، بل هذا ما يعنيه شمس الدين ابن القيم بقوله: "إنها حقيقة لا إله إلا الله" وفي اعتقادي الذي يقرب من الجزم أن الذين ينكرون الحبة إنما ينكروها إنكاراً تقليدياً، ولا يدركون ماذا يعني هذا الإنكار، وإلا فلو كانوا يدركون أن إنكار حبة الله إنما يعني إنكار الإيمان بالله لما تحرروا على هذا الإنكار الذي لا يُنتَج إلا الكفر أو الزندة.

ولو سئل مسلم عادي وهو لا يزال على فطرته: هل تحب الله تعالى؟ لاندهش من هذا السؤال الغريب، ولأجاب: كيف لا أحبه، وأنا مسلم!! ولو قيل له: إن الله تعالى لا يحبك، وكانت دهشته أكبر، ولا تعتبر ذلك دعاء عليه أو إخباراً بأنه لا خير فيه، بل هو مطروح من رحمة الله، ولفعل أفاعيل من الغضب الشديد، وأثاره ذلك الموقف، ولهذا أعود فأقول: إن إنكار المنكرين لحبة العبد لربه، أو حبة الرب سبحانه لأوليائه إنكار تقليدي لا

معنى هل، بل إنهم سمعوا أن من تنزيه الله تعالى عما لا يليق به أن لا تعتقد أن الله يحب أحداً، لأن المحبة انفعال نفسي وتغير من حال إلى حال، فذلك من صفات المحدثين، فاتصاف الله بها يؤدي إلى تشبيه الخالق بالملحق، فذلك محال، وما يؤدي إلى المحال فهو محال، فوصفه تعالى بأنه يحب محال، هذه خلاصة تقريرهم، والغاية من إنكارهم، فهو كما ترى تقرير تقليدي أحجوف، وإنما ينخدع به السذج من الناس، ولكنه قد ترك كثيراً من الناس في حيرة لا يستطيعون التعبير عنها، لأنهم يجدون في أنفسهم شعور الحب وبشدة أحياناً في حالة انتباهم لآثارها، ثم يتذكرون ذلك التقرير الذي تقدم شرحه، فماذا يصنعون؟!!

فكل عبد من الله عليه بمحبة صادقة أثمرت له المبادرة إلى طاعة الله وحسن عبادته، ووُجد من نفسه الاندفاع إلى مرضاته، والتلذذ بطاعته، والراحة فيها، "أرحنا بها يا بلال"⁵⁰⁰، يشعر أن محبة الله هي التي بها حياته الروحية، وفيها نعيمه وحسن الأنس بربه، وولي نعمته.

ثم إن المحبة الصادقة تتمثل أيضاً في كراهة العصيان، والابتعاد عن المخالفات والابداع، إذ إن صاحبها يكره أن تدنس تلك العلاقة التي بينه وبين ربه "المحبة الصادقة" بأي نوع من أنواع الانصراف عنه، والغفلة والتمرد، وإذا ما نفذ فيه ما قدر عليه، وسبق في علم الله سبحانه أنه لا بد له من كبوة وهفوة، فتحقق ذلك، ولا محالة يعلم أن ربه الحكيم ابتلاه وامتحنه، فيبادر إلى باب مولاه وهو في ندم وحزن لا يعلم مداههما إلا ربه الذي ابتلاه، ليطلب منه في ذل ومسكنة أن يأخذ بيده فينقذه مما هو فيه من عذاب الوحشة من آثار العصيان، ف يأتيه إسعافٌ "الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه"⁵⁰¹ الحديث.

وقد يستعيد عافيته وصحته أحسن وأقوى من ذي قبل، فيزداد محبة لربه وولي نعمته نعمة قبول توبته، ورده إلى بابه "وربما صحت الأجسام بالعلل".

⁵⁰⁰ ورد الحديث: "يا بلال! أقم الصلاة، أرحنا بها".

أخرجه أحمد 364/5، 371، وأبو داود، الأدب 13/330-331 ط السلفية عن رجل من الصحابة وصححه الألباني

"صحيح الجامع الصغير 6/284".

⁵⁰¹ الحديث متفق عليه انظر: البخاري في الدعوات 11/102، ومسلم 4/2102-2105 الطبعه الأولى.

هكذا يعيش المحب طالما تؤدي طاقة الحب عملها على الوجه المطلوب، وقد يعترفها أحياناً ما يعترفها، ولكن الله يلطف بعباده المحبين، فينزل رحمته عليها، ويعيد لها قوتها، وهكذا...

أما الجهمية النفا فإنهم يزعمون أن الله لا يُحِب ولا يُحَب، هذا هو المبدأ عندهم، وماذا يصنعون بالنصوص المصرحة بالمحبة من جانب الرب سبحانه، ومن جانب العبد؟ هل يكذبون النصوص؟ وهل يجرؤون على ذلك أمام جمهور المسلمين؟!! "لا" إذاً فيتأولون النصوص، نصوص محبة العباد لربهم بمحبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال الصالحة ليinalوا الأجر والثواب. وهكذا... ومحبة الطاعة وهذه الأعمال الصالحة وتلك العبادة هي آثار أو ثمرات لتلك المحبة التي أنكروها لو كانوا يفقهون؟

وأما محبة الله لعباده فأولوها بالإحسان وإليهم والتفضل بإعطاء الثواب على أعمالهم الصالحة أو بالثناء عليهم ونحو ذلك، وقد أولوها بعضهم بإرادة الإنعام والإحسان، وتتلخص تأويلاتهم للمحبة فيما يلي: يؤولونها المفعول المنفصل كالعطاء والإحسان مثلاً، وأما الإرادة نفسها فيزعمون: أن الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال العالية، والمقامات المرضية سميت "محبة"، وإن تعلقت بالعقوبة والانتقام سميت "غضباً"، وهكذا إلى آخر تلك الأسماء التي سموا بها من عند أنفسهم، فتصبح المحبة عندهم أحياناً صفة فعل، وأحياناً صفة ذات. وقد ترجع أكثر صفات الأفعال إلى صفة واحدة وهي الإرادة كصفة الرحمة والحبة والتعجب والغضب والفرح. وربما أدى تفسير المحبة أحياناً إلى ردتها إلى صفة الكلام - "وموقفهم من صفة الكلام معروف" وقد تقدم، وذلك حين يقولون: إن المحبة هي ثناء الله على عباده الصالحين⁵⁰².

وليس لدى القوم مستند فيما ذهبوا إليه لا من الأدلة العقلية، ولا من الأدلة النقلية، بل لا تؤيدهم حتى الفطرة السلمية، بل جميع طرق الأدلة عقلاً ونقلأً وفطرة حتى الذوق السليم، وكلها تدل على إثبات محبة الرب لعبد ومحبة العبد لربه. ولعل مثل هذا الموقف من الجهمية هو الذي جعل الإمام عبد الله بن المبارك يقول قوله المعروفة: "إننا نستطيع

⁵⁰² استفدنا هذه المعاني من بعض كتب ابن القيم وفي مقدمتها مدارج السالكين 3/16-18.

أن نحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية"⁵⁰³ اهـ.

ولو تأمل الإنسان مواقف أمهات الطوائف المتنسبة إلى الإسلام كالخوارج والشيعة مثلاً لوجدها كلها تحاول الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة أو على الأقل بنصوص الكتاب وحده، بصرف النظر هل أن تلك النصوص تساعدهم فيما ذهبوا إليه أو تخالفهم وقد تلعنهم!!

أما الجهمية فقد بنوا عقيدتهم ومذهبهم بعيداً عن النصوص كتاباً وسنة غير محاولين الاستدلال بها، بل يحاولون تحريفها لتوافق أهوائهم ونظرياتهم، فما حظهم من الإسلام يا ترى؟!! حقاً إنهم مصابون بضعف إيمان، وقلة استسلام وانقياد للنصوص، فمثلاً لو نوّقش القوم في الإرادة التي فسروا بها "الحبة" في زعمهم، ستكون النتيجة أحد أمرتين:

1- إما أن يستسلموا فيعودوا إلى رشدهم، فيثبتوا الإرادة والحبة معاً، فيسلم لهم إيمانهم وعقيدتهم لأنهم - في هذه الحالة - سلموا الله ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

2- وإما أن يتعنّتوا ويعاندوا، فإن عاندوا تكون فتنة في عقيدتهم، وفساد كبير في إيمانهم، لأنهم ينفون ثمرة الإيمان، وما به حلاوة الإيمان تنال، ثم يلزمهم من هذا التبني نفي الإرادة والصفات المماثلة لها مثل القدرة والعلم مثلاً، لأن "ما ثبت لأحد المثلين ثبت لآخر" سلباً وإيجاباً، ولا محالة وهذا الموقف لا يجتمع، والإيمان الصحيح كما ترى!!

وقد يحاولون إيجاد مسوغ لهذا التصرف حيث يزعمون: إن الحبة ملائمة ومناسبة بين الحب والمحبوب، وتوجب للمحب بدرك محبوبه فرحاً ولذة وسروراً إلى آخر ما هنالك من الثرثرة العقيمة التي نعرفها لأهل الكلام.

والجواب عن هذه الشبهة الواهية مثل أحجوبتنا السابقة على مثلها من تلك الشبهات التي كلها من نسيج واحد، حيث لا يلزم عقلاً إثبات لوازم صفة المخلوق لصفة الخالق إذ لا مناسبة بينهما.

فخلاصة الجواب أن ما ذكروه من لوازم "حبة" المخلوق التي نعرف حقيقتها وحقيقة صاحبها لا تلزم "حبة" الله الذي ليس كمثله شيء الذي لا نحيط به علمًا ذاتاً وصفة

⁵⁰³ تقدم غير مرأة.

سبحانه ما أحلمه؟!! يسمع خوض الخائضين وحدلقة المتحذلقين، ثم يمهمهم، ولا يعاجلهم لعلهم يتوبون، ويرجعون، وعلى كل حال فإن صفة المحبة صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة من الرعيل الأول وأئمة السلف، فالكلام فيها كالكلام في بقية الصفات الخبرية وبعد إذا ثبت في كتاب الله المبين، والأخبار الصحيحة بأن الله يحب عباده المحسنين، وأنهم يحبونه فليس لأحد كلام مع كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك هذه الآيات:

1- {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ⁵⁰⁴.

2- {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} ⁵⁰⁵.

3- {ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ⁵⁰⁶.

4- {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ⁵⁰⁷.

5- {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بَقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} ⁵⁰⁸.

6- {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} ⁵⁰⁹.

ومن السنة النبوية قوله عليه الصلاة والسلام:

1- "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تَؤْتَى رِحْصَهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تَؤْتَى عِزَائِمَهُ، أَوْ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تَؤْتَى مَعْصِيَتِهِ" ⁵¹⁰.

2- "اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌ تَحْبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي" ⁵¹¹، وهو دعاء يدعو به الداعي في ليلة يرجو أن تكون ليلة القدر - كما ثبت ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها.

3- "ثَلَاثٌ مِّنْ كُنْ فِيهِ وَجْدٌ حَلَاوَةُ الإِيمَانِ:

⁵⁰⁴ سورة البقرة آية: 195.

⁵⁰⁵ سورة التوبة آية: 7, 4.

⁵⁰⁶ سورة المائدة آية: 93.

⁵⁰⁷ سورة آل عمران آية: 31.

⁵⁰⁸ سورة المائدة آية: 54.

⁵⁰⁹ سورة التوبة آية: 108.

⁵¹⁰ حدث رواه أحمد في مسنده 2/108، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن عمر، وصححه السيوطي. راجع فيض القدير 2/292.

⁵¹¹ أخرجه أحمد 6/171، 182، 208، 258، والترمذى في الدعوات 5/534، وابن ماجه في الدعاء 2/1265، وقال الترمذى: حسن صحيح.

أ- "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".

ب- "أن يحب المرء لا يحبه إلا الله".

جـ- "وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله، كما يكره أن يلقى في

النار".⁵¹²

في هذا الحديث الشريف إيضاح ما سبق أن أشرنا إليه من أن محبة الله ومحبة رسوله إذا صدقنا تكونان علامه واضحة على صدق الإيمان وبهذا ينال المرء حلاوة الإيمان، ويتدوّقه حتى يصل إلى درجة الإحسان "فيعبد الله كأنه يراه ويشاهده"⁵¹³، إيماناً ويقيناً بأن الله معه ولا يفارقها، وهو سبحانه يراها ويرى مكانها ويسمع كلامها ويعلم حلقات قلبه وحديث نفسه.

وهذا الموقف بل هذا الشعور يجعل العبد يستهين بكل شيء من ملاذ الدنيا، وينسى متابعيها، وهي درجة لا يفي حقها وبيان حققتها قلم عادي مثل "قلمي" فلتدركها إذاً لأصحابها، وهنيئاً لهم. {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، بيد أننا نحبهم في الله ونرجو أن ينفعنا الله بمحبتهم.

وما ألطف قول الإمام الشافعي في هذا المعنى:

أحب الصالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي
وإن كنا جمياً في البضاعة

4- "إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده".⁵¹⁴

5- "إن الله تعالى يحب من عباده الغيور".⁵¹⁵

هكذا ينعت القرآن المحبين والمحبوبين، أفلًا يتذمرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟!!
وقصارى القول: أن أصل الولاية الحب، وأصل العداوة البغض⁵¹⁶، والله المستعان.

الصفة السابعة: صفة الرحمة:

.66/1، 463/10، 60/1، 72، والأدب 10/13، 114، 172، 230، 275، والبخاري في الإيمان 1/103، 103/3.⁵¹²

انظر: حديث جبريل المشهور في صحيح مسلم كتاب الإيمان 1/39-40.⁵¹³

رواه أحمد 2/182، والترمذى 5/123، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وله شواهد أخرى.⁵¹⁴

الترمذى وابن ماجه وحسنه الترمذى.⁵¹⁵

استقينا هذه المعانى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى مجموع الفتاوى 6/476-478.⁵¹⁶

هذه الصفة من الصفات التي اختلف أهل العلم فيها هل هي من صفات الذات أو من صفات الأفعال، وقد تقدم ذكر الخلاف عند الكلام على صفة الذات وصفة الفعل، والذي يترجح عند بعض أهل العلم أنها من صفات الأفعال، لأنه سبحانه وتعالى يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وينتقم منه ولا يرحمه، فحيث تتعلق بها مشيئة الله وقدرته فهي من صفات الأفعال ويمكن عدها من صفات الذات باعتبار أن الله لم يزل متصفًا بالرحمة، فالرحمة العامة ملازمة لذاته تعالى وإن كان أفرادها تتجدد، وقد تقدم ما يشبه هذا في صفة الكلام، والله أعلم.

وعلى كل حال فهي صفة ثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة الذين هم خير الناس على الإطلاق، فلا يختلف السلف والخلف في - الجملة - في وصفه تعالى بالرحمة، بل إثبات بأن الله رحيم، ومن أسمائه **{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**، وهو أرحم الراحمين، هذا الإثبات أمر فطري لا يتوقف فيه إنسان ما، وقد جاء ذكر الرحمة في القرآن الكريم بأساليب مختلفة نذكر منها الآتي:

- **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**⁵¹⁷.
- **{الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ}**⁵¹⁸.
- **{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}**⁵¹⁹.
- **{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}**⁵²⁰.
- **{فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَةٍ}**⁵²¹.
- **{إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}**⁵²².
- **{وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**⁵²³.
- **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}**⁵²⁴.

⁵¹⁷ سورة طه آية: 5.

⁵¹⁸ سورة الرحمن آية: 2-1.

⁵¹⁹ سورة الأنعام آية: 12.

⁵²⁰ سورة الأنعام آية: 133.

⁵²¹ سورة الأنعام آية: 147.

⁵²² سورة الأعراف آية: 56.

⁵²³ سورة الأعراف آية: 151.

⁵²⁴ سورة الأعراف آية: 156.

كما ورد ذكرها في السنة أيضاً مثل:

- 1- "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" ⁵²⁵.
- 2- "من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء" ⁵²⁶.
- 3- "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَاباً وَهُوَ عَنْهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي" ، وفي رواية "سبقت غضبي" إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي لم تذكر هنا إيثاراً للاختصار.

وأما هذا الحديث فهو مشتمل على ثلاث صفات: صفة العلو، وقد تقدم الكلام فيها، وصفة الرحمة وهي محل الشاهد من الحديث، وصفة الغضب وسيأتي الكلام فيها، أضف إلى هذه النصوص دليل العقل والفطرة الذي أشرنا إليه سابقاً وهو أمر واضح لا إشكال فيه.

والذي يهمنا هنا تحديد موقف السلف والخلف من معنى هذه الصفة "الرحمة" وأما السلف فموقفهم من معناها كموقفهم من معنى صفة الاستواء التي سبق الحديث فيها وأطلنا فيها الكلام نوعاً ما وصفة المعية وما بعدها وما قيل هناك سيقال هنا في هذه الصفة، وهو الوقوف عند فهم المعنى العام فقط دون تعمق أو تفلسف لمحاولة إدراك الكنه والكيفية ثم اللجوء إلى التأويل عند العجز عن إدراك الحقيقة، وهو أمر محتم وقد فاقهم أن العجز عن الإدراك هو الإدراك في المطالب الإلهية لأن إدراك كيفية صفات البارئ فوق مستوى العلم البشري **{وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}**⁵²⁷، هذا هو موقف السلف من معنى صفة الرحمة بكل إيجاز.

وأما الخلف فلا يسعهم - عادة - إلا الخوض والتعمق والمناقشات المتطرفة فهذا مناقشتهم بإيجاز:

قال الخلف باتفاق: إن "صفة الرحمة لا يجوز إثباتها على ظاهرها، لأن الرحمة رقة في القلب أو رقة تكون في الراحم، وهي ضعف وخور في الطبيعة، وتألم على المرحوم وهذه

⁵²⁵ أبو داود والترمذى وصححه راجع الذهبى في العلو وتقدم.

⁵²⁶ أخرجه الطبرانى في الكبير 407، وقال المنذري: إسناده قوى جيد الترغيب 3/202.

⁵²⁷ سورة الإسراء آية: 85.

المعاني "نقص" وما كان كذلك مستحيل في حقه تعالى إثباتات "الرحمة" إذاً مستحيل، وإنما المراد لازمها أو إرادة لازمها⁵²⁸. وهو "إرادة" الخير أو إرادة الإحسان". وردّ هذه الشبهة كالتالي:

إن ما ذكره النفاة من "الخلف" من أن حقيقة الرحمة رقة في القلب، وهو ضعف ونحوه إلى آخر ما هنالك، إنما هو من لوازم صفات المخلوق المعروفة لنا حقيقة ذاته وأما بالنسبة لصفات الله تعالى فهذه اللوازم غير لازمة لصفاته، وقياس صفات الخالق على صفات المخلوق قياس فاسد، وهو سر ضلال الجهمية كما لا يخفى على طالب العلم. وقد ذكرنا في غير موضع في هذه الرسالة - نقاًلاً من أهل العلم "أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يتحذى حذوه". فإذا كان من غير الجائز قطعاً قياس الخالق سبحانه على المخلوق في ذاته تعالى، فكذلك الأمر في الصفات، فغير جائز قياس صفاته على صفات المخلوق.

ولما عرفنا حقيقة المخلوق وأحاطنا به علمًا ذاتاً وصفة مكتننا هذه المعرفة من القول بأن حقيقة الرحمة في حقه هي هذه الرقة التي يحس بها الإنسان في بعض المناسبات، كما لو مر على "أعمى" يتخطى في وسط الشارع، وهو خائف قلق يشير بعصاه هنا وهناك، كأنه يحاول أن يدافع بها عن نفسه خطر تلك السيارات، هنا يرق قلب المؤمن ويشفق على هذا المسكين ويحاول إنقاذه من شر تلك السيارات ما استطاع. هذه الرقة يعرفها المرء من نفسه، ومن غيره من مخلوق مثله، وأما من لا يحيط به علمًا ومن ليس كمثله شيء سبحانه والذي آمنا به إيمان إثبات وتسليم، فلا ينبغي أن نحاول معرفة حقيقة "رحمته" التي وسعت كل شيء. حتى إذا ما أدركتنا تلك الحقيقة حرفنا فيها القول عن مواضعه بدعوى التأويل، علمًا بأن تفسير الرحمة بالإرادة سوف لا يحل لهم الإشكال الذي يريدون حلـه. وبيان ذلك كالتالي:

1- يَرِدُ على هذا التفسير أنهم فسروا الصفة بصفة أخرى، أي: أن الرحمة هي الإرادة وهو تفسير مبتدع ومرفوض لدى العقلاة لأن الإرادة صفة مستقلة قائمة بنفسها

⁵²⁸ الرسائل والمسائل ص: 39، لشيخ الإسلام ابن تيمية بتصرف.

كما أن الرحمة كذلك صفة قائمة بنفسها، وكذلك الغضب وسائر الصفات التي فسروها بعضها ببعض، وكلها صفات ثابتة بالكتاب والسنّة.

2- ولو سلمنا جدلاً هذا التفسير، فسوف يرد عليهم في صفة الإرادة التي أتبواها وفسروا بها الرحمة. ما أوردوه على غيرهم في صفة الرحمة. وذلك لأن الإرادة لا تكون إلا لمناسبة بين المريد والمراد، وملاءمته في ذلك تقتضي الحاجة. وإنما لا يحتاج إليه الحب لا ينفع به ولا يريد، وهو معنى لا يليق بالله. فإذا إثبات الإرادة يؤدي إلى إثبات الحاجة، وهو⁵²⁹ "نقص" محال في حق الله تعالى وما يؤدي إلى المحال فهو محال. فإثبات الإرادة محال، وهذا ما يؤدي إلى طرد ذلك الباب الذي فتحوه على أنفسهم حتى تنفي جميع الصفات. والمسلك السليم هو مسلك "الجماعة" وهو أن لوازم صفات المخلوق لا تلزم صفات الخالق، إذ لا مناسبة بين صفات الخالق وصفات المخلوق. وكل الذي اعتمد عليه الخلف في نفي صفة الرحمة أو تأويلاً لها وغيرها من الصفات التي حرفوها فيها "الكلم عن مواضعه" إنما هو إثبات لوازم صفات المخلوق لصفات الخالق وقياسها عليها، وهو خطأ في التصور أو غفلة شنيعة فليعلم ذلك.

وهذه الصفة يدرك كل حي أثرها في نفسه وفي غيره في الأرض وفي السماء في كل لحظة ولحظة فما كان ينبغي أن تكون محل نقاش وجدل، بل القوم لا يشكون في آثارها التي أشرنا إليها ولكنهم وجدوا آباءهم كذلك يقولون ويحرفون فقلدوهم تقليداً لفظياً، وقلوبهم تعرف مضطراً برحمة أرحم الراحمين، والله المستعان.

الصفة الثامنة: صفة الرضا:

هذه الصفة واحدة من صفات الأفعال التي فصلنا فيها القول سابقاً مثل المعية والحبة وغيرها، وهي ثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع العلماء الذين يعتد بإجماعهم من الأئمة الأربع وغيرهم من هم في طبقتهم أو بعدهم من الذين ينهجون منهج السلف الصالح. بل هذه الصفة هي مطلب كل عابد، وغاية كل سالك من طاعتهم وعبادتهم. ومن الأدعية المأثورة التي يدعوا بها طلاب الرضا في أرجى الأوقات ومظان إجابة الدعاء "اللهم

إنا نسألك رضاك والجنة، ونعود بك من سخطك والنار" فالرضى عنهم في دار الكرامة وعدم السخط عليهم بعد الرضى مطلب ليس بعده مطلب.

وقد تضافت الأدلة من القرآن والسنة بذكر الرضى، أي رضى رب العالمين عن عباده المؤمنين لإيمانهم وطاعتهم وحسن عبادتهم، وإخلاص العبادة له سبحانه و عدم الالتفات إلى سواه عز وجل. كما أخبر الله في كتابه عن رضى عباده المؤمنين عن ربهم حين يتفضل عليهم فيدخلهم الجنة ويحل عليهم رضوانه الذي لا يعقبه السخط أبداً.

فلنذكر بعض تلك النصوص المشار إليها فيما يلي:

1- {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} ⁵³⁰.

2- {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} ⁵³¹.

3- {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} ⁵³².

4- "اللهم إني أعوذ بك برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوتك، وأعوذ بك منك" ⁵³³.

5- "رضي الله في رضي الوالدين، وسخطه في سخطهما" ⁵³⁴.

فإيماناً بهذه النصوص من الكتاب والسنة يجعلنا نجزم بأن السلف يثبتون هذه الصفة كغيرها من صفات ربنا تعالى، لأن النصوص المذكورة لا تتحمل التأويل إلا بنوع من التكليف، وقد نهينا عن التكليف كما نهينا عن القول على الله بغير علم.

وأما الخلف فقد قالوا في هذه الصفة قولهم في جميع صفات الأفعال والصفات الخبرية وهي وجوب تأويلها بدعوى أن الرضا انفعال نفس وتغيير من حال إلى حال، فذلك لا يليق بالله تعالى، وإنما المراد لازمه أو إرادة لازمه. ولازمه هو العطاء أو الإنعام، أو الثواب الجزييل، وسبق أن نقاشنا موقفهم هذا في غير موضع في صفة المحبة وصفة الرحمة وغيرهما من صفات الأفعال التي سبق الكلام فيها فلا نرى لزوماً لإعادة ذلك.

⁵³⁰ سورة المجادلة آية: 22.

⁵³¹ سورة البينة آية: 8.

⁵³² سورة الفتح آية: 18.

⁵³³ أخرجه مسلم في صحيحه باب ما يقال في الركوع والسجود 18/203.

⁵³⁴ أخرجه الترمذى عن ابن عمر مرفوعاً وموقعاً والأكثر على وقفه. كشف الخفاء 1/520.

الصفة التاسعة: صفة الضحك لله تعالى:

الضحك قريب من الفرح والرضا والمحبة، من حيث المعنى العام، وهو صفة من صفات الأفعال تقوم بالله تعالى كما يليق به، وهو من الصفات التي انفردت بها السنة إذ لم يرد ذكرها في القرآن الكريم، وهذا الانفراد لا يؤثر عند أهل السنة والجماعة، لأن ما ثبت بالسنة الصحيحة كالذى ثبت بالقرآن دون فرق، لأن القرآن نفسه يأمر الله فيه عباده بالأخذ بالسنة مطلقاً، جاءت "مؤكدة" أو جاءت "بنائية" ودون تفريق بين الأحكام والعقيدة، وقد تقدم هذا البحث مستوفى في حجية الحديث في مدخل هذا الكتاب، وأما الخلف فسوف نتحدث عن موقفهم بعد ذكر النصوص.

وما ورد في إثبات صفة الضحك الأحاديث التالية:

1- حديث أبي هريرة: "يُضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر فيدخلان الجنة. يقاتل هذا فُيُقتلُ فيتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد".⁵³⁵

2- حديث أبي موسى الأشعري: "يتجلى ربنا ضاحكاً يوم القيمة".⁵³⁶

3- حديث أبي رزين العقيلي: "قال: يا رسول الله أَيُضحك الله سبحانه وتعالى؟ فقال: "نعم". فقال: "لن نعدم من رب يضحك خيراً".⁵³⁷

ولندع الإمام ابن القيم يتحدث قليلاً عن هذه الصفة بأسلوبه اللطيف، وهو بصدق حديثه عن المحبة والفرح والضحك - حيث يقول رحمه الله:

"ومن هذا "ضحكه" سبحانه من عبده حيث يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه فيضحك سبحانه فرحاً ورضاً، كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه، ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو فأقبل إليهم، وباع نفسه لله ولقاهم نحره حتى قتل في محنته ورضاه. ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه، فهذا الضحك إليه حباً له وفرحاً به.

⁵³⁵ الحديث متفق عليه، واللفظ للبخاري، كتاب الجهاد بباب الكافر يقتل المسلم 39، ومسلم 1504/1505، وأخرجه أحمد والترمذى 407/4.

⁵³⁶ أورده السيوطي في الجامع الصغير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير 318.

⁵³⁷ أخرجه أحمد في مسنده 4/11، 12، 13، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة 1/64، باب ما أنكرت الجهمية.

وَكَذَلِكَ الشَّهِيدُ حِينَ يَلْقَاهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَيُضْحِكُ إِلَيْهِ فَرْحًا بِهِ وَبِقَدْوَمِهِ عَلَيْهِ⁵³⁸
اَهـ.

هَكَذَا يَوْضُعُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنَ الْقِيمَ أَنَّ ضَحْكَ الرَّبِّ سَبْحَانَهُ إِلَى بَعْضِ عَبَادِهِ فِي
بَعْضِ تَلْكَ الْحَالَاتِ الْخَاصَّةِ فَإِنَّمَا هُوَ ضَحْكٌ رِّضاً وَفَرْحَةٌ وَمَحْبَةٌ، لِأَنَّ الشَّخْصَ أَوَ
الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يُضْحِكُونَ إِلَيْهِمْ قَدْ أَتَوْا بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ مُحَابَّةِ مِنْ جَهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْ
بَيعِ لِلنَّفْسِ اللَّهُ، وَمِنْ الْمَنَاجَةِ الَّتِي تَفْضُلُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ.

وَهَكَذَا تَحْدِهِ سَبْحَانَهُ يَوْفَقُ مِنْ شَاءَ مِنْ عَبَادِهِ لِيَأْتِي بِمَرْضَاتِهِ فَيَتَقْبَلُ مِنْهُ ثُمَّ يَفْرَحُ بِهِ
حَتَّى يُضْحِكَ إِلَيْهِ رِضاً وَمَحْبَةً. سَبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَائِنَكَ!!

أَمَّا الْجَمْهِيَّةُ الْجَفَافَةُ وَالْمَعْطَلَةُ النَّفَّافَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعُوا أَنْ يَهْضِمُوا هَذَا الْمَوْقِفُ الْكَرِيمُ مِنْ
رَبِّنَا الْعَظِيمِ وَلَمْ يَوْفَقُوا لِيُسْلِمُوا لَهُ وَيَفْوَضُوا الْأَمْرَ إِلَيْهِ، بَلْ أَخْذُوا يَتَخْبِطُونَ كَالنَّاقَةِ
الْعَشْوَاءِ تَصْعُدُ وَتَنْزَلُ وَتَذَهَّبُ وَتَجْيِءُ، وَلَا تَدْرِي أَيِّ السَّبِيلُ؟؟!

وَقَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الصَّفَةُ لِعدَمِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى الْأَدَلَّةِ النَّقْلِيَّةِ الَّتِي سَقَنَاها مِنْ
السَّنَةِ الْمَطَهُورَةِ، وَهِيَ – كَمَا قَلَّنَا سَابِقًا – قَدْ انْفَرَدَتْ بِهَا السَّنَةُ الْمَطَهُورَةُ. ثُمَّ هِيَ مِنَ الصَّفَاتِ
الْخَبَرِيَّةِ الْمَحْضَةِ الَّتِي الأَصْلُ فِيهَا الْأَدَلَّةُ النَّقْلِيَّةُ، وَأَمَّا الْعُقْلِيَّةُ فَتَبْعَدُهَا عَلَى حِسْبِ الْمَنْهَجِ
السَّلْفِيِّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَوْضَحْنَا فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ. فَلَيْسَ فِي إِثْبَاتِ الضَّحْكِ أَيِّ
مَحْذُورٍ لِأَنَّهُ ضَحْكٌ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ كَمَا قَلَّنَا فِيمَا مَضِيَّ مِنَ الصَّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ، لِأَنَّ الْبَابَ
وَاحِدٌ، وَتَسَاقُ الصَّفَاتِ كُلُّهَا سُوقًا وَاحِدًا، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالضَّحْكِ الرَّضِيِّ
وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ فَهِيَ شَنْشِنَةُ نَعْرَفُهَا لِلْفَلَاسِفَةِ، وَأَوْلَادُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ. فَلَيْسَتْ غَرِيبَةً
عَلَيْنَا وَلَا هِيَ جَدِيدَةٌ عَلَيْهِمْ. وَهَذَا هُوَ التَّخْبِطُ الَّذِي أَشْرَنَا إِلَيْهِ وَهُمْ فِي غَنِّ عنْهُ لَوْ
حَالَفُهُمُ التَّوْفِيقُ.

وَالْعَجِيبُ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا مَرَتْ عَلَيْهِمْ صَفَةُ الرَّضِيِّ أَوْ لَوْهَا بِالثَّوَابِ أَوْ بِإِرَادَةِ
الثَّوَابِ، وَإِذَا مَرَتْ بِهِمْ صَفَةُ التَّعْجِبِ أَوِ الْفَرَحِ أَوْ لَوْهَا كُلُّهَا إِمَّا بِالثَّوَابِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ أَوْ
بِإِرَادَةِ، وَكَذَلِكَ صَفَةُ الرَّضِيِّ. وَهَاهُمْ هُنَا يَؤْوِلُونَ الضَّحْكَ بِالرَّضِيِّ فَعَلَمَ يَدُلُّ هَذَا

التصرُف؟!!

يدل على ما ذكرناه سابقاً في غير موضع من أن عقيدة القوم عقيدة تقليدية لا تستند إلى دليل أو قاعدة، "سمعنا الناس يقولون شيئاً فقلناه"!!

وهذا المعنى هو الذي دعا في آخر المطاف الإمام أبا الحسن وكبار شيوخ الأشعرية بعده إلى الرجوع عن هذا التخبط إلى منهج ثابت مبني على أساس قوي لا تؤثر فيه الشبهات وهو منهج أهل الحديث والسنّة الذي درج عليه سلف هذه الأمة.

وأراد بعضهم أن ي الفلسف أكثر فقال: الضحك خفة الروح، فيكون عند تحدد ما يسرُّ واندفاع ما يضرُّ. فيقال له: أدركت شيئاً وفاتتك أشياء، إن الضحك الذي تحدثت عنه هو ضحكك وضحك أمثالك من مخلوقات الله، أما ضحك الخالق العظيم سبحانه فلا تدرك حقيقته لأنك لم تدرك الخالق فكيف تدرك حقيقة ضحك الخالق، إذ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. وقد تقدمت هذه القاعدة في غير موضع.

الصفة العاشرة: صفة التعجب:

ومن الصفات التي يثبتها ويؤمن بها أهل السنّة والجماعـة "صفة التعجب" فيصفون الله تعالى بالتعجب، لأنـه وصف نفسه بها ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه، وهي من الصفـات التي تتجدد حسب مشيئته تعالى وإرادـته، فهي فعل من أفعال الله الكثيرة التي تصدر عن حـكمة خـفـية لا يعلمـها إـلى الله تعالى.

ثم إنـ الصـفةـ التعـجبـ قدـ تـدلـ عـلـىـ محـبـةـ اللهـ لـلـفـعـلـ الـذـيـ هوـ محلـ التـعـجبـ،ـ وهيـ فيـ هـذـهـ الصـورـةـ قـرـيبـةـ مـنـ معـنـىـ الفـرـحـ،ـ وـمـنـ أـمـثـلـةـ هـذـاـ النـوـعـ،ـ قولـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ:ـ "يعـجبـ رـبـكـ مـنـ شـابـ لـيـسـتـ لـهـ صـبـوـةـ" ⁵³⁹ـ،ـ وـقـولـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ:ـ "يعـجبـ رـبـكـ مـنـ عـبـدـ إـذـاـ ثـارـ مـنـ فـرـاشـهـ وـوـطـائـهـ إـلـىـ الصـلـاـةـ" ⁵⁴⁰ـ،ـ وـقـولـهـ:ـ "يعـجبـ رـبـكـ مـنـ قـوـمـ يـقـادـونـ إـلـىـ الجـنـةـ بـالـسـلاـسـلـ" ⁵⁴¹ـ،ـ وـفـيـ روـاـيـةـ:ـ "عـجـبـ رـبـكـ مـنـ قـوـمـ بـأـيـدـهـمـ السـلاـسـلـ حـتـىـ يـدـخـلـوـاـ

⁵³⁹ رواه أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى بِسْنَدِ حَسْنٍ عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، راجع المقاديد الحسنة ص: 123، وكشف الخفاء 1/246.

⁵⁴⁰ أخرجه أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مُسْعُودٍ وَإِسْنَادِهِ حَسْنٌ، قَالَهُ الْمَنَاوِيُّ فِي الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ 2/23.

⁵⁴¹ الحديث متافق عليه، وذكره ابن عبد البر في التمهيد.

المراد أسرى الكفار يؤتى بهم مسلسلين فيسلمون ويدخلون الجنة، محقق التمهيد لابن عبد البر الأستاذ عبد الله الصديق.

كل ذلك على ما يليق بالله، وإذا كان التعجب في حق الإنسان منشأه غرابة الفعل وأنه حدث على شكل يثير العجب والغرابة، لأن الإنسان فوجئ بالفعل الذي هو محل التعجب، إذا كان هذا هو مثار التعجب عند المخلوق، فإن الله تعالى متزه عن هذه المعاني، لأنه سبحانه هو الذي قدر ذلك الفعل الذي هو محل التعجب وقدره، فلا ترد في حقه سبحانه هذه المعاني وتلك اللوازم لتعجب الإنسان. فلا يسعنا إلا أن نقول فيه ما قلناه في صفات الأفعال التي تقدمت، وهو ما قاله الإمام مالك من قبل: "التعجب معلوم المعنى مجهول الكيفية والمعنى، ولكن الإيمان والتسليم واجب والتعمعق والتشكك بدعة ومهلكة، والله المستعان.

ثانياً: وقد يدل التعجب على بعض الله للفعل الذي هو محل التعجب ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: **{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا ثُرَابًا}**⁵⁴²، وقوله سبحانه: **{إِلَّا عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}**⁵⁴³، قوله تعالى: **{كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَيْكُمْ}**⁵⁴⁴، قوله: **{وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}**⁵⁴⁵، قوله: **{وَكَيْفَ تَكُفُّرُونَ وَأَنْتُمْ تُتَلَّى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ}**⁵⁴⁶.

قال ابن القيم رحمه الله: "وقد يدل التعجب على امتناع الحكم وعدم حسنها". ومثل له بقوله تعالى: **{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدُ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ}**⁵⁴⁷.

وقد يدل أحياناً على حسن المنع منه وأنه لا يليق به مثله. ومثل له بقوله تعالى: **{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}**⁵⁴⁸،⁵⁴⁹.

والتعجب بأنواعه المشار إليها صفة فعل تقوم بالله تعالى على ما تقدم تفصيله آنفاً. والاستغراب والتأنويل غير وارد خشية الوقع في القول على الله بغير علم لأن التأويل

⁵⁴² سورة الرعد آية: 5.

⁵⁴³ سورة الصافات آية: 12.

⁵⁴⁴ سورة البقرة آية: 28.

⁵⁴⁵ سورة النساء آية: 21.

⁵⁴⁶ سورة آل عمران آية: 101.

⁵⁴⁷ سورة التوبة آية: 7.

⁵⁴⁸ سورة آل عمران آية: 86.

⁵⁴⁹ استقينا هذه المعاني من بدائع الفوائد لابن القيم 10/4 طبعة مكتبة القاهرة، والتمهيد لابن عبد البر ج 7.

دائماً مبني على الظن والتخمين، لأن المعنى المؤول إليه ظني قطعاً. وهذا ما جعل السلف يلتزمون منه جهم السليم، ولا يحيدون عنه، وهو عدم القول على الله بغير علم، بل التسليم لله في حقائق ذاته وصفاته، وأفعاله، وقوفاً مع النصوص وتأدباً معها بل وتقديراً لله حق قدره.^٥

وقال الشهري - وهو يتحدث عن منهج الإمام مالك والإمام أحمد وغيرهم من أئمة السلف - قالوا: إنما توقفنا في تأويل الآيات لأمرتين:
أحدهما: المنع الوارد في التنزيل "في سورة آل عمران في الآية السابعة حيث وصف المؤولين بالزيغ" فنحن نحذر عن الزيغ.

ثانيهما: أن التأويل أمر مظنون "بالاتفاق" والقول بالظن في "صفات البارئ" غير جائز، فربما أولا الآية على غير مراد البارئ تعالى فوقعنا في الزيغ^{٥٥٠}.

الصفة الحادية عشرة: صفة الفرح:

صفة الفرح من الصفات الفعلية الخبرية التي انفردت بها السنة دون الكتاب، وهي ثابتة بالسنة الصحيحة التي تلقاها أهل السنة بالقبول، وعقد إجماعهم استناداً إليها على إثباتها، وهذه الصفة تدل بالتضمن على لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث يوفق من يشاء من عباده ليتوبوا فإذا تابوا قبل توبتهم وفرح بها فرحاً شديداً ولطيفاً في وقت واحد، إذ يردد إليه عباده الشاردين من طاعته لئلا يضيعوا، وهو الذي لا تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم.

وهذا المعنى هو الذي يقرره لنا رسول الرحمة بقوله عليه الصلاة والسلام: "الله أفرج بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلها في أرض فلاة"، وفي رواية لمسلم: "الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، وبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: "اللهم

^{٥٥٠} الشهري: الملل والنحل 1/14، ط. مصطفى البابي الحلبي تحقيق محمد سيد كيلاني - القاهرة.

أنت عبدي وأنا ربك" أخطأ من شدة الفرح"⁵⁵¹ اهـ.

وأهل السنة يؤمنون بهذا الحديث لصحته عن رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ويثبتون الصفة التي جاءت فيه، ولا يتعرضون لها بالتأويل كما لا يشبهون صفات الله بصفات خلقه، وهو شأنهم في جميع الصفات. ومعنى الفرح معلوم والكيف مجهول، والبحث عن الكيفية من أنواع البدع المحدثة، والإيمان به من واجبات الدين الإسلامي وأما الخائضون المتعمدون الذي يبحثون عن الكيفية، وإذا عجزوا عن إدراك الكيفية - وهو أمر محتم - فإنهم يلجأون إلى التحريف. والواجب هو الوقوف عند المعنى العام دون تكليف، وقد نهينا عن التكليف، هذا هو موقف السلف من معنى هذه الصفة وبالله التوفيق.

وأما الخلف فديدهم معروف، وهو تأويل الصفة بأثرها ولازمها، وهنا قبول التوبة والثواب الجزيل والعطاء الكريم، بدعوى أن حقيقة الفرح مستحيلة على الله لأنها خفة وانفعال وتغير من حال إلى حال وكل ذلك لا يليق بالله تعالى.

والجواب على شبهتهم هذه هو جوابنا على الشبهات السابقة، والقوم لا يكادون يفهمون من نصوص الصفات إلا حقائق صفات المخلوق فيفسرون صفات الله بتلك الحقائق فيقعون في التشبيه ثم يحاولون التخلص مما تورطوا فيه من التشبيه بارتكاب بدعة التأويل والقول على الله بغير علم. هذه حقيقتهم في جميع الصفات أو أكثرها على اختلاف مشاربهم والله المستعان.

الصفة الثانية عشرة: صفة الغصب:

الغضب من صفات الأفعال التي تتعلق بها المشيئة وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، ومن الآيات القرآنية التي تثبت هذه الصفة قوله تعالى:

1- {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِيبَ عَلَيْهِ} ⁵⁵².

2- {وَغَضِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} ⁵⁵³.

⁵⁵¹ مسلم 4/210-215، فؤاد عبد الباقي، البخاري الدعوات 11/102 فؤاد عبد الباقي.

⁵⁵² سورة المائدۃ آیة: 60.

⁵⁵³ سورة النساء آیة: 93.

3- {وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}.⁵⁵⁴

وهناك عديد من آيات الكتاب المبين في هذه الصفة، ومذهب سائر الأئمة إثابها، والأحاديث المشار إليها تؤكد ما جاء في هؤلاء الآي من وصف الله بالغضب، وإن هذا الغضب يحدث في وقت دون وقت، ومن ذلك ما جاء في حديث الشفاعة الطويل وهو يخبر عما يقوله الأنبياء اعتذاراً للناس عندما يتقدمون إليهم لطلب الشفاعة منهم، وهم: آدم أو ب البشر، ونوح، وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، يخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن كل واحد منهم يقول: "إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضُبْ قَبْلَهُ مُثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضُبْ بَعْدَهُ مُثْلَهُ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي"⁵⁵⁵ إلى آخر الحديث الطويل.

والحديث يدل دلالة واضحة على أن إثبات صفة الغضب من دين الرسل جميماً، لأن الشرائع كلها متفقة في الأصول بيد أن الله جعل لكل واحد منهم شرعة ومنهاجاً. ومحل الشاهد من الحديث: "إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ" وللفظ صريح في أنه قد يحدث في ذلك اليوم غضب لم يحدث مثله قبل ذلك، كما لا يحدث بعده مثله.

- قوله عليه الصلاة والسلام: "مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضِبْ عَلَيْهِ"⁵⁵⁶، وقد نظم بعضهم هذا المعنى قائلاً:

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين يسأل يغضب

- قوله عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرَضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ وَمِنْعَافِتِكَ مِنْ عَقْوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحصِي شَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أُثْنِيْتُ عَلَى نَفْسِكَ".⁵⁵⁷

- قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبِيكَ رَبِّنَا وَسَعْدِيكَ وَالْخَيْرِ فِي يَدِيكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ وَالْخَيْرِ فِي يَدِيكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أَعْطِيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟!! فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا وَأَيِّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحْلُ عَلَيْكُمْ رَضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ

⁵⁵⁴ سورة البقرة آية: 61.

⁵⁵⁵ رواه أبو أحمد 436-435/2 والبخاري 6، 371/8، 395/8، ومسلم 185 من حديث أبي هريرة.

⁵⁵⁶ أخرجه أحمد 442/2، وصححه الألباني "راجع مشكاة المصاصيح رقم الحديث 2236 بتحقيق الألباني".

⁵⁵⁷ مسلم والأربعة عن عائشة رضي الله عنها، وتقدم تخرجه.

عليكم بعده أبداً⁵⁵⁸.

يستدل أهل السنة بهذا الحديث على أن يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط على من شاء، كم يحل سخطه ثم يرضى ولكن هؤلاء أهل عليهم رضواناً لا يعقبه سخط⁵⁵⁹.

ما أصدق ما قاله الإمام الطحاوي في عقیدته المشهورة: "ولا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسلیم والاستسلام"⁵⁶⁰.

استناداً إلى هذه النصوص وغيرها من نصوص الكتاب والسنة التي آثرنا عدم ذكرها رغبة في الإيجاز، يؤمن السلف وجمهور الأئمة بهذه الصفة ويقولونها على ظاهرها، الظاهر الذي يليق بالله إيماناً منهم بأن النصوص لا تدل بظاهرها إلا على ما يليق بالله - خلاف ما يزعمه الزاعمون - أي أنهم لا يؤمنونه كما أولوه غيرهم. ييد أن إثباتهم لا يصل بهم إلى حد التشبيه والتمثيل - كما قلنا في غير موضع - من الرسالة.

وأما الخلف فلم يوفقا في هذه الصفة كما لم يحالفهم التوفيق أيضاً في جميع الصفات على اختلاف مشاربهم، فرغموا: أنه ما ثمة غضب. وإنما المراد بالغضب المذكور في النصوص لازم الغضب وهو إرادة الانتقام. وعللوا لما ذهبوا إليه بقولهم: إن أصل الغضب غليان دم القلب عند إرادة الانتقام، وذلك مستحيل على الله تعالى، أو بعبارة أخرى: إن حقيقة الغضب الانفعال والتغير من حال إلى حال، وهو أمر لا يليق بالله، إلى آخر تلك التعليقات والأعذار غير المقبولة لدى غيرهم، من أهل السنة والجماعة.

ولدفع هذه الشبهة التي نسجوها من خيوط العنكبوت نقول هنا ما قلناه في رد شبهاهم السابقة حول الصفات التي تحدثنا عنها سابقاً: وهو أن لوازم صفات المخلوقين التي ذكروها لا تلزم صفات الخالق، إذ لا مناسبة بين صفات الخالق وصفات المخلوق حتى تقاس صفاته سبحانه على صفاتهم، وكما أنهم أثبتوا ذات البارئ دون تفكير في لوازم ذاتات المخلوقين، يلزمهم إثبات صفاته ذاتية أو فعلية دون تفكير في لوازم صفات

⁵⁵⁸ متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه راجع: البخاري 415/11، و487/13، ومسلم في الإيمان 171، وأخرجه أححمد 3/88، 95.

⁵⁵⁹ الغضب والسخط والأسف ألفاظ متراداة ومعناها واحد، القاموس المحيط والتاج.

⁵⁶⁰ راجع شرح الطحاوية ص: 524.

المخلوقين، وهذا الإلزام يلحق أو يلزم جميع النفاة المعتزلة والأشاعرة وأتباعهم. هكذا نوجز القول في هذه الصفة اكتفاء بما تقدم من المناقشة حول الصفات التي قبلها، لأن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر. وبالتالي فإن الكلام في الصفة عامة كالكلام في الذات سلباً وإيجاباً.

بــ الصفات الخبرية:

الصفة الثالثة عشرة: صفة الوجه:

وهي من الصفات الخبرية التي أشكلت على الخلف على الرغم من ثبوتها بصرىح القرآن وصحيح السنة، والعقل تابع ومصدق وغير رافض.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري الإمام المتكلم السلفي: "أما بعد: فمن سألنا فقال: أتقولون: إن الله سبحانه وجه؟ قيل له: نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون، وقد دل على ذلك قوله عز وجل: {وَيَقِنَّ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}"⁵⁶¹.

قلت: نضيف إلى الآية التي استدل بها الإمام قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهٌ}⁵⁶²، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفيض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجاجه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"⁵⁶³، "وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبراء على وجهه في جنة عدن"⁵⁶⁴، وهو قطعة من حديث طويل عند الشيوخين في أبواب رؤية الرب تعالى لأهل الجنة وشاهدنا منه ذكر وجه الرب تعالى.

نكتفي بالآيتين الكريمتين والحديثين الشريفين مع وجود غيرهما من أحاديث الرؤية التي تصرح أكثرها بذكر الوجه، لأن العبرة في إثبات صفة من الصفات ليست بكثرة

⁵⁶¹ سورة الرحمن آية: 27.

⁵⁶² سورة القصص آية: 88.

⁵⁶³ رواه مسلم في كتاب الإيمان عن أبي موسى الأشعري وابن ماجه في سننه.

⁵⁶⁴ رواه الشیخان.

الأدلة، وإنما العبرة بصحة الأدلة وصراحتها، وهذا العنصران متوافران هنا والله الحمد والمنة، ولذا أطبق السلف وأتباعهم على الإيمان بهذه الصفة كغيرها من صفات الرب تعالى وإثباها على ما يليق بالله لا يفسروها بالذات، ولا يطلقون عليها شيئاً من الألقاب التي يرددتها النفاة مثل العضو أو الجزء، وغير ذلك من الألقاب التي يطلقونها ليتذرعوا بها إلى نفيها بدعوى أن إثبات هذه الصفة يعني التركيب المستلزم للحاجة والافتقار. وهي صناعة معروفة لا تروج في سوقنا والله الحمد والمنة، إذ قد شرحتنا أمثلها وعرفناها على حقيقتها هذا، وإن الذين ينكرون وجه الله ورؤيه وجهه يوم القيامه وكلامه لأهل الجنة، فيما ترى إلام يسعون؟ ولماذا يعملون؟! وما هي ثمرة كدهم؟! والله المستعان.

الصفة الرابعة عشرة: صفة النفس لله

ومما يجب إثباته لله تعالى: (النفس) لأن الله أثبتها لنفسه وأثبتتها له رسوله عليه الصلاة والسلام، وهي كما يليق بالله تعالى، يقول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام **{تعلّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}**⁵⁶⁵، قوله النفاة بأن ذلك من باب المشاكلة مدفوع بنصوص كثيرة وردت في غير المقابلة منها:

- 1- قوله تعالى: **{وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**⁵⁶⁶.
- 2- **{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}**⁵⁶⁷.
- 3- **{وَاصْطَبَنَّتْكَ لِنَفْسِي}**⁵⁶⁸.

4- قوله عليه الصلاة والسلام في ثنائه على الله: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"⁵⁶⁹.

5- قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة، وهو قطعة من الحديث القدسي الطويل: "...إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي"⁵⁷⁰.

وهناك غيرها من النصوص الصریحة.

⁵⁶⁵ سورة المائدة آية: 116.

⁵⁶⁶ سورة آل عمران آية: 28.

⁵⁶⁷ سورة الأنعام آية: 54.

⁵⁶⁸ سورة طه آية: 41.

⁵⁶⁹ تقدم تخریجه.

⁵⁷⁰ أخرجه البخاري في الدعوات 157، ومسلم في الذكر 4/2061 ط فؤاد عبد الباقي.

بهذه الأدلة ثبتت الله (النفس) فدعوى المشاكلة في الآية الكريمة **{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}**، غير واردة، بل باطلة لأن النصوص الأخرى كلها - كما علمت - وردت دون مقابلة أو مشاكلة. وليس هناك ما يدعو إلى التأويل أو التحريف. إذ شأن النفس كشأن الصفات الخبرية الكثيرة التي تقدم الحديث فيها والله أعلم.

الصفة الخامسة عشرة: صفة اليد

وهذه الصفة - كالي قبلها من الصفات الخبرية - قد طاشت فيها سهام الخلف عن إصابة الهدف، وأخذوا يفسرونها تفسيرًا يساير عقيدتهم، فسروها مرة بالقدرة، ومرة أخرى بالنعمة فارّين - في زعمهم - من التشبيه والتجسيم - يا سبحان الله - **{أَنَّتُمْ أَعْلَمُ أَمِّ اللَّهِ}**⁵⁷¹، يقول الله في كتابه المبين: **{مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدُ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِيَّ}**⁵⁷²، ويقول تعالى: **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ}**⁵⁷³، فهل من الجائز أن يقال: لما خلقت (بنعمتي)?

الجواب: (لا) بالإجماع، لأن الذي يؤمن به جميع المؤمنين - والخلف منهم - أن نعم الله لا تعد ولا تحصى، **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُو هَا}**⁵⁷⁴، وهذا أولًا.

وهل من الجائز ثانياً أن يقال: لما خلقت (بقدرتني)?

الجواب: لا، إجماعاً أيضاً - فيما أعتقد - لأن الذي ندين به نحن وإياهم - فيما أعلم - أن الله قدرة واحدة وباهرة **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**⁵⁷⁵، لعدم الدليل على التعدد، هكذا يتضح الصواب في المسألة بإذن الله.

وما ذكرناه في تفسير آية (المائدة) يقال في تفسير آية (ص) فإذاً مما يدان تليقان بالله تعالى لا القدرة، لأن القدرة صفة أخرى غير اليد كما علمنا، ولا النعمة لما شرحتنا، ولا الجارحة، لأن الجارحة للمخلوق. ولا تشبه يده يد المخلوق. إذ ليس كمثله شيء. قال الإمام أبو الحسن الأشعري - وهو يناقش تفسير الخلف لآية (ص) -: "فلو كان

⁵⁷¹ سورة البقرة آية: 140.

⁵⁷² سورة ص آية: 75.

⁵⁷³ سورة المائدة آية: 64.

⁵⁷⁴ سورة النحل آية: 18.

⁵⁷⁵ سورة المائدة آية: 120.

الله عز وجل عن بقوله: **{لَمَا خَلَقْتُ بِيَدِي}**، القدرة لم يكن لآدم عليه السلام على إبليس في ذلك ميزة، والله عز وجل أراد أن يُرى أن لآدم على إبليس فضلاً إذ خلقه بيده دونه، ولو كان حالقاً لإبليس بيديه كما خلق آدم عليه السلام بيديه لم يكن لتفضيله عليه بذلك وجه، وكان إبليس يقول متحجاً على ربه: فقد خلقتني بيديك كما خلقت آدم بهما، فلما أراد الله عز وجل تفضيله عليه بذلك، قال له موجهاً لاستكباره على آدم أن يسجد له **{مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبِرْتَ}!** فدل على أنه ليس معنى الآية القدر، إذ أن الله عز وجل خلق الأشياء جميعها بقدرته، وإنما أراد إثبات يدين لم يشارك إبليس آدم عليه السلام في أن خلقهما، وليس يخلو قوله عز وجل: **{لَمَا خَلَقْتُ بِيَدِي}** أن يكون معنى ذلك إثبات يدين (نعمتين) أو يكون معنى ذلك إثبات يدين (جارحتين) أو يكون معنى ذلك إثبات يدين (قدرتين) أو يكون معنى ذلك إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا قدرتين، لا يوصافان إلا كما وصف الله عز وجل. فلا يجوز أن يكون معنى ذلك نعمتين، لأنه لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول القائل: عملت بيديّ وهو يعني نعمتيّ، ولا يجوز عندنا ولا عند خصومنا أن يعني جارحتين ولا يجوز عند خصومنا أن يعني قدرتين⁵⁷⁶.

وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع، وهو أن معنى قوله (بيدي) إثبات يدين ليستا جارحتين، ولا قدرتين، ولا نعمتين، لا يوصفات إلا بأن يقال: بأنهما يدان ليستا كالأيدي خارجتان عن سائر الوجوه الثلاثة التي سلفت⁵⁷⁷ اهـ.

هذا كلام واضح غني عن التعليق إلا أن الذي ينبغي التنبيه عليه أن اليد في غير هذا السياق قد تأتي بمعنى (النعمة) وتحمّل على أيادي يقال: لفلان على يد أو أيادٍ. ولكن السياق الذي في الآيتين: يأبى هذا المعنى كما ناقش الإمام أبو الحسن رحمه الله.

أما اليد بمعنى القدرة لا أعلم ثبوت هذا المعنى في اللغة، اللهم إلا إذا كان من باب

⁵⁷⁶ هل يجوز عند أهل السنة أو عند الأشاعرة اعتقاد تعدد القدرة والإرادة وغيرهما من الصفات التي لم يرد النص بذلك، والذي نعتقده عدم اعتقاد التعدد إلا فيما ورد به النص.

⁵⁷⁷ الإبانة في أصول الديانة للإمام السلفي أبي الحسن الأشعري رحمه الله ص: 56.

الكنية، والله أعلم، وأما قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}**⁵⁷⁸، فليس لفظ (أيد) هنا جمع يد كما قد يتواهم، وإنما هو مصدر (آد الرجل يئيد أيداً) أي قوي، هكذا قال المفسرون⁵⁷⁹.

هذا وقد وردت في صفة اليدين عدة أحاديث صحاح وحسان ولكننا نرى أن نقتصر على ذكر حديث واحد اتفق على إخراجه الشیخان وهو حديث احتجاج آدم وموسى عليهم السلام، ومحل الشاهد منه: "قال آدم: يا موسى! اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده"⁵⁸⁰.

قال ابن بطال عند تفسير قوله تعالى: **{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}** في هذه الآية إثبات يدين الله تعالى وهم صفتان من صفات ذاته، وليستا بخارحتين⁵⁸¹ اهـ. ثم لو استقرأنا القرآن الكريم لوجدنا أن لفظ (اليدين) جاء في القرآن على ثلاثة أنواع:

1- جاء مفرداً كقوله تعالى **{بِيَدِكَ الْخَيْرُ}**⁵⁸².

2- جاء مثنى كقوله تعالى: **{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}**⁵⁸³.

3- جاء جمعاً كقوله تعالى: **{مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا}**⁵⁸⁴.

وإذا راجعنا هذه الاستعمالات الثلاثة للبد بنجد أن الله إذا ذكر اليدين مثنية يضيف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ويتعذر الفعل بالباء إيهما أي إلى اليدين **{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}**.

وإذا ذكرها بصيغة الجمع أضاف العمل إلى اليدين والفعل يتعدى بنفسه لا بالباء **{مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا}**.

وأما في حالة الجمع يكون معنى عملت أيدينا أي عملنا نحن، وهو يساوي عملنا وخلقنا ورزقنا وتوضيح ذلك: من الجائز أن يضاف الفعل إلى يد ذي اليدين، بدلاً من أن

⁵⁷⁸ سورة الذاريات آية: 47.

⁵⁷⁹ راجع حاشية الجمل على الجلالين عند الآية المذكورة.

⁵⁸⁰ متفق عليه. البخاري 11/505، 477/13، ومسلم 4/2042-2044، من حديث أبي هريرة.

⁵⁸¹ فتح الباري 11/163.

⁵⁸² سورة آل عمران آية: 26.

⁵⁸³ سورة ص آية: 75.

⁵⁸⁴ سورة يس آية: 71.

يضاف إليه مباشرة، وهو أسلوب معروف عند العرب، وهو كقوله: **{بِمَا قَدَّمْتَ**
يَدَكَ}⁵⁸⁵، و**{فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}**⁵⁸⁶، وأما إذا أضيف الفعل إليه تعالى ثم عُدّي الفعل
 بالباء إلى يده مثناءً أو مفردة فهذا مما باشرته يده سبحانه⁵⁸⁷.

ويشهد لما ذكرنا ما جاء في حديث الشفاعة الطويل في قوله عليه الصلاة والسلام في
 حق آدم وموسى عليهما السلام، يقال لآدم: "أنت الذي خلقك الله بيده" ويقال لموسى:
"أنت الذي اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده"⁵⁸⁸.

ولا يحتمل المعنى هنا القدرة، وإنما لم يكن للتوراة اختصاص بما ذكر ولا كانت
 أفضلية لآدم على كل شيء مما خلق بالقدرة كما تقدم في كلام أبي الحسن الأشعري عند
 الكلام على آية سورة (ص)، والقصة معروفة لدى طلاب العلم.

وخلاصة ما ذكر فيما تقدم أن هذه الصفة صفة بها العطاء والأخذ والقبض وهي غير
 القدرة وغير النعمة. نقول ذلك استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري:
"يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفْقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ. أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ وَيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفَضُ وَيَرْفَعُ"⁵⁸⁹

ا. هـ

وقوله عليه الصلاة والسلام: "يَقْبَضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ:
أَنَّ الْمَلَكَ أَيْنَ مُلُوكُ الدُّنْيَا"⁵⁹⁰، والحديث كقوله تعالى: **{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قُبْضَتُهُ يَوْمَ**
الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}⁵⁹¹.

ويفهم من كلام بعض أهل العلم أن النسبة التي بين اليد والقدرة كالتي بين الإرادة
 والمحبة إذ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "والذي يلوح في معنى هذه الصفة (اليد) أنها
 قريبة من معنى القدرة إلا أنها أخص منها معنى، والقدرة أعم، ثم قال رحمه الله: كالمحبة مع

⁵⁸⁵ سورة الحج آية: 10.

⁵⁸⁶ سورة الشورى آية: 30.

⁵⁸⁷ مختصر الصواعق المرسلة ص: 36.

⁵⁸⁸ راجع أحاديث الشفاعة، منها حديث البخاري في التوحيد عن أنس 422/13.

⁵⁸⁹ هداية الباري في ترتيب البخاري 2/350.

⁵⁹⁰ المصدر السابق والحديث متفق عليه.

⁵⁹¹ سورة الزمر آية: 67.

الإرادة والمشيئة، وكل شيء أحبه فقد أراده وليس كل شيء أراده أحبه، وكذلك كل شيء حادث فهو واقع بالقدرة، وليس كل شيء واقع بالقدرة واقعاً⁵⁹² باليد، فاليد أخص من معنى القدرة، ولذلك كان فيها تشريف آدم⁵⁹² اهـ.

قلت: وكذلك كتابة التوراة وغرس جنة الفردوس كما تقدم، وعند التحقيق أن النسبة بين الإرادة والمحبة من باب عموم وخصوص من وجه يجتمعان في إيمان أبي بكر مثلاً فهو مراد ومحبوب، وتنفرد الإرادة في كفر أبي جهل مثلاً لأنه مراد غير محبوب، وتنفرد المحبة في إيمان إبليس لأنه غير مراد وهو محبوب لو وجد بإرادة الله ومشيئته.

وأما النسبة بين القدرة واليد فمن باب العموم والخصوص المطلق يجتمعان في خلق آدم، وما ذكر معه لأنه خلقه بقدرته وصنعه بيده سبحانه كما كتب التوراة بيده وغرس جنة الفردوس بيده أيضاً، وتنفرد القدرة في سائر مخلوقاته التي لم يباشر خلقها بيده ولكن قال لها: كوني فكانت، والله أعلم.

الصفة السادسة عشرة: صفة الأصابع لله تعالى بلا كيف ولا حد

إذاً كنا تحدثنا فيما سبق عن الوجه واليد وغيرهما من الصفات الذاتية الخبرية وأثبتنا أن اليد غير القدرة بل هي صفة زائدة قائمة بذاته تعالى فمن المناسب أن نتحدث عن إثبات الأصابع لله تعالى على ما يليق به سبحانه، والأصابع من الصفات الذاتية الخبرية التي انفرد بها إثباتها السنة دون الكتاب.

وقد ذكر غير واحد من علماء الحديث صفة الأصابع في كتبهم وتلقوها بالقبول، وفي مقدمة من ذكر أحاديث الأصابع الشیخان: البخاري ومسلم في صحيحهما وذكره ابن عبد البر في تمهیده. وقد جمع أكثر طرقه الإمام الدارقطني في رسالته اللطيفة (كتاب الصفات) فانطلاقاً من هذه الأدلة يثبت أهل السنة الأصابع لله تعالى على ما يليق بالله بلا كيف ولا حد.

أحاديث الأصابع:

روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى النبي عليه

⁵⁹² ابن القيم بدائع الفاويد ص: 6

الصلوة والسلام فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم: إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيمة على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال والشجر على أصبع، والماء على أصبع، والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن: فيقول: أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله عليه الصلاة والسلام تعجباً مما قال الحبر تصديقاً له. ثمقرأ قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ⁵⁹³.

وقد روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة منهم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، و قريب منه حديث أبي هريرة عند مسلم، والحديث متفق عليه. إذ قد رواه البخاري في كتاب التوحيد في صحيح وفي معنى هذه الأحاديث المشار إليها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم ولفظه:

"إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها حيث يشاء ثم قال: يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك".

وفي معناه أيضاً حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه عند مسلم ونصه هكذا: "سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: "الميزان بيد الرحمن إن شاء يرفع أقواماً ويضع آخرين - وقلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه". وكان يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

وبهذه الأحاديث الصلاح يثبت علماء الحديث وأهل السنة لله تعالى الأصابع بشبوها صفة لله تعالى خيرية كما تقدم.

وأحاديث صفة الأصابع لم تسلم من تحرير المحرفين بل نالها ما نال غيرها من نصوص الصفات. حيث زعم بعضهم أن الأصابع تخليط من اليهود لأن اليهود مجسمة، وأن ضحك النبي صلى الله عليه وسلم من كلام الحبر ليس دليلاً على تصديقه

⁵⁹⁴ لليهودي، بل هو دليل الكراهة والغضب والاستنكار.

وأنت ترى هذا الكلام ينقصه الشيء الكثير من الإنصاف، وأن مجانبة الصواب فيه واضحة ومكشوفة لكل طالب علم.

وقد نسي المعارضون النافون أو تناسوا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحديث النواس بن سمعان وليس في إسنادهما يهودي ولا نصراوي بحمد الله تعالى، فذهبوا ليعتقدوا بخيط العنكبوت فزعموا أن أحاديث الأصابع فكرة يهودية فلا ينبغي الاعتماد عليها، وفأقهم أنهم يسيئون بهذا التصرف إلى أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام الذين رروا الحديث بعد أن فهموا أن النبي عليه الصلاة والسلام أقر اليهودي على ما أخبر من قدرة الله تعالى حيث يحمل الرب تلك الأشياء المذكورة في الحديث على أصابعه، بل ضحك عليه الصلاة والسلام ضحكاً يدل على التصديق والإعجاب بكلام الخبر ثم أراد أن يزيل عنه الاستغراب والاستعظام فقرأ عليه قوله تعالى: {وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ} ⁵⁹⁵ الآية، هكذا فهم الرواة من الصحابة ومن بعدهم وأغرب ما في هذا التصرف محاولة تخطئة الراوي الذي قال: "وتصديقاً للخبر وتعجباً من كلامه" ثم تفسير الضحك بالاستنكار والكراهة!! متى علموا بل متى علم المسلمون الذين يدرسون سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه عليه الصلاة والسلام إذا سمع من يصف الله بما لا يليق به أو إذا انتهكت حرمات الله، أو تقول أحدٌ على الله بغير علم، متى علموا بأن النبي عليه الصلاة والسلام يعبر عن ذلك بالضحك؟!! بل المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام أنه في مثل هذه المواقف يغضب بل هو لا يغضب إلا في مثل هذه الظروف عندما تنتهك حرمات الله، ويقول متقول على الله بغير علم. هذا هو المعروف لدى أهل العلم. لهذا كله فإن محاولة النفاة رد أحاديث الأصابع بعد أن رواها الشیخان: البخاري ومسلم وغيرهما، بذلك السبب الواهي وتناسيمهم لأحاديث أخرى فيها ذكر الأصابع بل دعوى بعضهم أن ذكر الأصابع لم يرد في القرآن أو في حديث مقطوع به فإن محاولة النفاة هذه محاولة فاشلة فلا

⁵⁹⁴ استقينا هذه المعاني من شرح الإمام النووي على مسلم، وفتح الباري على البخاري عند عرض أحاديث الأصابع.
⁵⁹⁵ سورة الأنعام آية: 91.

ينبغي أن يتأثر بها طلاب العلم كما علمت. وأما القول: إن الأصابع لم يرد ذكرها في القرآن (فكلمة حق أريد بها باطل) نعم لم يرد ذكر الأصابع في القرآن، فماذا يعني ذلك؟!! هل يعني ذلك بأننا لا ثبت للأصابع لأنها غير مذكورة في القرآن؟!! بل يلزم من ذلك أننا لا ثبت الفرح والضحك وننزل رب آخر كل ليلة وغيرها من الصفات التي انفردت بها السنة، وهذا مفهوم جهمي صرف كما ترى!!

فعلى أصحاب هذه المحاولة أن يحددو موافتهم من الصفات التي انفردت بها الأحاديث الصحيحة، إما أن يثبتوها كلها، أو أن ينفواها كلها، وإلا فهم متناقضون ومضطربون. والتناقض والاضطراب من الصفات الالازمة لكل من أعرض عن هدي رسول الله عليه الصلاة والسلام والتمس الحق والهدى خارج هديه عليه الصلاة والسلام، هذا موقف الذين حاولوا رد الأحاديث.

وأما الذين أثبتو الأحاديث فلهم موقف آخر. وهو محاولة التأويل بدعوى أن مثل هذه النصوص لا يراد ظاهرها لأن الأدلة العقلية تأبى، فلا بد من التأويل إلى ما يليق بالله ويقبله العقل. أما هؤلاء فلم يأتوا بجديد بل هو أسلوب تعودناه في مثل هذه الموضع. فيا ترى كيف يكون التأويل بالنسبة للأصابع؟

قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالأصابع خلقاً يخلقه الله ليحمله ما تحمله الأصابع، وقال آخرون: لعل المراد بالأصابع نعمة النفع والدفع أو أثر الفضل والعدل⁵⁹⁶، إلى آخر تلك التكفلات التي هم في غنى عنها لو وفقو.

ومن أنكر هذا التحريف والتکلف في معنى الحافظ ابن حجر في فتح الباري حيث أوضح أن في تصرف هؤلاء المتأولة الطعن في ثقات الرواية، ورد الأخبار الثابتة، إلى أن قال: ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الراوي للزم فيه تقرير النبي صلى الله عليه وسلم على الباطل وسكته عن الإنكار - وحاشاه من ذلك، ثم قال الحافظ: ومن أنكر بل تشدد في الإنكار على من ادعى أن الضحك في الحديث كان على سبيل الإنكار، -

⁵⁹⁶ الأسماء والصفات للبيهقي ص: 341

الإمام ابن خزيمة - بعد أن أورد هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه⁵⁹⁷ اهـ. يا له من موقف غريب !!

هل هؤلاء يدعون أنهم أعلم بالله وما يليق به من رسول الله؟! أو من أصحاب رسول الله أو من التابعين لهم بإحسان وبايمان؟! حقاً إنه موقف يختار فيه المرء ولا يدرى كيف يفسره!! وعلى كل حال فهذه مواقف ثلاثة تمحضت من دراسة أحاديث الأصابع ومواقف الناس منها، وهي كالتالي:

1- إثبات صفة الأصابع كما جاءت بها السنة.

2- تأويل الأحاديث الواردة والخروج بها عن ظاهرها.

3- إنكار الأحاديث وردها بدعوى أنها مخالفة للأدلة العقلية القطعية في زعمهم.

والحق أبلج والباطل بلج ...

الصفة السابعة عشرة: صفة الساق لله تعالى على ما يليق به:

ورد ذكر صفة الساق في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله تعالى: {يَوْمٌ يُكَسِّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدَعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ} ⁵⁹⁸.

والملاحظ ورود هذه الصفة منكرة دون أن تصاف إلى الله بخلاف الصفات الأخرى، التي جاءت مضافة إلى الله ومحضة به، ذلك الاختصاص الذي يزيل الإشكال، أو دعوى المشاركة بين الخالق والمخلوق في حقائق الصفات.

وهذا التنكير هو الذي جعل الصحابة والتابعين يختلفون في المراد (بالساق)، هل الساق صفة من صفات الله كالوجه واليد والقدم؟ أو للساق معنى آخر. روي عن ابن عباس قوله: إن الله يكشف عن قدرته التي تظهر بها الشدة. وأسنده البيهقي الأثر المذكور عن ابن عباس بسندين كلامهما حسن ⁵⁹⁹ اهـ.

وجاء عن أبي موسى الأشعري في تفسير الساق "عن نور عظيم". وقال ابن فورك:
معناه ما يتجدد للمؤمنين من العفو والألطاف.

⁵⁹⁷ فتح الباري شرح صحيح البخاري 169/17

⁵⁹⁸ سورة القلم آية: 42.

⁵⁹⁹ ابن حجر فتح الباري نقلًا عن الخطابي 200/17

ويروى عن المهلب: كشف الساق للمؤمنين رحمة ولغيرهم نعمة⁶⁰⁰.

وذكر ابن القيم اختلاف الصحابة في المراد بالساق، ويرى أنه ليس في ظاهر الآية ما يدل على أنه صفة لله تعالى، لأنه سبحانه وتعالى لم يضف الساق إلى نفسه بل ذكره مجردًا ومنكراً كما تقدم⁶⁰¹.

ويرى ابن القيم أن الذين يثبتونه صفة لله، إنما يثبتونه بدليل خارجي، وهو حديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو من أحاديث الشفاعة ويميل ابن القيم إلى أن الساق صفة من صفات الله مثل الوجه واليد وغيرهما، وتنكيره للتعظيم والتفحيم.

ويرى ابن القيم أن حمل الآية على الشدة لا يصح ويعلل ذلك لأن في لغة العرب إنما يقال كُشِفَتْ الشدة عن القوم، ولا يقال كشفت عن الشدة، مثل قوله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ}، فالعذاب هو المكشوف في الآية وليس هو المكشوف عنه.

ويرى ابن القيم أن سياق الآية يوم يكشف عن ساق لا يدل على ما قيل إن معنى الساق الشدة. فلذلك يرى أن تفسير الآية بحديث أبي سعيد الخدري الذي أشرنا إليه، فيصبح معنى الآية - في ضوء الحديث المذكور: "يوم يكشف الله عباده عن ساقه فيدعون إلى السجود فيسجد المؤمنون الذي يسجدون لله مخلصين له الدين، أما المنافقون المراءون الذين كانوا يسجدون رياء وسمعة فلا يستطيعون السجود، إذ تصبح ظهورهم طبقاً واحداً فلا يستطيعون الهبوط للسجود". وفي حديث أبي سعيد الخدري جاء قوله عليه الصلاة والسلام: "فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم، وإننا سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإننا ننتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار على غير الصورة⁶⁰² التي رأوه فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا. فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: (الساق) فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله

⁶⁰⁰ المصدر السابق.

⁶⁰¹ مختصر الصواعق المرسلة ص: 23.

⁶⁰² جاء في تفسير الصورة عدة أقوال، ولكن الذي يميل إليه أهل الحديث أن المراد بالصورة الصفات أي يتجلى لهم بصفات غير الصفات التي تجلى لهم بها أول مرة، ويستدل ابن قتيبة بهذا الحديث على إثبات الصورة لله، ولكنها ليست كالصور، تأوיל مختلف الحديث لابن قتيبة ص: 217-221.

أما الحديث فمتفق عليه، ذكره البخاري في كتاب التوحيد، فتح الباري 17/199.

رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرياني جهنم" الحديث.

فانطلاقاً من هذا الحديث الصحيح الذي يثبت الله ساقاً نرى أن الآية من آيات الصفات المفسرة بالسنة لأن الآية جاءت محتملة المعنى حيث جاء الساق مجرداً عن الإضافة المخصوصة فجاءت السنة مبينة بأن المراد بالساق هو ساق الرحمن. فنسلك في إثبات الساق مسلك السلف الصالح الذي سلّكناه من قبل، وهو إثبات بلا تمثيل ولا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل.

فالكلام في صفة الساق كالكلام في صفة اليد والوجه مثلاً. فكما أن اليد والوجه والقدم والبصر والعين صفات تليق به تعالى، وليس جوارح وأعضاء وأبعاضاً وأجزاء كصفاتنا بل هي صفات خبرية ثابتة ينتهي علمنا فيها عند المعنى العام دون تكلف لمعرفة كيفيتها، فكذلك الساق صفة لله ثابتة ثيوت تلك الصفات، وعلى غرارها إذ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، ولأن الكلام في الصفات الخبرية كالكلام في الصفات الذاتية يحتجي حذوه.

وأما الخلاف والنزاع الذي جرى بين الصحابة والتابعين فينبغي أن نعتبره منتهياً بعد ثبوت حديث أبي سعيد الخدري الذي نعده تفسيراً لآية المحملة، ثم نعده فيصلاً في هذه القضية. هذه هي طريقة أهل العلم قديماً وحديثاً، إذ لا يلتفتون إلى أقوال أهل العلم الاجتهادية وآرائهم بعد ثبوت السنة، ولا سيما إذا كانت السنة قد جاءت مفسرة أو مفصلة لما أجمل في القرآن وهذا ما نحن بصدده. وبالله التوفيق.

الصفة الثامنة عشرة: صفة العين الله تعالى على ما يليق به سبحانه
العين صفة الله تعالى بلا كيف، وهي من الصفات الخبرية الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، وقد جاء ذكر العين في القرآن الكريم على حالتين:

1 - ذكرت العين مضافة إلى ضمير المفرد. مثل قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى

603 **عيّني}**.

2- ذكرت العين بصيغة الجمع، مضافة إلى ضمير الجمع مثله قوله تعالى: {تَجْرِي

⁶⁰⁴ بِأَعْيُنَا} .

وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط، لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد. مثل قوله تعالى: {وَإِن تَعُدُوا نَعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}⁶⁰⁵، فالمراد نعم الله المتنوعة التي لا تدخل تحت الحصر والعد.

وقوله تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}⁶⁰⁶، فالمراد بها جميع ليالي رمضان. ولو قال قائل: نظرت بعيوني أو وضعت المنظار على عيني. لا يكاد يخطر ببال أحد من سمع هذا الكلام أن هذا القائل ليست له إلا عين واحدة. هذا ما لا يخطر ببال أحد أبداً⁶⁰⁷.

قال الإمام ابن القيم: إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً أو مضمراً فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنَا}⁶⁰⁸، و{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا}⁶⁰⁹، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله تعالى: {بِيَدِكَ الْخَيْرُ}⁶¹⁰، و{بِيَدِهِ الْمُلْكُ}⁶¹¹. وإن أضيفت إلى جمع جمعت كقوله تعالى: {مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِنَا}⁶¹²، وقد تقدم هذا البحث في صفة اليد مستوفى.

وقد ذكرت العين في السنة في قصة المسيح الدجال في حديث عبد الله بن عمر الذي يقول فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفِي عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِيهِ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرَ الْعَيْنَ الْيَمِنِيَّ، كَأَنَّهَا عَنْبَةٌ طَافِيَّةٌ"⁶¹³، وللحديث سبب وهو أن الدجال ذكر عند النبي عليه الصلاة والسلام، وأخبر أنه ما مننبي إلا وقد أمر أمته أو نصحهم بالاستعاذه منه، ثم ذكر أن من صفاته أنه أعور العين

⁶⁰⁴ سورة القمر آية: 14.

⁶⁰⁵ سورة إبراهيم آية: 34، والنحل آية: 18.

⁶⁰⁶ سورة البقرة آية: 187.

⁶⁰⁷ مختصر الصواعق المرسلة ص: 25.

⁶⁰⁸ سورة القمر آية: 14.

⁶⁰⁹ سورة المؤمنون آية: 27.

⁶¹⁰ سورة آل عمران آية: 26.

⁶¹¹ سورة الملك آية: 1.

⁶¹² سورة يس آية: 71.

⁶¹³ الحديث متفق عليه، ذكره البخاري في باب ذكر الدجال 204/16، مصطفى البابي، وذكره الإمام مسلم في باب ذكر الدجال 18/59-60 شرح النووي.

اليمني. وأنه على الرغم من دعوى الألوهية وما يجري له من الأمور الخارقة للعادة امتحاناً واستدراجاً فيه عيوب ونقائص، وهو عاجز عن دفع ذلك عن نفسه، فلن يتبع عليكم الأمر في شأنه لأنّه ناقص إذ به عَوْرٌ، وربكم ليس بأعور، بل له سبحانه عينان يبصر بهما لأنّه سميع بصير.

وهناك زيادة عند مسلم وبعض أصحاب السنن، وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومئذ للناس: "تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت". هذا ملخص قصة المسيح الدجال مع بيان السبب.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له: أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله عليه الصلاة والسلام الاستواء على العرش، والنّزول، والعين، واليد، والنفس، فلا يُصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل، إذ لو لا إخبار الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى. وقال الطيبي مؤيداً ما قاله السهروردي: هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح⁶¹⁴.

وأما إشارته عليه الصلاة والسلام بيده إلى عينيه - وهو يخبر عن عور المسيح الدجال - فإنما تفید تأکید المعنى الحقيقی للعين على ما يليق بالله تعالى ولا یفهم منها أن عین الله جارحة كأعیننا بل له سبحانه وتعالی عین حقيقة تليق بعظمته وجلاله وقدمه. وللمخلوق عین حقيقة تناسب حاله وحدوده وضعفه وليس الحقيقة كالحقيقة، وهذا شأن جميع الصفات التي فيها المشاركة اللغوية مع صفات المخلوق كما تقدم هذا البحث في غير موضع من الرسالة.

روى عكرمة عن ابن عباس عند⁶¹⁵ تفسير قوله تعالى: {وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا}، أنه قال رضي الله عنه بعين الله تبارك وتعالى، قال الإمام البيهقي - بعد روایة قول ابن عباس السالف الذکر: ومن أصحابنا من حمل العين المذكورة في الكتاب على الرؤية. وقال: قوله تعالى: {وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، معناه بمرأى مني، وقوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} أي بمرأى منا،

⁶¹⁴فتح الباري 161/17 كتاب التوحيد.

⁶¹⁵الأسماء والصفات للبيهقي ص: 313

و كذلك قوله: **{تَجْرِي بِأَعْيُنَنَا}**, وقد يكون ذلك من صفات الذات. وتكون صفة واحدة، والجمع فيه للتعظيم.

و منهم من حملها على الحفظ والكلاء. وقال: إنها من صفات الفعل والجمع فيها شائع، ومن قال بأحد هذين زعم أن المراد بالخبر نفي نقص العور عن الله سبحانه و تعالى، وأنه لا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين من الآفات والنقائص. ثم قال البيهقي: "والذي يدل عليه ظاهر الكتاب والسنة من إثبات العين صفة، لا من حيث (الحدقة) أولى. وبالله التوفيق"⁶¹⁶ أ.هـ

وهذا القول الذي اختاره الإمام البيهقي هو الذي عليه سلف الأمة، وأما محاولة بعض الناس حمل النصوص على خلاف ما يظهر من ألفاظها فمحاولة جهمية معروفة. وأما تفسير من فسر الآيات السابقة بالرؤبة مع إنكار صفة العين شبّهُ بقول الجهمية القائلين: إنه تعالى: سمِيع بلا سمع، بصير بلا بصر، علِيم بلا علم. وهو قول مرفوض شرعاً وعقلاً، كما تقدم في غير موضع.

وأما عند أهل السنة فجميع هذه الصفات تساق سوقاً واحداً خبرية أو عقلية. ذاتية أو فعلية فثبتت بلا كيف، ولا يلزم من إثباتها تشبيه ولا تحسيم كما يظن النفاوة بل يلزم من تحريف القول فيها التعطيل. ويترتب من ذلك تكذيب خبر الله وخبر رسوله عليه الصلاة والسلام. هذا ما يلزم النفاوة - ولا محالة - وهم كل من ينفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، أو بالسنة الصحيحة فقط، أدركوا ذلك أو لم يدركوا. والله المستعان.

الصفة التاسعة عشرة: صدق الْقَدْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى

هذه الصفة كالتي قبلها من الصفات الخبرية والفعلية محل صراع حاد بين السلف والخلف.

أما السلف - فهم كعادتهم - يرون أن المقام ليس مقام اجتهاد أو قياس أو استحسان، وإنما هو مقام تسليم الله ولرسوله عليه الصلاة والسلام وأنه لا قول لأحد مع قول الله وقول رسوله المعصوم عليه الصلاة والسلام، الذي أمره ربه أن يبلغ ما أنزل إليه.

⁶¹⁶ راجع الأسماء والصفات للبيهقي، مبحث العين ص: 312 دار إحياء التراث العربي.

فمما بلغه الرسول عن الله لأمته بعضُ أوصاف الجنة والنار، وذلك من الأمور الغيبية التي أطلع الله عليها نبيه عليه الصلاة والسلام، ولا سبيل للإنسان العادي أن يقول فيها قولًا اجتهاداً أو استحساناً⁶¹⁷.

ومما أخبر الرسول هنا ما نص عليه الحديث الآتي حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يزال يلقى فيها -يعني النار- وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزو ببعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط بعذتك وكرمك"⁶¹⁷.

ففي مثل هذا المقام التوفيقي لا ينبغي للمرء الناصح لنفسه أن يحاول استخدام قوة عقله أو سلطان فلسفته أو ما ورثه من مشائخه ليقول في هذا النص النبوي قولًا يخالف قول المعصوم، فيفسر الحديث كما يريد ويستحسن، بل عليه أن يقول كما قال الإمام الشافعي: "آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله. وأمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله عليه الصلاة والسلام"، وفي هذه الصفة (القدم) قد صح عنه الحديث السابق آنفًا الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، فما علينا إلا التسليم لرسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد ساق الإمام مسلم للحديث المذكور روایات كثيرة، وهو في الأصل متفق عليه وموضع الحديث - على اختلاف راوياته وطريقه - المحاججة بين الجنة والنار، فالحديث الأول في الموضوع: حديث الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "تحاجّت النار والجنة فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمحبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم، فقال الله للجنة: أنت رحمي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أذعب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكم ملؤها. فأما النار فلا تمتلي فيضع قدمه عليها فتقول: قط قط قط 618 فهناك تمتلي ويزوي ببعضها على بعض".

وهذا الحديث رواه غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري،

⁶¹⁷ انظر: البخاري التوحيد 13/434، ومسلم 4/2186-2188، والصفات للدارقطني 11/17.
⁶¹⁸ (قط) فيها ثلاثة لغات: سكون الطاء، وكسر الطاء بتنوين، وكسرها بلا تنوين، وقد ترد (قد) بالدال بدل الطاء ومعناها: حسبي حسبي، وكفاني وامتلأت. شرح مسلم 17/162.

وأنس بن مالك خادم رسوله الله عليه الصلاة والسلام، وفي بعض روایاته: "حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول: قط قط قط ثلاثةٌ"، وفي بعضها: "حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول: قط قط وعزتك"⁶¹⁹.

وموقف السلف من معنى الحديث هو أن الحديث من أحاديث الصفات، وأن القدم صفة من الصفات الخبرية التي تمر كما جاءت دون تأويل أو تحريف في النص، ودون تشبيه أو تمثيل لصفات الله بصفات خلقه، فلا تقاس قدمه بأقدام خلقه، ولا رجله بأرجل مخلوقاته، بل يكتفى بالمعنى الوضعي للكلمة دون محاولة لإدراك حقيقة قدمه، وقد عجزنا عن إدراك حقيقة ذاته سبحانه فآمنا وسلمنا لله ولرسوله، هذا موقف لا يتغير ولا يتبدل بالنسبة لأتباع السلف، بل موقف ثابت وهو اتباع النصوص في جميع الصفات خبرية أو غيرها. "اتبعوا ولا تتبدعوا وقد كفيفتم"⁶²⁰. وبالله التوفيق.

والحديث بجميع روایاته يدل على أن الله سوف يخلق في الجنة والنار تمييزاً وقدرة على الكلام دون أن يكون لهما آلات التكلم المعتادة، وقد تقدم هذا البحث في صفة الكلام. وأما الخلف فقد تكفلوا في تأويل هذا الحديث أكثر من تكليفهم في تأويل أي نص آخر من نصوص الصفات، فتكلفهم هنا يشبه تكليف القرامطة في نصوص المعاد، بل لجميع نصوص الشريعة.

فزعم المتكلمون الخلف هنا أن الحديث -كغيره من نصوص الصفات - يؤول بما يليق بالله - يا سبحانه الله - فمتي دلت النصوص بظاهرها على ما لا يليق بالله لو فهمت؟!!

فقال بعضهم: المراد بالقدم هنا المتقدم ومعناه حتى يضع الله تعالى⁶²¹ فيها ما قدمه لها من أهل العذاب!!

وأنت تلاحظ أن هذا التأويل التقليدي لم يكن لهم من الانتباه للضمير (قدمه) أو (رجله) وأن الذي لا يختلف فيه أهل العلم أن الإضافة تخصص الصفة للموصوف، بمعنى

⁶¹⁹ النووي شرح مسلم 17/82-84.

⁶²⁰ عبد الله بن مسعود، وتقديره.

⁶²¹ راجع الأسماء والصفات للبيهقي، وشرح النووي على مسلم.

إذا قلنا: علم الله وقدرة الله مثلاً، فلا يشترك علم المخلوق أو قدرته في علم الله المختص بالإضافة بأي نوع من أنواع المشاركة وكذلك قدرته، لأن الاشتراك لا يقع إلا في المطلق الكلي غير المختص لا بالمخلوق ولا بالخالق. وكذلك يقال هنا لأن القدم لم ترد إلا مضافة مختصة ولا يشترك معها شيء من أقدام خلقه، ولا مشابهة بينهما - وهذا التأويل الذي تورط فيه أتباع الفلاسفة لم يفطن لهذا المعنى، وعدم التفطن لهذا المعنى هو سر تخطبهم في جميع الصفات الخبرية والفعلية، وهي قاعدة⁶²² لو علموها لعالجت لهم جميع مشاكلهم وقضت على تخطبائهم الكثيرة.

وأما الرواية التي فيها: "حتى يضع الله فيها رجله" فقد حاولوا فيها أولاً تضليل الحديث ليريحوا أنفسهم من ذلك التأويل المستكره والمستنكر ولكنهم لم يفلحوا، لأن الحديث صحيح رواه مسلم في صحيحه.

قال الإمام النووي: "فقد زعم ابن فورك أن هذه الرواية غير ثابتة عند أهل النقل، ولكن قد رواها مسلم وغيره في صحيحه".

فلجأوا أخيراً إلى نوع غريب من التأويل حيث قالوا: يجوز أن يراد بالرجل الجماعة من الناس، كما يقال: رجل من (جراد) أي قطعة منه.

وهو تكلف غني عن الإعلان عنه، بل هو يعلن عن نفسه، والاستشهاد برجل الجراد أشد غرابة كما ترى، وهو استشهاد يضحك (الحزين).

وقال بعضهم: المراد بالقدم قوم استحقوها وخلقوا لها، وقالوا: لا بد من صرف لفظة (القدم) عن ظاهرها لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى⁶²³ اهـ.

فمن ذا الذي قال: إن قَدَمَ الله جارحة من الجوارح حتى تضطروا إلى مثل هذه المناقضة واستعمال هذا الأسلوب، بل الذي عليه سلف هذه الأمة - وهم أعلم وأدق وأقدم - أن قَدَمَ الله وجه الله ويده وعينه وأصابعه، وما في معناها من هذه الصفات

⁶²² وقد حقق هذه القاعدة وأوضحها شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدميرية ص: 80.

⁶²³ شرح مسلم لل النووي 17/84.

الخبرية صفات الله على ما يليق به سبحانه، وليس بجواح له، ولا نعلم عن كُنهها شيئاً، بل آمنا بها على مراد الله ومراد رسوله من حيث الحقيقة والمعنى. ومعنى الكلمة معلوم من الوضع والكيف مجهول والبحث عن الكيفية بدعة، أحدثها علماء الكلام، والإيمان بها على أنها صفات ذاتية لله واجب من واجبات الدين الإسلامي، ولا ينقضي عجبنا عندما أقرأ هذه العبارة التقليدية المتوارثة: "إن الدليل العقلي القطعي يقتضي استحالة قيام الجواح بالله" أو عبارة قريبة من هذه.

فكيف يعتقد مسلم أن الآيات القرآنية التي أنزلها الله العليم الحكيم، والأحاديث النبوية التي أوحها إلى رسوله عليه الصلاة والسلام تدل بظواهرها على ما لا يليق بالله أو على ما هو مستحيل على الله، ثم لا يبين الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام ما يليق بالله وما لا يليق من كلامه وكلام ربها سبحانه، الذي أنزله عليه وكلفه بالبيان، ويستمر الوضع على اعتقاد ذلك الحال من ظواهر النصوص في عهد الراشدين، ثم في عهد الأمويين وصدر من خلافة العباسيين، فالناس لا تزال تعتقد أن الله تعالى سميع بسمع، وبصير ببصر، وله وجه يليق به، وهو مستوٍ على عرشه، ويدعى من فوق خلقه، وهو ينزل إذا شاء وكيف شاء، ويحييء كيف يشاء يوم القيمة وله عين، وله قَدْمٌ، وكل ذلك لا يقول ولا يحول بل يبقى على ظاهره الذي هو حقيقته كما يليق بالله، إلى أن جاء شيوخ المتكلفة وتلامذتهم من علماء الكلام فعلموا الناس أن اعتقاد ظواهر نصوص الصفات لا يجوز، وهو إما كفر أو فسق لأنه يؤدي إلى اعتقاد ما لا يليق بالله تعالى، وهل قائلوا هذا القول يعتقدون أنهم أعلم بما يليق بالله وما لا يليق من الله ومن رسوله؟ أم ماذا يريدون؟!! إنه تصرف يحتار المرء في معرفة مغزاها.

الصفة المكملة للعشرين: إثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة للمؤمنين

هذه الرؤية التي سنتحدث عنها في آخر جولتنا في الحديث عن الصفات الخبرية وصفات الأفعال نود أن تكون مسك الختام للحديث عن تلك الصفات التي يكون الإيمان بها والتسليم لله ولرسوله فيها سبباً للوصول إلى هذه النعمة التي تعتبر - بحق - أعظم نعمة أعدها الله ليكرم بها خواص عباده في دار كرامته. وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله وبما جاء

عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن ينكروا من ذلك شيئاً بأهوائهم وآرائهم كما فعلت الجهمية والباطنية وجميع الطوائف المنحرفة في الأصول والفروع. والكلام في هذه المسألة على الوجه التالي:

أولاً: ذكر بعض الآيات الدالة على الرؤية وبيان وجه الدلالة وكلام السلف حولها.

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث الصحيحة التي تثبت الرؤية، مع ذكر أقوال بعض السلف لتوضيح معانٍ النصوص من تفاسيرهم وذكر الأدلة العقلية المؤيدة للأدلة النقلية مع الإجابة على شبه المعارضين النافدين للرؤوية:

الآية الأولى قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَّاَضِرَّةٌ إِلَى رَبِّهَا تَأَظِرَّةٌ} ⁶²⁴، وهذه الآية لو سلّمت من تحريف المحرفين، وتدبّرها مؤمن سليم الفطرة وجدها تنادي نداء صريحاً بأن الله تعالى يُرى عياناً بالأبصار - يوم القيمة - وبيان ذلك كالتالي:

إن الفعل (نظر) له عدة استعمالات في اللغة على حسب تعديه بنفسه أو بواسطة حرف جر، فإن عدي بنفسه يكون معناه التوقف والانتظار، وذلك كقوله تعالى: {انظُرُونَا نَقْتِبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} ⁶²⁵، أي انتظرونا وتوقفوا لنا حتى نقتبس من نوركم، وإن عدي بـ (في) فمعناه التفكّر والاعتبار. كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ⁶²⁶، وإن عدي بـ (إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار، وذلك كقوله تعالى: {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} ⁶²⁷.

وآية الباب من النوع الأخير بل هي أبلغ في الدلالة على المراد، حيث أضيف النظر إلى الوجه الذي هو محل البصر، وقد فهم هذا المعنى من الآية علماء السلف قاطبة دون أن يشذ منهم أحد، وسوف نتحدث عن موقفهم وفهمهم إن شاء الله.

الآية الثانية قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ⁶²⁸، واللاحظ أن هذه الآية من أدلة نفاة الرؤية إلا أن بعض المحققين يرى -

⁶²⁴ سورة القيمة آية: 23-22.

⁶²⁵ سورة الحديد آية: 13.

⁶²⁶ سورة الأعراف آية: 185.

⁶²⁷ سورة الأنعام آية: 99.

⁶²⁸ سورة الأنعام آية: 103.

ورأيه هو الصواب - أن الآية دلالتها على جواز الرؤية أوضح، بل لا تدل على امتناع الرؤية إلا بنوع من التكليف والتحريف، لأن الله تعالى ذكر هذا الخبر في سياق التمدح. ومن المعلوم بالضرورة وبالنظر السليم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية.

وقد ذكرنا في غير موضعه - نقاًلاً عن بعض أهل العلم: أن العدم الخض ليس فيه مدح لأنه ليس بكمال. وإنما يكون العدم مدحًا إذا تضمن أمراً وجودياً مثل تمدحه سبحانه بـنفي السنة والنوم، لأنه يتضمن كمال القيومية ونفي الموت لأنه يتضمن كمال الحياة، وهكذا جميع الصفات السلبية التي تمدح الله بها تتضمن أمراً وجودياً على ما شرحتنا. ففي هذه المسألة إنما تمدح الله بعدم إدراك أبصار العباد وإحاطتهم به لا بعدم الرؤية، لأنه لو كان لا يُرى لشارك سبحانه العدم وهو الذي لا يُرى، ومشاركة العدم ليست بكمال وليس فيها مدح، بل في ذلك من الانتقاد ما لا يدركه النفاه بـلـهـلـهـمـ أو تـجـاهـلـهـمـ، وإذا كان من الواجب تنزيه الله عن مشاركة أي مخلوق موجود ومشابهته فيما يختص به ذلك المخلوق فكيف يستسيغ النفاه مشاركة الله للعدم الصرف في خصائصه وهو عدم الرؤية؟ والله المستعان.

وقوله تعالى: **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** إنما يدل على غاية عظمته وهي أنه تعالى أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك ولا يحيط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية. ويشهد لما ذكرنا قوله تعالى حكاية للحوار الذي جرى بين موسى وقومه المؤمنين عندما رأوا فرعون وجنوبيه من مكان بعيد: **{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*** **{قَالَ كَلَّا}**⁶²⁹ ، ومعلوم من السياق أنه لم ينف الرؤية - وهي واقعة بالفعل - كما أنه لم يريدوا بقولهم **{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}**، إما لم رئيسون، ولكنهم كانوا قد خافوا أن هذا الجبار صار بمقربة منهم حتى رأوه سيدركهم ويلحق بهم ويؤذيهما، وهذا المعنى هو الذي نفاه موسى بقوله **{كَلَّا}**، وقد وعده ربه سبحانه أنه لا يخاف در كاً ولا يخشى، إذ يقول سبحانه: **{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ**

طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسِّا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} {⁶³⁰.

وما يذكره بعض أهل العلم بهذا الصدد أن الرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك. كما أنه يُعلم ولا يحيط به علماً، وهذا هو الذي فهمه السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المشهور لهم بالإمامية، قال ابن عباس رضي الله عنه: **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** لا تحيط به الأ بصار. قال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأ بصار. قال عطية العوفي التابعي: ينظرون إلى الله ولا تحيط أ بصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم ثم تلا قوله تعالى: **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** الآية. ويعني العوفي أن هذا معنى الآية وتفسيرها. ولذلك قال رحمه الله: فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأ بصارهم عياناً ولا تدركه أ بصارهم. معنى أنها تحيط به سبحانه إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئاً يحيط به. أما هو سبحانه بكل شيء محظوظ. وهكذا يسمع كلامه من شاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علّمهم ولا يحيطون بعلمه ⁶³¹.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: في الإدراك أقوال للعلماء من السلف:

أحدها: لا تدركه الأ بصار في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة، ويكون الإدراك بمعنى الرؤية عند هؤلاء.

وثانيها: الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم، ومعنى الإدراك معرفة الحقيقة عند هؤلاء.

وثالثها: أن الإدراك أخص من الرؤية لأن الإدراك بمعنى الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ⁶³² اهـ.

قال الإمام ابن حجر الطبرى عند تأویل هذه الآية: اختلف أهل التأویل في تأویل قوله

⁶³⁰ سورة طه آية: 77.

⁶³¹ استقينا هذه المعلومات من بعض كتب ابن القيم، ومن فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، راجع فتح الباري:

كتاب التوحيد ص: 195، وما بعدها وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص: 184-185.

⁶³² الحافظ ابن كثير 2 / 161 ط مكتبة التراث الإسلامي حلب.

تعالى {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}:

قال بعضهم: معناه لا تحيط به الأ بصار، وهو يحيط بها سبحانه، وقال آخرون: لا تدركه أ بصار الخلاق في الدنيا، وأ ما في الآخرة فإنها تدركه، وقال أهل هذه المقالة، الإدراك في هذا الموضع الرؤية⁶³³ اهـ.

والراجح هو القول الذي تشهد له الأحاديث التي سيأتي ذكرها إن شاء الله لأنها تعتبر تفسيراً للآية كما هو معروف عند أهل العلم من السلف، وهو إثبات الرؤية في الآخرة دون الدنيا، وإن الإدراك المنفي أمر زائد على مجرد الرؤية، وهو الإهاطة، والله أعلم.

ومن الآيات التي استدل بها أهل السنة على إثبات الرؤية قوله تعالى: {لَن تَرَانِي وَلَكِن انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّا} ⁶³⁴، والآية من الآيات التي يتعلق بها النفاذه ظناً منهم بأنها تنفي الرؤية⁶³⁵، إلا أن أهل السنة قلبوا عليهم الحجة، فأثبتوا أن الآية من أدلةهم على إثبات الرؤية عكس ما زعموا. ومن أوجه دلالة الآية على الرؤية ما يلي:

1- لا يظن بكليم الله موسى عليه السلام أن يسأل الله مالا يليق بالله، بل ما هو من أبطل الباطل في زعمهم. وهو من أعرف الناس بما يليق بالله وما لا يليق به سبحانه.

2- أن الله تعالى لم ينكر عليه سؤاله، علمًا بأنه تعالى قد أنكر على نبيه نوح عليه السلام سؤاله حين سأله بحارة ابنه فقال: {إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} ⁶³⁶، فقال: {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ} ⁶³⁷، ولو كان سؤال رؤية الله من قبيل نوح بحارة ابنه لأنكر عليه سبحانه كما أنكر على نوح عليه السلام. وعدم الإنكار دل على أنه إنما سأله ممكناً لا مستحيلاً.

⁶³³ الطبرى 13/12، تحقيق محمود محمد شاكر وتحريجه.

⁶³⁴ سورة الأعراف آية: 143.

⁶³⁵ وليس لهم حجة لغوية فيما زعموا أن (لن) تفيد التأييد، كما سيأتي بيان ذلك، ولكنهم زعموا من عند أنفسهم أنها في الأصل للتأييد وإن استعملت في غير ذلك فاستعمال مجازي، فغاية ما ذكره صاحب الأصول القاضي عبد الجبار: أن الله نفى عن نفسه الرؤية بما يفيد التأييد حقيقة، فالمجاز هو ماجأهم الوحيد صدق دعوى المجاز أو كذبت، فإذا أرادوا تحريف نص ما أعلناه بالمجاز ثم فعلوا به من التحرير وتعطيل معناه تحت مظلة التأويل.

⁶³⁶ سورة هود آية: 46.

⁶³⁷ سورة هود آية: 47.

3- أن الله سبحانه أجابه بقوله {لَن تَرَانِي}، ولم يقل: إني لا أرى أو لست بمُرئٍ أو لا تجوز رؤيتي. أو عبارة قريبة من هذه العبارات التي تدل أن الرؤية غير ممكنة. والفرق بين الأسلوبين واضح لمن تأمل بإنصاف.

وبهذا عرفنا بأنه تعالى يُرى في الوقت الذي حده سبحانه لرؤيته، وأن نبيه موسى عليه السلام إنما سأله ما هو ممكناً، إلا أنه نبهه على أنه لا يقوى على الثبوت أمام التجلّي في هذه الدار لضعف قوة البشر في الدنيا، إلا أن الله سوف يمنحهم القوة التي تمكّنهم من الثبوت أمام تجليّي ربّ تعالى فِرْوَنَه عيَانًاً ولكن دون إِحاطة - كما تقدّم - وهذا المفهوم هو الذي اتفق عليه الصحابة والتبعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون.

4- وفي قوله تعالى: {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَ مَكَانًا فَسَوْفَ تَرَانِي}⁶³⁸، إشارة لطيفة وتنبيه إلى أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت أمام التجلّي، فكيف بك وبآمالك لأنك أضعف من الجبل يا موسى!

هذا... وأما دعوى المعتزلة وشيعتهم بأن (لن) تدل على التأييد فدعوى باطلة تأباهما اللغة، فإن (لن) إنما وضعت لنفي المستقبل، فأما التأييد فإنما يستفاد من قرائن خارجية، وهي لا تفيد التأييد بنفسها.

قال ابن هشام في أوضح المسالك: (ولن، وهي لنفي سيفعل) أي لنفي المستقبل (ولا تقتضي) تأييد النفي ولا تأكيد، خلافاً للزمخشري⁶³⁹ اهـ.
وفي هذا يقول ابن مالك في كافيته:

فقوله ارددْ وسواه فاعضدا
ومن يرى النفي بلن مؤبدا

فمحاولة تأييد النفي بلن محاولة جهمية مغرضة، ولكنها غير ناجحة بل مردودة كما قال ابن هشام.

ومن أقوى أدلة أهل السنة على إثبات الرؤية قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَحْجُبُونَ}⁶⁴⁰، ومن العقوبة التي يعاقب الله تعالى بها الكفار يوم القيمة أنه يحجبهم عن

⁶³⁸ سورة الأعراف آية: 143.

⁶³⁹ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ص: 577.

⁶⁴⁰ سورة المطففين آية: 15.

رؤيته، ووجه استدلالنا بالآية أن الله سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبي عن رؤية الله وعن سماع كلامه، فإذاً إن من أعظم نعم الله على المؤمنين أنهم يرونه عياناً ويسمعون كلامه سمعاً إذ لو لم يره المؤمنون، ولم يسمعوا كلامه، كانوا أيضاً محجوبي عن رؤيه تعالى.

وبهذا الأسلوب احتج الإمام الشافعي بالآية وغيره من الأئمة، وفي هذا الصدد يحدثنا الإمام (المزني) - وهو من كبار أصحاب الإمام الشافعي - إذ يقول المزني: سمعت الشافعي يقول في قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}**: "فيها دليل على أن أولياءه يرون ربهم يوم القيمة".

ثم يأتي زميله (الربيع بن سليمان) ليؤكد ما حكاه المزني، حيث يقول: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}**? فقال الشافعي: لما حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونوه في الرضى، قال الربيع: فقلت للشافعي: يا أبا عبد الله! وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدین الله. ثم قال الشافعي - وهو يؤكد هذا المعنى -: ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عز وجل⁶⁴¹.

وهناك آيات أخرى تدل على إثبات لقاء الله ورؤيته تعالى، وذلك مثل قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ}**⁶⁴²، وقوله تعالى: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ}**⁶⁴³، وقوله تعالى: **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْهُ سَلَامٌ}**⁶⁴⁴، وقوله سبحانه: **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ}**⁶⁴⁵، وهناك آيات أخرى كثيرة تنص على هذا المعنى.

واللقاء عند أهل اللغة يقتضي المعاينة ما لم يكن هناك مانع كالعمى مثلاً.

بعض الأحاديث الواردة في هذا الباب:

أما الأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقد ذكر الإمام ابن القيم أنها

⁶⁴¹ حادي الأرواح ص: 185.

⁶⁴² سورة البقرة آية: 223.

⁶⁴³ سورة البقرة آية: 46.

⁶⁴⁴ سورة الأحزاب آية: 44.

⁶⁴⁵ سورة الكهف آية: 110.

وصلت إلى حد التواتر، فسرد منها ثلاثين حديثاً⁶⁴⁶ مرفوعاً بين صحيح وحسن، بل بعضها مخرجة في الصحيحين أو في أحدهما.

وهناك أحاديث موقوفة وآثار عن الصحابة تُعطى حكم الرفع في اصطلاح المحدثين. ومن الأحاديث المرفوعة حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما في الصحيحين ونصه: "إِنَّ أَنَّاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَاةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟" قالوا: لا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "هَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَاةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟" قالوا: لا، قَالَ: "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ".⁶⁴⁷

ومثله حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ولفظه: كنا جلوساً عند النبي عليه الصلاة والسلام إذ نظر إلى القمر ليلة البدار، فقال: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته. فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا". وفي حديث آخر له رضي الله عنه: "إنكم سترون ربكم عياناً".⁶⁴⁸

لا يخفى أن المقصود من الحديدين وما في معناهما، هو تشبيه الرؤية بالرؤبة من حيث الوضوح والحقيقة، وعدم التكلف وعدم وجود التزاحم حال الرؤبة ولا يلزم من ذلك تشبيه المرئي إذ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

ومنها حديث صحيب الرومي رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ يَقُولُونَ: أَلَمْ تَبْيِضْ وُجُوهُنَا؟ أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ وَتَنْجِيَنَا مِنَ النَّارِ؟" فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم".⁶⁴⁹ ثم تلا هذه الآية: {لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا

⁶⁴⁶ حادي الأرواح ص: 184.

⁶⁴⁷ فتح الباري 195/17-196-196 مطبعة البابي الحلبي.

⁶⁴⁸ ابن القيم حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص: 208-188.

⁶⁴⁹ حادي الأرواح ص: 193.

تضامون بالتشديد من الضم أي لا يحصل انضمام بعضاكم إلى بعض بسبب الزحام، وبالتحفيف أي لا يلحقكم الضيم وظلم ببعضكم بعضاً من الزحام.

الْحُسْنَى وَزِيَادَةُ { ٦٥٠ }

وقال الإمام ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: "وهذا حديث رواه الأئمة عن حماد بن سلامة وتلقوه عن نبيهم بالقبول والتصديق"^{٦٥١}.

ولو ذهبنا نسوق كل ما ورد من الآيات والآثار وأقوال أهل العلم سلفاً وخلفاً في موضوع الرؤية مع مناقشتها لو فعلنا ذلك لأدى بنا إلى الخروج عن موضوع الرسالة، لذا نرى الاكتفاء بالنصوص التي أوردناها - فثبتت رؤية الله في الآخرة للمؤمنين أصبح في غاية من الوضوح، ولم يبق في المقام خلاف يعتدّ به.

إلا خلاف له حظ من النظر
وليس كل خلاف جاء معتبراً
وفيما يلي نستعرض الآراء في معنى الرؤية.
الآراء في معنى الرؤية:

يروي الإمام أبو الحسن الأشعري أن المعتزلة أجمعوا على أن الله لا يُرى بالأبصار، ثم اختلفوا فيما بينهم هل يُرى بالقلوب أم لا؟ وقال أكثر المعتزلة أن الله يُرى بالقلوب بمعنى أنه يُعلم^{٦٥٢}.

وأنكر بعضهم حتى هذا النوع من الرؤية بل صرحت جماعة من المعتزلة والخارجين وطوائف من المرجئة وبعض الزيدية بأن الله لا يُرى بالأبصار في الدنيا والآخرة، ولا يجوز ذلك عليه تعالى. وأما الأشعرية فإنهم يثبتون الرؤية بالأبصار في الآخرة ولكن دون مقابلة ودون إثبات للفوقيّة لله تعالى كما أثبتت الله لنفسه **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ}**، كما تقدمت في بحث صفة الاستواء أدلة قاطعة في ثبوت الفوقيّة والعلو لله تعالى، وإثبات الرؤية مع نفي الفوقيّة فيه نوع من الغموض وعدم الوضوح، إذ لا يعقل إثبات موجود في الخارج وجوده حقيقي وإثبات رؤيته بالأبصار ثم القول إنه ليس فوق الرائي أو على يمينه أو على يساره أو تحته. هذا كلام يرده كل من يسمعه وهو يعقل ما يسمع.

^{٦٥٠} سورة يونس آية: 26
^{٦٥١} المصدر السابق.

^{٦٥٢} أبو الحسن الأشعري مقالات الإسلاميين ص: 219.
قلت: وهذا المعنى مردود لغة، لأن "رأى القلبية تنصب مفعولين. لأن تقول: رأيت الله أكبر كل شيء، أو رأيت الله مطلعاً على كل شيء". وأما قوله عليه الصلاة والسلام: "ترون ربكم يوم القيمة" لا يحتمل إلا الرؤية البصرية.

وأما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله يتجلى لعباده في الموقف وفي الجنة من فوقهم ويخاطبهم ويسلم عليهم ويرونه بأبصارهم كما يرون الشمس ليس دونها سحاب، وهذه المعانى الثلاثة يجب الإيمان بها مجتمعة عملاً بنصوص الكتاب والسنة وخروجاً من الاضطراب، وهي:

1- العلو والفوقية.

2- صفة الكلام (الكلام) اللفظي.

3- الرؤية بالأبصار، وبالله التوفيق.

ثم اختلف أهل السنة: هل الرؤية في الآخرة خاصة بالمؤمنين أم يراهم الكفار والمنافقون كما يرى المؤمنون؟

أقول: أما في الجنة فلا شك أنها خاصة بالمؤمنين إذ هي دارهم الخاصة، وهي دار الطيبين فلا يدخلها إلا المؤمنون الطيبون. فينحصر الخلاف في الرؤية التي تقع في الموقف عند الحساب والتجلی. والقول الذي يرجحه الحافظ ابن حجر أن الرؤية خاصة بالمؤمنين حتى في الموقف، ويجب على قول من يرى عموم الرؤية استدلالاً بعموم اللقاء والخطاب بقوله: ولا يلزم من كونه "يتجلى للمؤمنين ومن معهم من أدخل نفسه فيهم أن تعمهم الرؤية، لأنه سبحانه أعلم بهم. فينعم على المؤمنين برؤيته دون المنافقين كما يمنعهم من السجود عندما يكشف عن ساقه كما تقدم"⁶⁵³ ا.هـ

وهناك آراء أخرى في المسألة رأينا عدم الخوض فيها إيشاراً للإيجاز، والله أعلم.

وبعد، أود أن أذيل هذا البحث - مبحث الرؤية - بأبيات للإمام ابن القيم، صور فيها يوم اللقاء أروع تصوير وأصدقه استناداً من نصوص الكتاب والسنة التي ذكرنا بعضها آنفاً، إذ يقول رحمه الله:

وأرزاقهم تحرى عليهم وتقسم	فبينما هم في عيشهم وسرورهم
فيضحك فوق العرش ثم يسلّم	تخلى لهم رب السموات جهرة
بآذانهم تسليمه إذ يسلّم	سلام عليكم يسمعون جميعهم

⁶⁵³ فتح الباري على صحيح البخاري 17 / 194 ط الحلبي القاهرة.

يقول سلوني ما اشتھيتم فكل ما
 ف قالوا جمیعاً نحن نسائلك الرضا
 والله أفراح المحبين عندما
 والله أبصار ترى الله جهرة
 فيها نظرة أهدت إلى الوجه نضرة
 ف حي على جنات عدن فإنها
 والله واديها الذي هو موعد الـ
 وحي على يوم المزيد الذي به
 ولكننا سبي العدو فهل ترى
 هذا فإنيات الرؤية ليس صفة من صفات الله تعالى لأن الرؤية لا تقوم بالله تعالى، بل
 المؤمنون هم الذين يرونه سبحانه فالله هو المرئي لهم، فإنما أدخلناها في عداد الصفات
 المختارة التي جعلنا محل الحديث المفصل. لأنها محل نزاع بين السلف والخلف كما علمت.
 وبالله التوفيق.

الباب الثالث: العلاقة بين الصفات والذات

الإيمان بالله تعالى إنما يعني الإيمان بالذات العلية الواجبة الوجود، وجوداً حقيقياً.
 والإيمان بصفاته العلي وأسمائه الحسنى معاً. وعندما يقول المؤمن: آمنت بالله، إنما يعني هذا
 الإيمان الشامل أي الإيمان بذات لا تشبه الذوات متصفه بصفات الكمال التي لا تشبه
 صفات خلقه بل لصفاته حقائق ولصفات خلقه حقائق.

فانطلاقاً من هذا الإيمان الشامل فإن العلاقة بين الصفات والذات علاقة التلازم،
 ضرورة أن الإيمان بالذات يستلزم الإيمان بالصفات، وكذلك العكس على ما أشرنا في
 هذه المقدمة، لأنه لا يتصور وجود (ذات) مجردة في الخارج كما لا يتحقق وجود صفة من
 الصفات في الخارج إلا وهي قائمة بالذات. بيد أنه ليس مستحيل بل من الممكن تصوّر
 (ذات) على حدة وتصوّر (صفة) على حدة، إلا أنه تصوّر ذهني فقط، كما تقدم في غير
 موضوع. وهذا ما عنيناه بالتلازم، وسبق أن تحدّثنا عن هذه النقطة عند الكلام على

مفهوم الذات، وأثبتنا هناك أن المسلك الصحيح والسليم في مبحث: هل الصفة غير الذات أو عين الذات؟ هو عدم إطلاق لفظة (غير) إلا بعد التفصيل ونزيد هنا أن الصواب في مثل هذه النقطة عدم إطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنىين: صحيح وباطل، ولا ينفصل النزاع ويتبين وجه الصواب إلا بالتفصيل، فالله تعالى واحد بأسمائه وصفاته، فأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه (الله)، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله أو خالق أو رزاق. ولن يست صفاته وأسماؤه غيره، ولن يست هي نفس الإله. معنى أن للذات مفهوماً وللصفات مفهوماً. هنا فقط تثبت المغایرة أي في إثبات معنى ومفهوم للصفات غير مفهوم الذات. ويقول الإمام ابن القيم في هذه النقطة: "ويرى القوم في لفظة (الغير) أنه يراد بها معنيان: أحدهما المغایرة لتلك الذات المسماة بـ (الله) وكل ما غير الله مغایرة مخضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً".

ويراد به -أي لفظ (الغير)- مغایرة الصفة للذات إذا خرجت عنها فإذا قيل: عِلْمُ الله وكلام الله غيره، معنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحاً، ولكن الإطلاق باطل، وإذا أريد أن العلم والكلام مغايران لحقيقة المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلاً لفظاً ومعنى⁶⁵⁴ ١. هـ

لأن الحقيقة المختصة به تعالى التي لا يشاركها فيها أحد اتصفه بصفات الكمال: الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه غيره من العلم الكامل المحيط بجميع المعلومات وبكلماته التامات التي لا نفاد لها، وبقدرتة الكاملة التي لا يعجزها شيء، بل هو على كل شيء قادر. وإذا فهمت هذه النقطة فإن الإيمان الصحيح هو الإيمان برب متصف بصفاته وأسمائه حقيقة واحدة لا تتجزأ أي رب واحد بأسمائه وصفاته سبحانه، فالمغایرة غير واردة بهذا الاعتبار والله أعلم.

هذا هو المفهوم الصحيح الذي كان قد فهمه سلف هذه الأمة، وسلموا به من الخوض في بحث العلاقة بين الذات والصفات، إذ لم يحدث ما يدعو إلى ذلك. بل القول المؤيد بالأدلة العقلية والنقلية أن صفة الله تعالى داخلة في مسمى أسمائه،

⁶⁵⁴ بدائع الفوائد لابن القيم 21/1 طبعة مكتبة القاهرة.

فمن استعاد بصفة من صفات الله أو حلف لها فإنما استعاد بالله، وحلف به تعالى. يشهد لهذا، الاستعادة التي علمها النبي عليه الصلاة والسلام أمه و هي: "أعوذ بعز الله وقدرته من شر ما أجد وأحذر"⁶⁵⁵، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "أعوذ برضاك من سخطك"⁶⁵⁶.

فمن قال: عبدت الله أو دعوت الله أو حمدت الله أو قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فهذه الأسماء ظاهرها ومضمونها مشتملة على صفات الله ولا يخرج عنها شيء، مثل العلم والحلم والرحمة والكلام وسائر صفاته⁶⁵⁷. ويؤيد ما ذكرنا قوله عليه الصلاة والسلام: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"، وقال: "من حلف بغير الله فقد أشرك".

وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه حلف بعزة الله ليدلنا أن ذلك ليس حالفاً بغير الله وإنما حلف بصفة من صفاته، وصفاته بهذا الاعتبار ليست غيره.

هكذا يتضح أنه لا ينبغي إطلاق المغایرة بين الصفات والذات، وأن صفات الله تعالى ملزمة لذاته تعالى ولا تنفك عنها، فمن آمن بالله فإنما آمن بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته. ومن كفر بصفة واحدة من صفات الله فقد كفر بالله تعالى وبسائر صفاته، ولهذا أجمع أهل العلم من علماء أهل السنة دون خلاف نعلمه أن من قال: إن كلامه مخلوق أو قال: القرآن مخلوق أو أنكر رؤية الله يوم القيمة مثلاً فهو كافر، وسيأتي في الباب الخامس حكم من نفى صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وحكم من أخذ في أسماء الله وصفاته.

⁶⁵⁵ أخرجه أصحاب السنن الأربع، ومسلم في التوعذ والأدعية.

⁶⁵⁶ المصدر السابق، وتقدم تخرجه.

⁶⁵⁷ استقينا هذه المعانى من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، راجع مجموع الفتاوى 12/330 وما بعدها.

الباب الرابع: طبيعة علاقة الصفات بعضها بعض من حيث الآثار والمعانى

ولقد تحدثنا عن صفات الله تعالى بالجملة في الأبواب السابقة بل قسمناها إلى عدة أقسام من حيث معاناتها ومدلولاتها، من صفات سلبية ومعنوية وثبتوية، وذاتية وصفات أفعال والصفات الخبرية.

وأخيراً تحدثنا بالتفصيل عن عشرين صفة مختارة حيث حددنا موقف كل من السلف والخلف منها من حيث المعنى، ومن حيث التأويل وعدم التأويل. وبعد هذا كله من المستحسن جداً أن نتحدث عن علاقات الصفات بعضها بعض من حيث الآثار والمعانى على سبيل التقرير، فنقول وبالله التوفيق:

صفات الله تعالى صفات كمال، أسماؤه تعالى كلها حسنى لأنها متضمنة للأوصاف، فالعلاقة بين الأسماء والصفات، أن الصفات من معانى الأسماء وأخوذة منها غالباً، ثم إن أسماء الله تعالى كلها أوصاف كمال وصفاته كلها أسماء حسنى، وهي أعلام وأوصاف في وقت واحد. والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد تنافي العلمية في الغالب، إلا أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها تتضمن الأوصاف كالحاشر والعاقب والماحي، ومحمد صلى الله عليه وسلم.

فمن أسمائه تعالى: العليم الحكيم، السميع البصير، مثلاً فهذه أعلام دالة على الذات العلية المتصفـة بالعلم والحكمة والسمع والبصر، وهكذا سائر صفات الله تعالى، فصفات الله تعالى يمكن أن يقال فيها: إنها مترادفة كلها بالنسبة لعلاقتها بالذات حيث تتواجد كلها على موصوف واحد كما يليق به وهو الله سبحانه.

وأما بالنسبة لبعضها فقد تكون مترادفة من حيث المعنى أو متقاربة مثل المحبة والرحمة والفرح والتعجب والضحك. بل نستطيع أن نقول: إن الصفات التي ذكرت بعد المحبة في هذا السياق إنما هي آثار المحبة غالباً وما أكثر آثارها.

وهناك صفات متقابلة: كالرفع والخفض والإعزاز والإذلال، والعطاء والمنع والأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والنفع والضرر، والقبض والبسط، ويدل على هذا الصنف

قوله عليه الصلاة والسلام - وهو يشي على الله سبحانه - : "أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعده شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء" ⁶⁵⁸.

ومن أسماء الله تعالى التي لا تطلق إلا متقابلة: (المعطي المانع)، (النافع الضار)، (المعز المذل)، (القابض الباسط)، (الغافر المنقم) وهو لم يرد إلا مقيداً مثل قوله تعالى: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}، {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}.

ويشهد لما ذكرنا قوله عليه الصلاة والسلام وهو يشي على الله تعالى دبر كل صلاة: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" ⁶⁵⁹.

وهنا صفات متضادة من حيث معانيها: مثل الغضب والسطح مع الرضا، ومثل الكراهة مع الحب، ويدل لهذا الصنف استعاذه النبي عليه الصلاة والسلام حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفافاتك من عقوباتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" ⁶⁶⁰.

ولإمام ابن القيم بحث لطيف في هذه النقطة وهو يتحدث عن معانى الأسماء والصفات المقابلة إذ يقول رحمة الله: ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقتولاً بمقابله كالمانع والضار، والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرور بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، النافع الضار، الغافر المنقم، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه الأسماء بما يقابلها لأنه يراد به التفرد بالربوبية وتدبير شئون الخلق ⁶⁶¹ اهـ.

والتصرف فيهم عطاء ومنعاً ونفعاً وضرراً، وعفواً وانتقاماً، حسبما تقتضيه حكمته البالغة الخافية على خلقه في الغالب.

إن اتصفه تعالى بهذه الصفات المزدوجة، المأحوذة من أسمائه المقابلة وبالصفات المتضادة في معناها على ما تقدم، والمترايدة باعتبار الذات والمتباعدة باعتبار ما بينها في الغالب الكثير، إن الاتساق بهذه الصفات هو الكمال الذي لا يشاركه فيه أحد، لدلالته

⁶⁵⁸ أخرجه مسلم في الدعوات 36/1 مع شرح النووي.

⁶⁵⁹ أخرجه البخاري في الدعوات 11/133 من حديث المغيرة بن شعبة.

⁶⁶⁰ تقدم تخريرجه.

⁶⁶¹ ابن القيم في بعض كتبه.

على شمول القدرة الباهرة والحكمة البالغة، والتفرد بشئون الكون كله. لا إله غيره ولا رب سواه... .

الباب الخامس:

أ- حكم من نفي صفة من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة:

أما حكم من نفي صفة من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة فهو حكم يحتاج إلى نوع من التأني والترير ثم التفصيل، لأنه من الخطورة بمكان إصدار حكم محمل غير مفصل في مثل هذه القضية، التي هي قضية كفر أو إيمان ولا واسطة بينهما. فأقول مستعيناً بالله تعالى: إن من نفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة لا يخلو حاله من أحد أمرين:

أ- أن يكون النافي عالمًا بالنص الذي ثبتت به الصفة المنفية كتاباً كان أو سنة، ولا توجد لديه شبكات قد تغير مفهومه في النص كأن يفهم أو يظن -متأثراً بالشبهة- أن النص الذي ثبتت به الصفة لم يكن باقياً على ظاهره مثلاً أو غير ذلك من الشbekات الكثيرة التي قد تضلل الإنسان الساذج أو قليل الاطلاع. والتي من أخطرها تأثيره بأراء أهل الكلام المذموم التي تفسد القلوب وتغيير المفاهيم في الغالب ولو نفي -وحاله ما وصفنا من العلم وعدم وجود الشbekات- معانداً وجاحداً لخراب قلبه ومرضه، فهو كافر في هذه الحالة كفراً ينقله من الملة الإسلامية لتکذيبه كلام الله أو كلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وهو غير معذور لما علمت، وحقيقة الكفر هي ذلك الخراب الذي سببه له العناد والجحود.

ب- أن ينفي في غير هذه الحالة المذكورة آنفاً، كجهله للنص أو عدم علمه المفهوم الصحيح على ما تقدم تفصيله، فأرجو أن يكون معذوراً في هذه الحالة. والخلاف مشهور بين أهل العلم في: هل يعذر الإنسان بجهله في أصول الدين أن لا؟ ولشيخ الإسلام ابن تيمية موافق كثيرة تدل على أنه يرى أن المرء يعذر بالجهل مطلقاً دون تفريق بين الأصول والفروع.

1- الموقف الأول: هو ما يدل عليه النص التالي من كلامه رحمه الله، يقول شيخ الإسلام في كتابه موافقة صحيح المنقول لصریح المعقول، وهو يناقش بعض علماء أهل

الكلام في بعض مسائل الصفات: "لكن من لم يكن عارفاً بآثار السلف وحقائق أقوالهم، وحقيقة ما جاء به الكتاب والسنة وحقيقة المعمول الصحيح الذي لا يتصور أن يناقض ذلك، لا يمكنه أن يقول إلا يبلغ علمه **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}**، ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولو لا ذلك يهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله تعالى يغفر لمن جهل وجوب الصلاة وتحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونه لم يطلب العلم، فالفضل للمجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام بحسب إمكانه فهو أحق بأن يتقبل الله حسناته ويثنيه على اجتهاده، ولا يؤاخذه بما أحطأه تحقيقاً لقوله تعالى **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذنَا إِنْ تَسِينَا أَوْ أَخْطَانَا}**.

وقال في موضع آخر في الكتاب نفسه: ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مسامع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد، والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتتكلم فيهم 662 بعلم وصدق وعدل وإنصاف) إلى آخر كلامه رحمه الله وهو يتحدث عن الأشعرية" اهـ.

بـ- كان رحمه الله - ذات مرة- يناقش كبار علماء أهل الكلام من لعبت الفلسفة بعقولهم وغيرت مفاهيمهم -ونروي (الحوار) بالمعنى لا باللفظ ونوجزه في الآتي:
ناقشت شيخ الإسلام ابن تيمية فطاحل علماء الكلام محاولاً إقناعهم بضرورة الاكتفاء بالأدلة النقلية - في المطالب الإلهية- أو تقديمها على العقل لتكون هي الأساس في هذا الباب والعقل تابع لها، لأن العقل الصريح لا يكاد يخالف النقل الصحيح إذا أحسن المرء التصرف، فلم يمكن إقناعهم، بل أصرروا على ضرورة تقديم العقل في زعمهم، ظناً منهم أن بينهما اختلافاً - وهو ظن الذين لا يفقهون إلا قليلاً.

وفي آخر الحوار قال لهم ذلك العالم البصير: لو كنت أنا مكانكم لحكمت على نفسي بالكفر ولكنكم جهال!!

⁶⁶² راجع موافقة صحيح المنقول لصريح المعمول لشيخ الإسلام ابن تيمية ص: 56. تحقيق محمد محى الدين.

فعدرهم بجهلهم - وهم يرون أنفسهم أنهم من أعلم الناس، إلا أن ذلك العلم لم يخرجهم من عداد الجهال في نظر الإمام ابن تيمية، لأنهم إنما تعلموا وتبحروا في آراء الرجال وفلسفة اليونان، وأما بالنسبة لعلم الكتاب والسنة فهم في حكم الجهال، ولذا عذرهم الإمام رحمه الله، فيظهر جلياً من هذين الموقفين أنه من يعذر الجاهل، والمجتهد، والمخطئ، حتى في باب أصول الدين وبالله التوفيق⁶⁶³.

ومما يشهد لما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وأمثاله قصة الرجل الإسرائيلي المشهورة وهذا نصها من صحيح البخاري:

حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا هشام، أخبرنا عمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "كان رجل يسرف على نفسه⁶⁶⁴ فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليغذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال لها: اجمعي ما فيك منه! ففعلت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال خحيتك يا رب فغر له، وقال غيره: مخافتك يا رب"⁶⁶⁵.

وللحديث عدة روایات وهذه الروایة من أجمعها تقريراً

قال الخطابي تعليقاً على هذا الحديث: قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له، وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: أنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله.

قال ابن قتيبة: وقد يغلط في بعض الصفات قوم من المسلمين فلا يكفرون بذلك، ورد ابن الجوزي وقال: جحده صفة القدرة كفر اتفاقاً، وإنما قيل: إن معنى قوله: "لئن قدر الله عليّ" أي ضيق، وهي كقوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقٌ} أي ضيق، وأما قوله: "العَلَيْ أَضَلُّ اللَّهُ" - يعني في روایة أخرى غير التي ذكرناها - فمعناه: لعلي أفوته،

⁶⁶³ موافقة صحيح المنقول لصريح المعمول وغيره للإمام ابن تيمية.

⁶⁶⁴ ذكر في بعض روایات الحديث أنه كان (نباشا).

⁶⁶⁵ فتح الباري 7/332.

يقال: ضل الشيء إذا فات وذهب، وهو كقوله تعالى: {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} ولعل هذا الرجل قال ذلك من شدة جزعه وخوفه كما غلظ ذلك الآخر فقال: "الله أنت عبدي وأنا ربك" ويكون قوله: "لَعْنَ قَدْرٍ" بتشديد الدال، أي إن قدر عليّ أن يعذبني ليعذبني، أو على أنه كان مثبتاً للصانع وكان في زمن الفترة فلم تبلغه شرائط الإيمان. قال الحافظ ابن حجر: "وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب بعقله ما يقول، ولم يقل قاصداً لحقيقة معناه بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه"⁶⁶⁶ اهـ.

قلت: أما ابن الجوزي - مع مكانته العلمية المعروفة - فقد أبعد النعجة وابتعد عن سياق النص فتكلف في تأويل الحديث تأويلاً يشبه تأويل أهل الكلام عفا الله عنه، ولماذا هذا التكلف كله؟ ومعنى الحديث واضح والسياق يدل على أن الرجل مع إيمانه بربه وخشائه، جهل أن الإنسان الذي يفعل به ما فعله أولاده لا يبعث مثل الذي يدفن في الأرض، كما غفل عن قدرة الله الشاملة لجميع الحالات، هذا ما جهله الرجل، وربه الرؤوف الرحيم رحمه وعذرها فغفر له، وهذا هو الذي يليق برحمته سبحانه ولطفه بعباده، وقد سبقت رحمته غضبه وغلبته.

وأستحسن أن أذكر هنا قاعدة عند أهل السنة في مسألة قبول عذر من جهل شيئاً من الدين: وهي هكذا: "يعذر الإنسان إذا جهل ما مثله يجهله من المسائل الخفية كمسائل الصفات من حيث تتحققها وتحقيقها ومعرفة وجه الصواب فيها" ولا سيما بعد أن طغى علم الكلام، وفرض سلطانه على جمهور المتأخرین فتغير كثير من المفاهيم في مسائل العقيدة، ودخلت بسببه على العقيدة الإسلامية اصطلاحات كثيرة، فشوشت على الناس في عقيدتهم، وما ذكرناه من كلام الإمام ابن تيمية مأخوذه من هذه القاعدة، أو هو عينها، وقد صرخ رحمة الله: أن الفاضل المحتهد الذي يخطئ وهو يريد متابعة الرسول أولى بقبول عذر من الجاهل الذي لم يطلب العلم إذا جهل ما يجهل مثله، أو كما قال رحمة الله. وللسیخ سليمان بن سحمان رحمة الله تحقيق دقيق في مسألة التكفير، ويرى أن

⁶⁶⁶ فتح الباري 7/333. طبعة مصطفى البابي الحلبي.

المبادرة بالتكفير والتفسيق والهجر أمر في غاية الخطورة إلا بعد التحقيق ومعرفة تفاصيل ما في المسألة - قلت: بل ومعرفة الزمان والمكان - وينصح الشيخ رحمه الله بالتريث في المسألة، ثم نقل كلام شيخ الإسلام رحمه الله، حيث يقول شيخ الإسلام: "إن من عيوب أهل البدع تكبير بعضهم بعضاً ومن مدح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون" كما نقل قول الإمام الشافعي رحمه الله إذ يقول: "لأن أتكلم في علم يقال لي فيه أخطأت" ⁶⁶⁷، أحب إلى من أن أتكلم في علم يقال لي فيه كفرت[َ] .

ثم قال الشيخ سليمان رحمه الله: إذا فهمت ذلك وتحققته فاعلم أن الكفر الذي يخرج من الإسلام ويصير به الإنسان كافراً وهو جحوده بما علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام جاء به من عند الله عناداً، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه التي أصلها من توحيده وحده لا شريك له، وهو مضاد للإيمان من كل وجه، ثم استشهد على ما ذكر بقول الإمام ابن القيم رحمه الله إذ يقول في نونيته المعروفة:

فالكفر ليس سوى العناد وردّ
إلى أن قال رحمة الله:
والله ما خوفي من الذنوب فإنها عَـ
لكنما أخشى انسلاخ القلب عن
ورضاً بآراء الرجال وخرصها
الخلاصة:

كل من نفى صفة ثابتة بالكتاب والسنّة عالماً بالنّص، فاهماً له، سالماً من الشبهة مُوثراً مألفه من آراء الرجال وغيرها، مستخفاً بالنّص وغير مقدرٍ له، فقد كفرَ كفراً ناقلاً عن الملة.

وأما من نفى الصفة وهو على خلاف من وصفناه فهو معذور إن شاء الله لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ^{٦٦٩}، ولقوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن تَسْبِينَا

⁶⁶⁷ لعل الصواب (خطأ) وإن كان النص ورد بما ذكر في صلب الرسالة في المرجع المشار إليه.

⁶⁶⁸ منهاج أهل الحق والاتباع في مخالفه أهل الجهل والابناداع للشيخ سليمان بن سحمان، وهو من كبار علماء الدعوة والإصلاح في أوائل عهد الملك عبد العزيز رحمهما الله، وله مؤلفات في هذا المجال رحمة الله.

سورة البقرة آية: 286. ⁶⁶⁹

أَوْ أَخْطَأُنَا} ⁶⁷⁰، وَاللَّهُ أَعْلَم.

وعلى كل حال فإن أهل العلم يفرقون بين التكفير العام، وبين تكفير شخص معين، والتکفير العام يطلق فيقال: كل من ارتكب شيئاً من المکفرات كإنكار الصفات مثلاً فهو کافر ويعتبر هذا قاعدة للتکفير.

أما التکفير المعين فيختلف باختلاف أحوال الأشخاص، وما يقوم بنفوسهم مما يستدل عليه بالقرائن والسياق، فليس كل مخطئ ولا مبتدع ولا ضال کافراً عند أهل السنة، فانطلاقاً من هذه القاعدة نقول: من أنكر صفة ثابتة بالقرآن أو بالسنة فهو کافر، وهذه القاعدة يدخل في عمومها أكثر المنكريں، ولا يدخل فيها بعضهم لأحوال خاصة قد تشفع لهم، ولا يكون کافراً مع أنه أنكر ما أنکره غيره على ما تقدم من التفصیل. هذا حکم من نفياً. وأما حکم من أول آية من آيات الصفات أو حدیثاً من أحادیث الصفات فمثله لا يکفر لسبیل:

السبب الأول:

أنه لم ینف الصفة نفياً. وإنما أثبتها ثم أواها تأویلاً، فهو مخطئ في التأویل ولكنه لا يکفر، لأنه یؤمن بالصفة في الجملة.

السبب الثاني:

أنه أول لقصد التنزیه ظناً منه أنه لا يتم التنزیه إلا بالتأویل، وهو يظن أن هذه هي الطريقة المثلی أو الوحید في التنزیه. وهذه شبهة تحول دون تکفیره لأنه معدور بالجهل المصحوب بالشبهة، والله أعلم.

وسبق أن قلنا نقلاً عن بعض أهل العلم ⁶⁷¹ - إن حقيقة الكفر خراب القلب، والمؤول بقصد التنزیه بعيد عن هذا المعنى إن شاء الله.

ب- حقيقة الإلحاد في أسماء الله تعالى، وأنواعه:

تحدثنا فيما تقدم عن علاقة الصفات بالذات، ثم طبيعة علاقات الصفات بعضها

⁶⁷⁰ سورة البقرة آية: 286.

⁶⁷¹ شیخ الإسلام ابن تیمیة في بعض کتبه.

بعض من حيث المعانٰي. وأخيراً تحدثنا عن حكم من نفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وأبئنا الفرق بين حكم من نفي، وحكم من أول، إذاً من المناسب جداً أن نتناول بالبحث حقيقة الإلحاد في أسماء الله وصفاته وأنواعه التي تشمل نفي الصفات وتعطيلها، كما تشمل تشبيه صفات الله بصفات خلقه.

وقد أنذر الله الذين يلحدون في أسمائه، وأخبر أنه سوف يجازيهم بما كانوا يعملون، وذلك بعد أن حث عباده ليدعوه بأسمائه الحسنى، حيث يقول عز وجل: **{وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**⁶⁷². والإلحاد في اللغة: الميل، ومادته تدل على ذلك (ل ح د) ومن ذلك اللحد، وهو الشق في جانب القبر، لأنه قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين، وهو المائل عن الحق إلى الباطل، فالإلحاد في أسماء الله تعالى هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها، عن الحق الثابت لها، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله ما ملخصه:

فالإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع، ثم ذكر منها خمسة أنواع:

أحدها: أن تسمى بعض العبودات باسم من أسماء الله تعالى، أو يقتبس لها اسم من بعض أسمائه تعالى. كتسميتها المشركين بعض أصنامهم (اللات) أخذـاً من (الإله) و(العزيز) أخذـاً من (العزيز) وتسميتهم الأصنام أحياناً (آلهة) وهذا إلحاد واضح كما ترى، لأنهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبداتهم الباطلة.

ثانيها: تسميتها تعالى بما لا يليق به، كتسميتها النصارى له (أبا) وإطلاق الفلسفـة عليه (موجـاً بذاته) أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

ثالثها: وصف الله تعالى بما ينزعه عنه سبحانه، كقول اليهود عليهم لعنة الله إنه فقير. وقوله: إنه "استراح" بعد أن خلق خلقه، وقولهم أيضاً: "يد الله مغلولة"، وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها بعض أعداء الله قديماً وحديثاً.

رابعها: تعطيل أسمائه تعالى عن معانيها (وهي الصفات) وجحـد حقائقها. كما فعلت المعتزلة حيث جعلوا أسماء الله ألفاظاً مجردة لا تدل على الصفات، كقوله: سمـع بلا سمع،

⁶⁷² سورة الأعراف آية: 180.

وعليم بلا علم، إلى آخر الأسماء.

ويعد ابن القيم هذا النوع من أقبح أنواع الإلحاد في الأسماء والصفات معاً عقلاً وشرعياً وفطرة، لأنهم نفوا الصفات وهو إلحاد، ثم نفوا معانى الأسماء، وهو نوع آخر من الإلحاد فهم قد جمعوا بين النوعين، مع ما في ذلك من التلاعيب بنصوص الصفات كما لا يخفى.

وهذا الإلحاد يقابل إلحاد المشركين الذي سبق أن تحدثنا عنه، لأن أولئك أعطوا آلهتهم أسماء الله وصفاته. وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها. وعطلوها، وكلهم ملحدون في أسمائه وصفاته وإن اختلفت الطرق وتبين نوع الإلحاد. علمًا بأن الجحيمة وأشباههم من النفاية متفاوتون، فالجحيمية أشد إلحاداً لأنهم ينفون الأسماء والصفات كما تقدم في غير موضع، وهم الذين نطلق عليهم أحياناً (الغلاة) وقد تقدم الكلام على غيرهم من النفاية آنفًا. وهم أولئك الذين ينفون الصفات، ويدعون إثبات الأسماء. وهو إثبات لا قيمة له، لأن الأسماء عندهم لا تدل على معانيها، بل هي كالاعلام الحامدة، وكذلك الذين يفرقون بين ما جمع الله في كتابه أو فيما أوحى به إلى نبيه حيث يثبتون بعض الصفات ويهذبون بعضها تأويلاً قد يؤدي إلى نفي حقيقة صفة من صفات الله. فهؤلاء ينادهم نصيبيهم من الإلحاد وإن لم يبلغوا مبلغ الذين قبلهم من النفاية.

خامسها: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وهو يقابل إلحاد المعطلة الذي تحدثنا عنه آنفًا: فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم الطرق، - كما يقول الإمام ابن القيم⁶⁷³ - وهو أمر واضح فلا تتم السلامة من الإلحاد⁶⁷⁴ إلا لمن نهج السلف وعلماء الحديث بأن يصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، أو بما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يعطل ولا يشبه بل هو وسط بين الفريقين، فهذه الوسطية تعتبر صفة لازمة لمن ينهجون منهج السلف ليس في هذا الباب فحسب، بل في جميع الأبواب التي تفرق فيها الفرق - وهم بين التفريط والإفراط - مثل نصوص الوعد والوعيد، وأفعال العباد وموقفهم من

⁶⁷³ راجع بدائع الفوائد للإمام ابن القيم 1/169.
⁶⁷⁴ وكلمة الإلحاد لا تعني دائمًا الكفر، بل قد يكون الإلحاد كفراً، وقد يكون معصية ومخالفه، ولا يصل إلى درجة الكفر، ومثله الفسق، لأنه قد يكون معصية فقد لأنها خروج في الجملة، ويقد يكون كفراً، والله أعلم.

الصحابة رضي الله عنهم.

ولهذا كله يعتبر منهج السلف الصالح سفينـة نوح عليه السلام التي لا تُكتُبُ النجاة والسلامة إلا لركابها، وأما من تخلف عنها فله الغرق والهلاك ولا محالة.

الباب السادس: الحديث عن خلاصة المقارنة بين موقف السلف والخلف من معانـي

الصفات

وبعد: سبق أن أجرينا مقارنة واسعة بين موقف السلف والخلف من العقيدة في موضعين اثنين.

1- عند الكلام على منهج السلف الذي اعتبرناه منهج الرسالة في أوائل المدخل في البحث الخامس.

2- عند الكلام على معانـي بعض الصفات الخبرية في آخر الفصل الثالث من الباب الثاني.

بـ- وخلاصة ذلك: أن السلف كانوا يحرصون كل الحرص على عدم التكلف بالتأويل والتحريف وعلى عدم التورط في التشبيه بل يكتفون بفهم المعانـي العامة للنصوص، تلك المعانـي التي تفهم من وضع الكلمة، وأما الخلف فقد تكلـفوا التأويل وقالوا على الله بغير علم مع تفاوـتهم في ذلك، وأحب أن أوضح هنا - تأكيداً لما ذكرت هناك - أن السلف يفهمون معانـي الصفات العامة ويفوضون الكيفية فقط، فليـسوا بـالمؤولين المحرفين وليسوا بالمشبهين الجسميين ولا بالمفوضين الجاهلين. ولا الواقفين الحائرين، بل هم أصحاب فهم صحيح وفقـه دقيق⁶⁷⁵، إذ هم وسط بين هذه النـحل المختلفة. ومنهجـهم لـبن خالص يخرج من بين فـرث التشـبيه وـدم التعـطيل، ذلك فـضل الله يؤـتيه من يشاء والله ذو الفـضل العظـيم.

ومن أراد أن يعرف منهـجـهم وموقفـهم من العـقـيدة على حـقـيقـته فـليـطلع على أقوـال أهلـ الحديث وأعيـانـ فـقهـاءـ الأئـمةـ الأـربـاعـةـ وـمنـ فيـ طـبـقـتـهـ أوـ بـعـدـهـمـ منـ أـولـئـكـ الذينـ هـجـجـواـ هـجـجـهـمـ، لأنـهـمـ خـيـرـ منـ يـرـجـعـ إـلـيـهـمـ لـعـرـفـةـ هـذـاـ الـبـابـ الـخـطـيرـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ.

⁶⁷⁵ ومن فـقـهـهمـ فـيـ الدـيـنـ عـدـمـ القـوـلـ عـلـىـ اللهـ بـغـيرـ عـلـمـ، بلـ لاـ يـتـجـاـوزـونـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ.

وأكرر هنا - كما ذكرت سابقاً غير مرة - تلك العبارة المنقوله - في صفة الاستواء.

عن أم سلمة رضي الله عنها وعن ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك رحمه الله، واشتهرت أخيراً عن الإمام مالك رحمه الله: "الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه الكيفية بدعة".⁶⁷⁶

وقد أطبق علماء أهل السنة قديماً وحديثاً على هذا المعنى. وقولهم المأثور: "أمرّوها كما جاءت بلا كيف"⁶⁷⁷ في نصوص الصفات يؤدي هذا المعنى نفسه. وهل يقول: "الاستواء معلوم" من لا يفهم معنى (استوى) لغة؟ وهل يقول: "تمر كما جاءت بلا كيف" من لا يعرف معاني النصوص؟! الجواب (لا) بالتأكيد ودون توقف.

وإن الذي لا يفهم المعنى إنما ينبغي له أن يقول الاستواء غير معلوم أو اقرأوا الألفاظ وأمرّوها دون محاولة فهم معانيها لأنها غير مفهومة لنا أو يقول: الله أعلم بمعانيها ونحن لا نعلم أو عبارة كهذه.

وقد غلط في هذه النقطة بعض الذين كتبوا عن عقيدة السلف دون دراسة سابقة، بل بالمطالعات العابرة أو بالسماع والتقليل فأساءوا فهم عقيدة السلف، ثم أساءوا إلى منهجهم بل اهموا - جهلاً منهم - كثيراً من أتباع السلف بالتشبيه والتجسيم بناء على تصورهم الخاطئ، حيث ظنوا أن مذهب السلف هو التفويض المحس، بل قد صرّح بعض المتأخرین منهم بأن السلف لا يفهمون معاني نصوص الصفات، والعجب كل العجب أنهم يطلقون هذا التصریح في معرض المدح للسلف ومذهبهم - يا سبحانه الله - متى صار الوصف بالجهل لمن تحبه وتقدّره مدحًا وتقديرًا؟! فبئس ما يصفون!

تكلم غير واحد من المعاصرین الذين تأثروا بفلسفة اليونان وبالاستشراق الجديد في مسألة فهم السلف لنصوص الصفات فنفوا عنهم الفهم فجعلوه بمثابة الأمي الذي يقرأ ألفاظ القرآن دون فهم أو فقه.

ولعل آخر من كتب في هذا المعنى - فيما أعلم - الدكتور محمد عبد الستار أحمد

⁶⁷⁶ تقدم تخریج هذه الآثار.

⁶⁷⁷ تقدم تخریجها.

نصار في كتابه الذي سماه (المدرسة السلفية) تحدث الدكتور في هذا الكتاب عن السلف الذين نزل فيهم القرآن (الصحابة) حديثاً في غاية الغرابة. وما قاله عنهم - بعد حديث طويل سابق-: "فإذا أضفنا إلى ما ذكرنا ما في طبيعة الدين الإسلامي من الدعوة العالمية، وما استتبع ذلك من سل حسام الحق ليفتح المتدينون به البلاد بجانب كلمة الحق التي يحملونها ليفتحوا بها مغاليق القلوب، وأن ذلك لم يترك لديهم من الفراغ ما يجلسون فيه إلى القرآن (جلسة) الدرس الممحص لتبين لنا لماذا (لم يختلف المسلمون) في صدر الإسلام حول مسائل العقيدة؟"⁶⁷⁸.

ولعلنا نلمح من خلال هذا العرض الفرق الواضح بين الإيمان والمعرفة.

أما الأول فمحله القلب. وأما الثانية ف محلها العقل. ومن ثم نستطيع أن نقرر أن المتدينين في الصدر الأول (الصحابة) قد فقهوا النص الديني وخاصة ما يتعلق منه بأمور العقيدة بقلوبهم، قبل (إدراكه) بمقاييس العقل، كالذى عرف فيما بعد لدى فرق المتكلمين، وتخريجهم نصوص العقيدة على مقتضى ما وضعوه من مقدمات عقلية⁶⁷⁹ اهـ. هكذا يتصور الدكتور نصار حقيقة الصحابة جهل وعدم إدراك للأمور العقدية. إلا أنه بادر لينفي هذا المفهوم - ولكنه لم يستطع - حيث يقول: وليس في هذا الكلام نسبة المتدينين إلى التجهيل - كما فهم ابن تيمية حيث ذهب إلى أن القول بأن السلف لم يفهموا معنى المتشابه نسبه لهم إلى الجهل. وقد فاته أن الجهل معناه أن ينفي عنهم علم شيء في مقدورهم أن يعلموه، وحيث بان لنا الفرق واضحاً بين الإيمان والمعرفة فليس في كلامه ما يمت إلى الحقيقة بصلة⁶⁸⁰.

ثم أخذ يستدل بكلام (جوستاف لوبيون) على حد تعبيره- أحد المستشرقين فقال:
إن المستشرق أبان عن حقيقة الفرق بين مصدر المعتقد، ومصدر المعرفة فقال المستشرق:
إن مصدر المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر (لا شعوري) يكره الإنسان على تصديق فكر

⁶⁷⁸ يا ترى هل الذي منعهم من التفرق والاختلاف هو عدم فهمهم لنصوص الصفات، لأنهم لم يدرسوا القرآن دراسة فاحصة - كما يرى الدكتور نصار- أو أن الذي حفظ عليهم وحدتهم هو الاعتصام بحبل الله جمِعاً لأنهم لم تفرقهم الأهواء والإعراض عن كتاب الله، وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!!

⁶⁷⁹ المدرسة السلفية 2/478 الدكتور نصار دار الأنصار بالقاهرة.

⁶⁸⁰ فهم غريب وغير ناضج! (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)!!

أو رأي أو مذهب، إلى آخر كلام طويل كله من هذا النوع (النادر). فلسفة مقدسة واستشراق معظم. وتنقص للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

ومن صرخ بأن السلف لا يفهمون معاني أخبار النصوص، الدكتور عوض الله حجازي في كتابه (ابن القيم و موقفه من التكفير الإسلامي) حيث قال في صفحة (71) من الكتاب المذكور: إن السلف كانوا لا يفهمون معاني هذه الأخبار:

1- بدليل أنهم كانوا يثبتون الله تعالى ألفاظ الوجه واليد والعين بالمعنى الذي يعلمه ويريدوه، لا بالمعنى المبادر من هذه الألفاظ.

2- وبدليل أنهم لم يصل عنهم أنهم عينوا معاني هذه الألفاظ، ولو عينوها لنقل إلينا.

3- وأخيراً لأنهم أوجبوا الوقوف على قوله تعالى: {إِلَّا اللَّهُ} ⁶⁸¹ أهـ.

هذا كلام غير محرر وصاحبها بحاجة ليعيد النظر في مذهب السلف ليفهمه جيداً.

فبناء على هذا التصور الخاطئ يردد بعض السذج العبارة التقليدية الموروثة: "طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم"⁶⁸²، ولست أدرى من أول من قال هذه العبارة؟ وما الدافع إليها وماقصد منها؟! وهي عبارة غير محررة علمياً، لأنه ليس بمعقول علمياً ولا بمستساغ عقلاً أن تتوافر السلامة بكثرة في الجانب الذي يكون فيه العلم ناقصاً، ومقدار الجهل مرتفعاً، أخذنا من مفهوم العبارة بينما يتوافر العلم والحكمة في الجانب الذي ليست السلامة فيه بالمستوى المطلوب، بل دون ذلك فليعد النظر في العبارة أصحابها لعل الله يفتح عليهم ويلهمهم الرشد من جديد.

وإنما الوضع السليم أن تتوافر السلامة حيث يوجد العلم والحكمة، لأن السلامة أثر من آثار العلم والحكمة، فحيث لا يوجد العلم لا توجد السلامة، بل إذا ضعف العلم ضعفت السلامة ولا محالة، وهنا يتحقق لي أن أدعوك أولاً المخدوعين الذين يرددون تلك

⁶⁸¹ لا نعلم أحداً من أهل العلم أوجب الوقوف على قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} كما يفهم من كلام الدكتور عوض الله حجازي، بل المعروف عند أهل العلم أن الوقفين جائزان.

⁶⁸² وذكرت هذه العبارة في الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، فيرى بعض المعاصرين السلفيين أنها مرسومة في بعض نسخ الكتاب بدليل عدم وجودها في بعض النسخ منه، كالنسخة التي نقلها ابن عبد الهادي في ترجمة ابن تيمية (العقود الدرية) فلتبحث، وإن كان شيخ الإسلام إنما ذكرها ليناقشها فيرد لها لا ليثبتها.

العبارة أدعوهم لدراسة تراث السلف في المطالب الإلهية والمسائل الشرعية في الأصول والفروع ليدركون مكانتهم العلمية وليسوا بنور علمهم وفقههم، حتى يتمكنوا من الخروج مما تورطوا فيه من تصويب مذهب الخلف وفضيله وبجهيل علماء السلف وتنقيصهم بجعلهم بمثابة الأميين الذين يقرؤون الكتاب ولا يفهمون معاني آياته، فهؤلاء المقلدون يعيشون في ظلام ليل ضرير، فهم لا يصرون شيئاً ولكنهم يسمعون الصوت فيتبعونه لكن فيم يتبعون؟! أفي الصواب أم في الخطأ؟ وماذا يعني هذا القول؟ كل هذا ما لا يعرفونه. بل سمعوا فاتبعوا وقال من قبلهم قوله ف قالوا كما قالوا !! وإلا فكيف يسوغ لعاقل يدري ما يقول أن يعتقد أن المتخلفين أفقه من المتقدمين الذين عاش بعضهم عصر الوحي؟ وأن مجموعة أرساطه وتلامذتهم أعلم وطريقتهم أحكم من طريقة أولئك السادة الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام، وتتلذذوا عليه وأخذوا العقيدة بل الدين كله منه مباشرة، فور نزوله من السماء، ثم بلغوه من بعدهم كما فهموا بلغ التابعون لتابعهم، وهكذا يبلغ السابق اللاحق إلى العهد العباسي، وقد كانوا كلهم في تلك العهود السابقة على عقيدتهم الوحيدة، ولا يعرفون معنى للخلاف في العقيدة كما تقدم في غير موضع من الرسالة.

الباب السابع: آثار الصفات الإلهية في النفس البشرية والكون

إذا كنا قد تحدثنا عن العلاقة بين الصفات والذات وبينما ما بينهما من التلازم، ثم استعرضنا طبيعة علاقات الصفات بعضها بعض من حيث الآثار والمعنى، ثم تحدثنا عن حكم من نفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وأن ذلك قد يؤدي إلى الكفر أحياناً وعرفنا أخيراً موقف كل من السلف والخلف من معانٍ صفات الله تعالى وأسمائه. بقي أن نعرف ما آثار تلك الصفات في هذا الكون عامة وفي النفس البشرية خاصة. لذا نقول:

الصفات وآثارها في النفس البشرية والكون:

إن الله تعالى خالق كل شيء، ومدبر هذا الكون وحده، وهو المنعم المفضل. فهذه المعانٍ تكمن في أسمائه الحسنى وصفاته العلي. فلا بد من ظهور آثار أسمائه وصفاته في هذه الحياة في النفس البشرية بل وفي الكون كله، إلا أن الاهتمام إلى تلك الآثار أو الانتباها لها

يتوقف على توفيق الله تعالى.

ولو أجال الإنسان فكره في هذا الكون الفسيح، بل لو فكر في نفسه جيداً وراجع ماضيه وأطوار حياته، ثم فكر فيما حوله لرجوع من هذه الجولة بعجائب، واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، وكما قلت إنما يتوقف الأمر على توفيق الله اللطيف الودود بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التي سوف تكون حجر الزاوية في بحثنا في هذه النقطة.

ولبيان ما أشرنا إليه بجعل منطلقنا الآية الكريمة {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} ⁶⁸³، فحكمته تعالى تأبى أن خلق الخلق عبشاً، ويتركهم سداً، ويسلمهم للفوضى، لا أمر ولا نهي، ولا تدبير ولا تعليم ولا توجيه. بل موجب حكمته تعالى أن يكونوا على عكس ما ذكر كما هو الواقع، خلقهم فدبر أمرهم من السماء إلى الأرض، فبعث إليهم من يقوم بتعليمهم وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم ويعرفهم برهم وخالفهم ويعرفهم بحقه عليهم، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ولا يتخذوا من دونه نداً وهو خلقهم كما يعرفهم حقهم على رهم وخالفهم المتفضل عليهم بأن يجعل لهم حقاً على نفسه لطفاً وتفضلاً وإحساناً لأن من أسمائه الرحمن الرحيم، وهو لطيف بعباده، وهو بالمؤمنين رحيم رحمة خاصة، علماً بأن رحمته العامة وسعت كل شيء. وقد وسع عباده رحمة وعلماً، وقد بعث إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيته ويزكيهم وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

هنا لطيفة أود التنبيه عليها، وهي أن الله وصف نبيه الكريم ورسوله الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم بالرحمة حيث يقول عز وجل: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} ⁶⁸⁴، ما ألطف المقام! لأن الله الذي أرسل رسوله إلى عباده هو الرحمن الرحيم، ومن آثار رحمته أن أرسل هذا الرسول إليهم وهو من أنفسهم، ليس بجني ولا ملك لكيلا يستوحشوا منه - والله أعلم - ثم وصف هذا الرسول بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. فجعل نبيه بهذه المشابهة ووصفه بهذه

⁶⁸³ سورة المؤمنون آية: 116-115.

⁶⁸⁴ سورة التوبة آية: 128.

الصفات أثراً من آثار رحمته الكثيرة التي لا ينبغي التفكير في حصرها والإحاطة بها لأنها - كما قلنا بلغت حيث بلغ علمه، وهو بكل شيء علیم، هذه النقطة من بحر آثار رحمته سبحانه ومن أسمائه (الملك) ومن موجب صفة الملك أن يتصرف في مملكته ويفعل، بل هو فعال لما يريد، وتأبی هذا الصفة أن يكون معطلاً عن الفعل، لأن الفعل كمال وعدم الفعل نقص، وما نشاهده في هذا الكون من إحياء وإماتة وعطاء ومنع ومن إعزاز وإذلال ورفع وخفض وغيرها من تلك الأفعال التي لا تنتهي (ثانية) من الزمن التي هي بعضٌ وبعضٌ يسير جداً من آثار صفة الملك وغيرها من بعض الصفات مثل صفة الحياة والإرادة والقدرة.

يحدثنا الإمام ابن القيم في هذه النقطة المهمة حيث يقول رحمه الله: والأسماء الحسنى والصفات العلي، مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها آثارها من الخلق والتكونين. فكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها. إلى أن قال: فعلم العبد بتفرد رب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع، والخلق والرزق للإحياء والإماتة يشمر له عبودية التوكل عليه باطنًا. ولو الزم التوكل وثراته ظاهراً⁶⁸⁵ اهـ.

وهذه الإشارة اللطيفة من الإمام ابن القيم تشير الانتباه إلى أن من آثار الأسماء الحسنى والصفات العلي تلك المعانى التي يجدها العبد في عبوديته القلبية التي تشمل التوكل على الله والاعتماد عليه وحفظ جوارحه ومحطرات قلبه وضبط هوا جسه حتى لا يفكر إلا في مرضاته يرضى الله ويحب الله وفي الله، به يسمع وبه يبصر ومع ذلك هو واسع الرجاء وحسن الظن بربه وهما أثران من آثار معرفته لجوده وكرمه وبره وإحسانه، وإنه عفو يحب العفو وإنه واسع الرحمة.

هذه المعانى وما في معناها تشمل له العبودية الظاهرة والباطنة على تفاوت بين شخص وآخر، ذلك فضل الله يؤتى به من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

هكذا ترجع العبودية كلها إلى موجب أسمائه وصفاته، بل وترتبط بها جميع شئون

⁶⁸⁵ مفتار دار السعادة 2/ 90 للإمام ابن القيم.

الخلق، ومن أسمائه تعالى الغفار، التواب، العفو، فلا بد لهذه الأسماء من موجبات ومتصلقات. الغفار هو الذي يغفر الذنوب، والعفو هو الذي يعفو بصفح عن المفوات والخطايا ويمحوها، التواب هو الذي يقبل التوبة عن عباده بل ويفرح بها، وذلك يعني أنه لا بد من وقوع أخطاء ومخالفات أو جرائم يعفو عنها رب العفو سبحانه، ولا بد من ذنوب وجناية تغفر، فالرب تعالى عفو يحب العفو ويحب المغفرة والسامح وبينما العبد يتقرب إليه بعبودية امثالي المأمورات واجتناب المنهيات، ويجهد في الطاعات إذ يجد نفسه قد زل وانزلق. فيبادر إلى عبودية التوبة والاعتراف والإقرار والنندم والبكاء على ما جنى، يطلب العفو والغفران متبرأ من حوله وقوته ومعرفاً بعجزه وضعفه ومسكتته، وهي من أحب أنواع العبودية كما تقدم، يدل على ذلك فرح الله العظيم تلطفاً بهذا المسكين الذي لولاه سبحانه لم يكن له خلاص مما وقع فيه.

هكذا يظهر جلياً آثار أسمائه العفو الغفار التواب الحليم اللطيف، وأن الذي تقتضيه حكمته سبحانه أنه يقدر الأرزاق والأجال وغيرها لحكمة يعلمهها ولا يعلمهها غيره، لأنه لا يفعل ما يفعل ولا يقدر إلا لحكمة، وكذلك تقدير الذنوب والمعاصي. إنما يقدرها ويتلبي بها عباده لحكمة حفية ولطيفة.

ولعل من الحكم في تقديرها - والله أعلم - جبه تعالى لعبودية التوبة والإنابة، والقضاء على داء الإعجاب والكبر والأنانية ليعرف العبد قدر نفسه وأنه ليس بشيء إلا بالله وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، ولو لم يحفظه هلك في يد عدوه (الشيطان) وإن لم تدركه رحمة ربه لبقي أسيراً في قبضة عدوه، ولكن الله اللطيف الغفار هو الذي ينقذه ويخلصه من الأسر إذا قرع بابه في مسكنة وذل وعجز وهو يجأر إليه **{لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**، "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عن".

ومن هنا يأتيه ذلك الإسعاف - وهو يكاد أن ييأس - "الله أشد فرحاً بتوبة عبده" الحديث، ومثال العبد في هذا الموقف يقضي - كما قلت - على داء خطير وهو داء العجب والغرور، وخير ما يشهد لما ذكرنا حديث أنس بن مالك عند القضايع يرفعه:

"لو لم تذنبوا لخشت عليكم ما هو أشد من ذلك، العجب العجب"⁶⁸⁶ اهـ.

وقال بعد أهل العلم: إنما كان العجب أشد، لأن المعاصي معترف بنقصها، فترجمى له التوبة، والمعجب مغور بعمله فتوبيته بعيدة.

وقد وردت في هذا المعنى عدة أحاديث من عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين منها: حديث أبي أيوب الأنباري رضي الله عنه الذي يقول عندما حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لولا أنكم تذنبون، لخلق الله خلقاً يذنبون ويغفر لهم".

ومنها رواية لأبي أيوب نفسه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم، بل جاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم".

ومنها حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبو لذهب الله بكم، وبلغاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم"⁶⁸⁷.

ومنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "لو لم تذنبوا بل جاء الله بقوم يذنبون ويغفر لهم".⁶⁸⁸

عند القضايعي، رفعه العجلوني في كشف الخفاء.

وهذه الأحاديث يفهم منها مكانة (عبودية التوبة) والإنابة والرجوع إلى الله من وقت آخر، وعدم الاعتماد على الأعمال لئلا يهلكه الغرور وربما أدى ذلك إلى نسيان ربه وولي نعمته سبحانه إذ يرى نفسه كل شيء.

ولمكانة هذه العبودية (عبودية التوبة) ولزوم الاستغفار، ولكونها محبوبة إلى الله تعالى، وفيها تكمن مصالح العباد لذلك كله يتليهم ربهم بأسبابها "وقد جعل الله لكل شيء سبباً" حكمة منه وكأنه عليه الصلاة والسلام يقول: لو لم تتوافر فيكم أسباب عبودية التوبة لذهب الله بكم وبلغاء بقوم آخرين تتوافر فيهم تلك الأسباب ليتقربوا إلى الله بالتوبة ولزوم

⁶⁸⁶ مسند القضايعي ص: 160 مخطوط تحت رقم 77 مكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي القضايعي صاحب المختار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالشهاب توفي عام 454هـ (معجم المؤلفين 10/42).

⁶⁸⁷ صحيح مسلم بشرح النووي 17/64-65 الطبعة الأولى المصرية بالأزهر.

⁶⁸⁸ حسنة القضايعي وتقديره.

الاستغفار، ولكن الله لطف بكم فجعلكم أنتم الذين تتمتعون بهذه العبودية، تذنبون ولا محالة، فإذا أذنتم فلا ملجاً لكم إلا إلى الله تفرون منه إليه، و تستغفرون له و تجأرون إليه وحده فيتوب الله على من شاء منكم.

هذا ملخص معنى الحديث - والعلم عند الله - هكذا أراد الله لعباده التوابين أن يعيشوا في آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، تفضلاً منه وإحساناً وهو الغفور الشكور.

قال الإمام ابن القيم: ومن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنایات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات، والأفعال، إلى أن قال: فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة والآيات الباهرة. ثم واصل كلامه وهو يقول: إن كل اسم له تعبُّدٌ يختصُّ به علمًاً ومعرفةً وحالاً.

وأكمل الناس عبودية هو المتبع بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم) و(الرحيم) أو يحجبه التعبد باسمه (المعطي) عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه الرحيم، العفو الغفور عن عبودية اسمه المنتقم الجبار مثلاً إلى أن قال: هذه طريقة الكمال من السائرين⁶⁸⁹ ١.هـ

ولعل الإمام ابن القيم يريد أن يأخذ هذه المعاني التي فصلها، من قوله تعالى: {وَلِلّٰهِ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}، بعد أن يتسع في مفهوم الدعاء ليشمل دعاء المسألة،
ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، لأن الله تعالى يدعوك عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله
ليعبدوه في ضوء تلك المعرفة ويثنوا عليه سبحانه، فعلم العبد بأن ربه معه يراه ويرى مكانه
ويسمع كلامه ويعلم منه كل شيء جليله ودقيقه، وأنه هو الذي يحركه إذا شاء فيوقفه
ليعبدوه، ثم هو الذي يحب دعوته تفضلاً منه ويعطيه سؤاله. إن إدراك العبد لهذه
المعاني يورثه الحباء من الله والخجل عندما تحدثه نفسه الأمارة بالسوء بنوع من المخالفه.
كما يورثه في الوقت نفسه الرغبة في التوبة والإنابة والرجوع كلما أصابته (عشرة أو كبواة)
في سيره إلى الله سبحانه. ولا يأس من رحمته، هذه بعض آثار إيمانه بأن الله معه، وأنه

⁶⁸⁹ ابن القيم: مدارج السالكين 419-420 تحقيق حامد الفقي ومحمد محي الدين.

قريب منه في كل لحظة.

وهذه الآثار جميعها تنقله إلى عبودية (المحبة) فيحب الله حق المحبة، ويؤثر محبته على محبة كل محبوب، فيقدم طاعته على طاعة كل مطاع، ويتfanى في عبادته، ويجد فيها الراحة كلها "أرحنـا بها يا بـلال" ويحس بالوحشة إذا ضعفت هذه (الطاقة) ويصبح قلقاً (خبيث النفس) ولا يهدأ له بال حتى يستجير بالله وحده لينقذه فيجیره ربه، وهو اللطيف بعباده - فتعود له تلك المعاني والعبودية التي فقدها. فهذه نفسها عبودية أخرى، وهي عبودية (الجهاد للنفس) فهو دائماً في هذا الصراع وفي هذا الجهاد من وقت لآخر، وربك علیم حليم لا يقع شيء مما ذكرنا وما لم نذكره إلا بعلمه وتقديره، وحكمة منه سبحانه.

فآثار إيمان العبد بأسماء الله وصفاته، وفي مقدمة ذلك آثار إيمانه بمحبته وقربه، وأثار محبة العبد لربه ومولاه محبة صادقة فلا بد أن تترجم كلها إلى حسن عبادته والحرص على طاعته واتباع هدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والتfanى في الخدمة طالباً رضاه سبحانه.

وبعد فهذا المقام مقام يصعب على المرء العادي أن يخوض فيه، وهو فوق طاقته، فلنندع الميدان لفرسانه، فلنمسك القلم عن الخوض فيما هو عاجز عنه.

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
فجاوزه إلى ما تستطيع

فنعود لابن القيم حيث يقول: وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته فهو (علیم) يحب العلم ويحب كل علیم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، ثم قال: فلمحبته للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خلق من يغفر له، ويتوّب عليه، ويعفو عنه، وقدر عليه ما يقتضي وقوع المکروه، والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له، والمرضيّ عنه.

ثم ذكر أن الأسباب مع مسبباتها أربعة أنواع:

النوع الأول: سبب محبوب يفضي إلى أمر محبوب لله.

النوع الثاني: سبب مکروه يفضي إلى أمر محبوب له سبحانه، وذكر أن هذين النوعين عليهمما تدور أقضيته تعالى وأقدراه بالنسبة إلى ما يحبه ويكرهه.

وأما النوع الثالث: فمكروه يفضي إلى مكروره.

النوع الرابع: محبوب يفضي إلى مكروره وهم ممتنعان في حق الله سبحانه، وذلك لأن الغايات المطلوبة من قضائه تعالى وقدره الذي لم يخلق ما خلق ولم يقض ما قضى إلا لأجله لا تكون إلا محبوبة للرب تعالى مرضية له سبحانه.

وأما الأسباب الموصلة إليها فمنقسمة إلى محبوب له، ومكرور له.

فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له موصلة إلى الإحسان والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة موصلة إلى العدل المحبوب له، كذلك هكذا يتضح أن مدار القضاء والقدر وما يترتب عليهما إنما هو على أسماء الله وصفاته بصرف النظر عن نوع المضي والمقدار. فكل ذلك من الله ومن آثار اسمائه وصفاته. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والشأن كل الشأن في فقه ذلك: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".⁶⁹⁰

وبعد، فلو قيل إن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تسعه وتسعين اسمًا من حفظها دخل الجنة" هو إدراك آثار الأسماء الحسنة والصفات العلى إدراك آثارها في الكون بما يقضيه الله ويقدرها وفي النفس البشرية والتصرفات الإنسانية اليومية وغيرها ثم التزام التعبد بآثار كل اسم دون أن يحجبه التعبد بآثار اسم معين عن التعبد بآثار اسمائه الأخرى، لو قيل: إن هذا من معاني الحديث لما كان هذا القول بعيداً فيما يبدو لي. ولو كنت أعلم أن لي سلفاً في هذا المعنى لاخترته وأيدته. وإن كان تحقيقه صعباً، ولكنه يسير على من يسره الله عليه.

فالجنة سلعة غالبة فثمنها ليس في متناول كل أحد. "حفت الجنة بالمالكاره والنار بالشهوات".

⁶⁹⁰ راجع مدارج السالكين لابن القيم 1/420-421.

الخاتمة

وبعد أن أتممت عملي بتوفيق من الله وعونه - في هذه الرسالة - أرى تذليلها بخاتمة للبحث مرتبة حسب ما وردت في أبواب الرسالة وفصوتها ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: المدخل

وقد بحثت في هذا المدخل نقاطاً كثيرة.

منها: تعريف السنة لغة مع ذكر الشواهد اللغوية توضح المعنى المراد، ثم عرفتها في الاصطلاح وأوردت اصطلاح الفقهاء مع الأمثلة.

واصطلاح الحدثين كذلك، وذكرت أنها قد تأتي في مقابل البدعة، وذلك كقولهم: فلان على السنة إذا كان عمله وتصرفاته الدينية وفق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم كما يقال: فلان على خلاف السنة أو مخالف للسنة إذا كان مبتدعاً.

ثم تحدثت في آخر هذه النقطة عن الفرق بين السنة والقرآن وبينت أن القرآن كلام الله لفظه ومعناه، متبعد بتلاوته ولا تصح الصلاة إلا به، بخلاف السنة فإنها، إنما تنسب إلى الله من حيث المعنى فقط، وأما لفظها فمن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تقرأ تبعداً ولا تصح بها الصلاة وأما من حيث ثبوت الأحكام والعقيدة بها فهي كالقرآن من هذه الحقيقة ولا فرق بينهما.

وأما الحديث القدسي فهو يوافق القرآن في أنه من عند الله لفظاً ومعنى، مع ملاحظة الخلاف، ويافق الحديث النبوي في أنه لا يتبعد بتلاوته ولا تصح الصلاة به.

وأما البحث الثاني: فقد أثبتت فيه حجية القرآن والسنة في باب العقيدة، بل أوضحت أنها هما المصادران الأساسيان لكل بحث في العقيدة لكوئهما وحيين من الله تعالى بصرف النظر عن الفوارق التي ذكرناها آنفاً.

ثم انتقلت إلى البحث الثالث فتحدثت فيه عن مدى حجية أخبار الآحاد في باب العقيدة، فأثبتت أنه لا فرق عند التحقيق بين المتواتر والآحاد في إثبات الصفات، لأن المدار

على صحة الحديث وثبوته عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأثبتت بعد مناقشة طويلة أنه لا يوجد ما يثبت أن للعقيدة فئةً معينة من الأدلة غير الفئات التي يستشهد بها في الأحكام وأن التفريق بين الآحاد والمتواتر من حيث الاستدلال بهما عمل لا مستند له، وأن القائلين بهذا القول ليس لهم سلف، وقد قسمت الأحاديث إلى أربعة أقسام: أحدها: المتواتر لفظاً ومعنى. وثانيها: المتواتر معنىً لا لفظاً.

وثالثها: الأخبار المستفيضة الملقاة بالقبول لدى الأمة.

رابعها: أخبار آحاد مروية بنقل رواة عدول ضابطين من أول السند إلى آخره، ثم تحدثت عن كل قسم. من حيث الاستدلال به في باب العقيدة، وأثبتت الاستدلال حتى بالقسمين الآخرين استناداً إلى عمل المسلمين في الصدر الأول وما إليه، وذكرت أمثلة حيةً لذلك، في العصور السابقة وسقت عدة أحاديث للاستشهاد بها فيما ذهبت إليه، ونوهت أن ما ذهبت إليه هو ما عليه المحققون من الأئمة الذين لهم وزنهم عند أهل العلم. وأما المبحث الرابع: فقد تحدث فيه بإسهاب عن بدعة الزاعمين الاكتفاء بالقرآن وإهمال السنة ووصفه هؤلاء بالجهل أو التجاهل حيث يكابرُون الواقع الذي يعلن عن نفسه بأن السنة تفسير للقرآن، وأن القرآن نفسه يدعو إلى الأخذ بالسنة والعمل بها إذ يقول الله تعالى: {وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} وبيّنت أن الأمر بأخذ ما جاء به الرسول يشمل كل ما صحت به السنة المطهرة من الأحكام وإثبات صفات الله وإثبات المعاد وغير ذلك، ورداً في القرآن أو لم يرد، لأن ذلك من مقتضى الإيمان بالرسول ورسالته.

وذكرت أن هؤلاء القرآنيين الجدد ليس لهم سلف فيما ذهبوا إليه إلا غلاة الرافضة والزنادقة، بل أوضحت أن غلاة هؤلاء الروافض الذين هم سلف القرآنيين الجدد اهتموا من شدة وقاحتهم جبريل عليه السلام بعدم العصمة حيث زعموا أنه أخطأ فنزل بالوحى على محمد عليه الصلاة والسلام، بينما كان الواجب أن ينزل بالوحى على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذكرت هنا ما يلزمهم من هذا الزعم من لوازم كفرية لا

يستطيعون الفكاك منها عقلاً وشرعياً.

ثم ذكرت ضعف الحديث الذي استدلوا به على ما زعموا، وبينت - بناء على ما ذكره علماء الحديث - أنه حديث هالك لا تقوم له قائمة، وتقدم تخرجه. ونقلت كلام الإمام الشافعي الذي قسم فيه السنة إلى ثلاثة أقسام: ومن الأقسام الثلاثة، ما سن الرسول صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نص الكتاب إلى آخر الحوار الطويل بين أهل السنة وعلماء الحديث وبين دعاه الاكتفاء بالقرآن. وأضحت في نهاية المطاف في هذا المبحث أن الكفر بالسنة يلزم منه الكفر بالقرآن ولا محالة.

وأما المبحث الخامس: فقد تحدثت عن منهج السلف في إثبات صفات الله وأسمائه، أولاً: عرفت من هم السلف، وبينت بداية اشتهر هذا اللقب وسببه وهو ظهور النزاع في أصول الدين بين الفرق الكلامية ومحاولة الجميع الانتساب إلى السلف الصالح، ثم تحدثت عن قواعد وأسس للاحتجاج السلفي التي بها يعرف المنهج، حتى لا يختلط الأمر على الذين يريدون الاقتداء بهم في كل زمان.

القاعدة الأولى: تقديم النقل على العقل. وقد تحدثت في هذه القاعدة بإسهاب. القاعدة الثانية: رفض التأويل في باب الأسماء والصفات خشية القول على الله بغير علم، لأن المعنى المؤول إليه ظني غير يقيني، وناقشت هنا مشكلة معارضة العقل للنقل وأثبتت أن النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح، وقد كررت هذه القاعدة في غير موضع بال المناسبات لأهميتها.

أما القاعدة الثالثة: فهي عدم التفريق بين الكتاب والسنة بل السنة هي التفسير والتفصيل للكتاب فيما أجمل فيه من أحكام، وقد أوضحت في هذه النقطة أن السلف يعملون بما تنفرد به السنة أحکاماً وعقيدة بعد التثبت من صحتها، ثم أوردت من أقوال بعض علماء التابعين وتابعبي التابعين ما يشهد لما ذهبت إليه وفي آخر هذه النقطة ذكرت ما نقله البيهقي عن الإمام الشافعي في حكمه على أهل الكلام المخالفين لمنهج السلف حيث يقول: حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريدة،

ويقال: هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام، ولإمام مالك كلام يشبه كلام الشافعي رحمهما الله.

أما المبحث السادس: فقد تحدثنا فيه عن مفهوم الذات والصفات عند علماء الحديث والسنة وذكرنا فيه بأن علماء الحديث والسنة يؤمنون بذاته الموصوفة بجميع الكمالات، وأنه لا حد لكمالاته، فكمالاته لا تعد ولا تحصى كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "لَا أَحْصِي شَيْئاً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ" ، وليس الأمر كما زعمت المعتزلة أن اتصافه تعالى بالصفات يتنافى والتوحيد وأوضحت أنه زعم فاسد عقلاً وشرعاً، وما أوضحت في هذه النقطة أن علم حقيقة ذاته تعالى وكيفيتها أمر لا سبيل إليه لأي مخلوق إذ ليس من الجائز ولا من الممكن أن يحيط المخلوق بالخالق {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} .

ثم أوردت مناقشة جرت حول لفظة (ذات) بين أهل العلم وخلاصتها: أن إطلاق لفظة (الذات) في حق الله تعالى وارد في السنة الصحيحة استدلالاً بقصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: "ثلاث كذبات كلهن في ذات الله" ، وقصة (خبيب) رضي الله عنه حيث يقول: (وذلك في ذات الإله) إلى آخر الآيات.

ثم تحدثت في الفصل الأول في هذا المبحث عن معنى الإلهية، وبينت فيه أن (إله) فعال معنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب، وإمام بمعنى مؤتم به، فيكون معناه (عبد) وناقشت هذه اللفظة مناقشة لغوية مستفيضة.

وخلاصتها أن إله والآلة يطلقان على كل ما عبد بأي نوع من أنواع العبادة ولو كان المعبود من الجمادات.

وأما لفظ الحلال (الله) فلا ينطلق إلا على المعبود بالحق، وهو حالق السموات والأرض.

أما في الفصل الثاني: فقد تناولت فيه معنى الصفة لغة واصطلاحاً، وذكرت أن الصفة والنعت مترادافان مع الإشارة إلى الخلاف القائم في المسألة، وربما رأى بعضهم أن الصفة أعم من النعت، لأنها تنطلق على الصفات الذاتية الثابتة وعلى الصفات متتجدة معاً، وأما

النعت فلا ينطلق إلا على الصفات المتتجدة، هذا ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله. وللصفة إطلاقات كثيرة في اللغة، وقد أوردت أكثرها في هذا الفصل، ثم ذكرت معنى الصفة في اصطلاح المتكلمين وهي حال وراء الذات أو ما قام بالذات من المعانى والنعوت. وهي صفات الحلال والكمال في حق الله تعالى، ثم بينت أن صفات الله تعالى توقيفية، فلا مجال فيها للاجتهاد والاستحسان، بل الواجب في هذا الباب الوقوف عند ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ثم ختمت هذه النقطة بالتنويه بأن الصفات كلها من باب واحد ذاتية كانت أو فعلية.

وأما الفصل الثالث: ففيه بحث موجز عن الذات الإلهية في القرآن.

وقد أوردت في هذا الفصل عدداً من الآيات القرآنية تتحدث عن الذات الإلهية، دون تصريح بذلك (الذات) وكثيراً ما يصدر الحديث باسم (الله) فالله علم على الذات العلية، فسقت آيات كثيرة في هذا المعنى مثل قوله تعالى: **{الله لا إله إلا هو الحي القيوم}** هذا، وأوضحت في آخر هذا الفصل أن السلف الصالح من الصحابة والتلابين رضي الله عنهم أجمعين كانوا يتلون القرآن الكريم ويسمعون أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيراً ولكنهم لم يقفوا قط موقف التساؤل: هل الصفة غير الذات أو هما شيء واحد؟ هذا ما لا يخطر على بال أحد منهم. بل يعتبر هذا المبحث وأمثاله من مبتكرات علم الكلام.

وأما الفصل الرابع: فقد تحدثت فيه الذات في السنة وبينت فيه أنه قد وردت عدة أحاديث فيها إطلاق لفظ (الذات) وإثباتها لله تعالى ثم سردت بعض تلك الأحاديث:

- 1- حديث قصة إبراهيم الذي تقدم.
- 2- حديث قصة خبيب الأنباري وتقدمت الإشارة إليه.
- 3- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في الله" وفي معناه حديث أبي الدرداء، ثم ختمت تلك الأحاديث بقول حسان رضي الله عنه: إذ يقول:

يجاهد في ذات الإله ويعدل

وإن أخا الأحقاف إذ قام فيهم

وأما المبحث السابع: فقد تحدثت فيه عن مواقف خمسة من كبار الأئمة وسميت بهم المدافعين عن منهج السلف وهم:

1- الإمام أحمد بن حنبل.

2- الإمام البخاري.

3- الإمام الدارمي.

4- الإمام ابن تيمية.

5- الإمام محمد بن عبد الوهاب.

وقد أوضحت موقف كل واحد منهم من منهج السلف، وكيف دافعوا عنه واستشهدت على ذلك بما سجلوا في كتبهم مع الإشارة إلى أن هناك أئمة آخرين قاموا بما قام به هؤلاء الأئمة مع وجود الفوارق في ذلك.

وقد تحدثت في هذا المبحث عن تاريخ بدء ظهور الجهمية، وذلك في المائة الثانية من الهجرة، ثم انتشرت في المائة الثالثة، كما تحدثت عنمن تولى إذاعتها والدعایة لها والدفاع عنها، وذكرت في آخر هذا المبحث استنكار الأئمة المعروفين بالإمامنة في الإسلام لموقف الجهمية، كالإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وابن الماجشون، والأوزاعي وغيرهم.

المبحث الثامن: أما هذا المبحث فقد ناقشت فيه موقف كل من المعتزل والأشاعرة من نصوص الصفات بعد أن عرفت كلاً من المعتزلة والأشاعرة وبينت أسباب التسمية لكل من الطائفتين، ثم بينت أن الاعتزال يدور على أربع قواعد:

القاعدة الأولى: القول بنفي صفات الله تعالى ذاتية أو فعلية.

القاعدة الثانية: القول في القدر بغير علم حتى نفوا علم الله للأشياء أزلاً وكذا التقدير السابق.

القاعدة الثالثة: القول بالمنزلة بين المنزليتين.

القاعدة الرابعة: الخوض فيما جرى بين الصحابة من الأمور الاجتهادية.

ثم ذكرت أصولهم الخمسة المعروفة وعددتها أصلًاً أصلًاً نقلًاً من مراجعهم.

كما بينت خطأهم في مفهوم التنزيه حيث زعموا أن التنزيه هو نفي الصفات كلها وعدم وصف الله بأي صفة. وهنا ناقشتهم كثيراً في هذا الخطأ وبينت بعدهم عن النصوص.

وأتبعت ذلك بيان التنزيه عند السلف، وخلاصته أن ينفي عن الله ما لا يليق به من النقائص كالصاحبة والولد والوالد والشريك والمماثل له في صفاته وأسمائه وأفعاله، مع إثبات كمالاته جملة وتفصيلاً.

ثم أجريت حواراً ومحاججة بين الباطنية والمعزلة، وموضوع المحاججة تناقض المعزلة في موقفهم من النصوص حيث يؤولون نصوص الصفات ولا يؤولون نصوص المعاد. وفي هذه النقطة حاججت الباطنية المعزلة فحجتها.

ثم تقدمت المعزلة للأشاعرة بمحاججة مماثلة في تأويل الأشاعرة بعض الصفات دون بعضها فحجتهم المعزلة (وكلّ كاسرٌ مكسورٌ).

والمبحث التاسع: يشتمل على فصلين:

الفصل الأول: في بيان أسباب انتشار العقيدة الأشعرية واحتياطها في العالم على الرغم من رجوع الإمام أبي الحسن إلى طريقة السلف الصالح، وقد أوجزت تلك الأسباب فيما يلي:

1- كثرة الحق عندهم بالنسبة للباطل الكثير الذي عند غيرهم من طوائف أهل الكلام.

2- استعمالهم الأدلة العقلية في مواجهة المعزلة مما أكسبهم الشعبية.

3- ضعف الآثار النبوية في تلك العصور لأن الآثار هي التي تبين للناس سبيل الحق حتى لا يقعوا في المشبهات والبدع.

4- العجز والتقصير الواقع في المتسبين إلى السنة والحديث حيث يرون أحياناً ما لا يعلمون صحته من الآثار والأحاديث.

وتارة يكونون كالآميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، ويعرضون عن بيان دلالة

الكتاب والسنّة عن حقائق الأمور إلى غير ذلك من الأسباب التي ذكر بعضها المقرizi في خططه المعروفة⁶⁹¹.

الفصل الثاني: في بيان موقف كبار شيوخ الأشاعرة من منهج السلف، وقد أثبتت في هذا الفصل رجوع أولئك الأئمة إلى منهج السلف في آخر حياتهم بعد أن قضوا زمناً غير قصير في علم الكلام، وبعد رجوعهم أثروا على مذهب السلف ثناءً عاطراً هو أهل له، ثم دعوا شيوخهم وزملاءهم إلى الرجوع إلى الحق الذي وجدوه في منهج السلف ومن هؤلاء الأئمة بل وفي مقدمتهم:

أ- الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله الذي أثبت رجوعه فيما سجله في كتابه (الإبانة) وأوردت أسماء عدد من العلماء من ذكرروا رجوعه رحمه الله:

1- منهم ابن عساكر.

2- ابن خلkan.

3- الحافظ ابن كثير.

4- الذهبي.

وأخيراً محب الدين الخطيب الذي تحدث عن أطواره الثلاثة.

أولاً: طور الاعتزال إذ كان إمام في الاعتزال.

ثانياً: خروجه عليهم ومعارضته لهم بأسلوب متوسط بين أساليبهم ومذهب السلف.

ثالثاً: وأخيراً انتقاله إلى مذهب السلف وتأليفه فيه كتابه (الإبانة) في أصول الديانة

وأمثاله، وما ذكره محب الدين في رجوعه العبارة التالية: (وقد أراد أن يلقى الله وهو على ذلك) أي على المذهب السلفي.

ب- الإمام الجويني (الأب) والد الإمام الحرمين، وقد تحدثت عن رجوع هذا الإمام بإسهاب، ونقلت نقولاً متنوعة من رسالته التي ألفها بعد رجوعه إلى مذهب السلف، وبيّنت في ترجمة هذا الإمام أنني لم أجده أحداً رجع عن علم الكلام إلى مذهب السلف رجوعاً كرجوعه وهو أصدقهم لجة وأخلصهم نصحاً لمن خلفهم بعده من شيوخه

⁶⁹¹ تقدم الكلام عليها.

وأصدقائه، والرسالة المشار إليه لا تتجاوز (15) صفحة. وأوضحت أنها على قصرها حقق فيها الإمام مسائل العلو والاستواء وصفة الكلام تحقيقاً لم يسبق إليه - فيما أعلم - وهذا هو سر ثنائي عليها وعلى مؤلفها الإمام الجويي (الأب). وقد أبرزت الجانب الذي ركز عليه الإمام في (رسالته) وهو إثبات صفة العلو والفوقية.

ج- الجويني الابن: ترجمت لهذا الإمام وتحدث عنه حديثاً أوضحت فيه ندمه في آخر حياته على خوضه في علم الكلام إلى أن رجع إلى مذهب السلف، ونما يعبر عن رجوعه رسالته المعروفة باسم (النظمية)، وأحب أن أثبت بعض عباراته التي وردت في النصيحة التي وجهها لأئمة الشافعية، حيث قال: (يا أصحابنا لا تشغلو بعلم الكلام، ولو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به).

د- الإمام الغزالى: وقد ترجمت لهذا الإمام ترجمة موجزة لأثبت من خلالها رجوعه إلى مذاهب السلف وتحذيره من الخوض في علم الكلام - وأصرح كلام قاله الإمام في هذا الصدد قوله في عنوان كتابه اللطيف (إيجام العوام عن علم الكلام)، وقد أشاد الغزالى في هذا الكتاب بمذهب السلف وتحدث عن حقيقته وخلاصة ما قال في مذهب السلف:
"مذهب السلف هو الاتباع دون الابتداع".

هـ- أبو الفتح الشهري: وقد أدركت من خلال ترجمته الموجزة أنه تنتمي كثيراً على خوضه الطويل في علم الكلام، وعبر عن ذلك في آخر كتاب ألفه: (نهاية الإقدام في علم الكلام). والكتاب مطبوع معروف.

و- فخر الدين الرازي المتكلم المعروف وقد أُعلن عن رجوعه في مناسبات كثيرة،
وأوضح شيء في ذلك ما تضمنه هذان البيتان:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثـر سعي العالمين ضلال
ولم نستفـد من بحثـنا طول عمرـنا
سوـى أـن جـمعـنا فـيه قـيل وـقال
إـلى آخر تـلك الأـبيـات المـنـقـولة عنـه.

وقد برهنت بما نقلت عنهم أن بعض كبار شيوخ الأشاعرة رجعوا عن الأشعريّة

الكلاسية، مقتدين بالإمام أبي الحسن نفسه، وهو إمامهم في الأشعرية أولاً، وإمامهم بالسلفية أخيراً.

ولله الحمد والمنة.

هذه النقاط هي خلاصة النتائج التي اشتمل عليها المدخل.

الباب الأول:

وبعد أن أنهيت الكلام على المدخل أوردت خمس نقاط مهمة ينبغي الوقوف عليها قبل الشروع في الكلام على الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهي:
أولاً: إن ما يدخل في باب الإخبار عن الله تعالى أوسع مما يدخل في أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بالنفس والمخالف للحوادث والقديم.

ثانياً: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه تعالى، بل يطلق عليه معنى الكمال فقط، وهذا كالمريد، والفاعل والصانع عند الإطلاق.

ثالثاً: لا يلزم من الإخبار عنه تعالى بالفعل المقيد أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعضهم مثل المضل والفاتن والماكر، وغيرها.

رابعاً: لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعداد الأسماء الحسنى التسعة والتسعين، التي من حفظها دخل الجنة، ولكن اعتماد أهل العلم في ذلك على الكتاب العزيز مع بعض الآثار التي يشهد لها الكتاب.

خامساً: قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير بعد أن ذكر أقوال بعض أهل العلم في تعداد الأسماء الحسنى: وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررت منه تسعة وتسعين اسماءً إلى آخر كلامه بهذا الصدد.

ثم تحدثت عن مزاعم أهل الكلام في الأسماء والصفات وتخبطهم بغير علم، حيث ينفي بعضهم الصفات والأسماء معاً ليزعم وجود ذات مجردة عن الأسماء والصفات، وهذا من أفسد مزاعمهم، إذ هو ضرب من المحال وهؤلاء هم الجهمية الغلاة، ثم سجلت مناقشة مستفيضة للإمام ابن القيم في هذه النقطة حيث أثبتت في آخر المناقشة أن هذا من أعظم الإلحاد في أسماء الله، ثم أشرت إلى كلام الإمام البيهقي في نفس المعنى.

ثم ذكرت الفرق بين الأسماء والصفات، فأثبتت أن الصفات إنما هي من معاني الأسماء الحسنى في الغالب بخلاف بعض الصفات مثل الوجه واليدين والقدم وغيرها، والأسماء دالة عليها كما تدل على الذات. وهو ما يعني الإمام البيهقي بقوله: "وأسماؤه صفاتة، وصفاته أوصافه".

ثم أوضحت بطلان مذهب المعتزلة وتناقضهم لأنهم قد ينفون الصفات مع دعواتهم إثباتاً لأحكامها، وهي الأسماء وهو موقف لا يقفه إلا من يغالط الواقع، ويكتابره أو لا يدرى ما يقول.

وبعد أن أنهيت مناقشة المعتزلة أوردت عديداً من الآيات والأحاديث تدل على الأسماء الحسنى مثل قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}. وهذه الآية تعتبر آية (الباب) أي العمدة في إثبات الأسماء الحسنى⁶⁹².

ومن الأحاديث التي استشهدت بها قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةَ وَتَسْعِينَ اسْمًا مائةً إِلَّا وَاحِدًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".⁶⁹³

ثم سردت عدداً كبيراً من أسماء الله الحسنى استناداً إلى ما ذكره أهل العلم - كالحافظ ابن حجر، والبيهقي والترمذى وغيرهم بصرف النظر عما قيل في تلك الأحاديث.

ثم ذكرت الخلاف بين أهل العلم في: هل أسماء الله تنحصر في التسعة والتسعين اسمياً فقط، أو أن هناك أسماء أخرى غيرها؟ وقد رجحت في هذه المسألة قول الجمهور: وهو عدم انحصر أسماء الله في هذا العدد بل هناك أسماء لا يعلمها إلا الله استدلاً بحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفيه: "أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمِّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ".

ثم بينت وجه استدلال أهل الحق بهذا الحديث على أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة وهو أنه عليه الصلاة والسلام لم يقل: (بِكُلِّ اسْمٍ خَلَقْتَهُ) ولكنه قال بكل اسم أنزلته. ثم تعرضت للسؤال المعروف عند أهل الكلام، هل الاسم هو المسمى أو غيره،

⁶⁹² تقدمت.
⁶⁹³ تقدم.

فأجبت بالتفصيل الآتي:

"قد يطلق الاسم فيراد به المسمى، فلو قلت: الله فوق خلقه مستوٌ على عرشه. المراد به هنا المسمى، وإذا قلت: الله اسم عربي أو الله في القرآن، فالاسم هنا غير المسمى أي اللفظ الدال على المسمى، ثم أعربت إعراباً مفصلاً حديث الباب وهو "الله تسعه وتسعون اسمياً" الحديث. إعراباً قصدت به إيضاح المعنى وأن الحديث جملة واحدة مكونة من المبتدأ والخبر، ليكون معنى الحديث أن الله عدداً معيناً من الأسماء من حفظها دخل الجنة، وليس الغرض من الحديث حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد لستيقن النصوص على معنى واحد، ولا تتضارب وقد نوعت العبارات ونقلت نقولاً من أهل العلم كثيرة في هذا المعنى محاولاً إيضاحها، وبيان المراد من حديث الإحصاء، وما ذهبت إليه من عدم حصر الأسماء في العدد المذكور في الحديث هو قول الجمهور كما أسلفنا، لا نعلم لهم مخالفًا له اعتباره إلا ابن حزم رحمه الله.

أما هو فقد خالف الجمهور في هذه المسألة وشدد في الإنكار على من يزيد على العدد المذكور في الحديث، الذي نحن بتصديه ولعل أبا محمد ابن حزم لم يطلع على حديث ابن مسعود، والله أعلم، ثم بحثت مسألة (الاسم الأعظم) واستعرضت آراء أهل العلم حول هذه المسألة وقد أشرت إلى ما ترجح عندي دون قطع، وهو ما جاء في حديث بريدة عند أبي داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وهو أصح ما ورد في الباب فيما اطلعنا عليه، والله أعلم.

ويلى هذا الحديث في القوة حديث (دعوة ذي النون) وهي دعوة واردة في القرآن، وهذا وجه من رجح هذا الدعاء - وهو وجيه - والله أعلم.

الباب الثاني:

أنواع الصفات عند السلف والخلف، ويشتمل هذا الباب على عدة فقرات وفصوص:
أ- في الصفات السلبية: وفي هذه الفقرة تحدثت عن موضوع تنوعي للصفات وبينت أن السلف ليس من عاداهم التوسيع في التنويع، لأنهم لا يسرفون في الكلام في المطالب الإلهية، بل لا يكادون يتتجاوزون الكتاب والسنة وبينت أن الخلف هم المولعون بتقسيم

الصفات وتنويعها.

ثم سردت الصفات السلبية وهي خمس صفات عند الأشاعرة:

1- القدم.

2- البقاء.

3- الوحدانية.

4- المخالفة للحوادث.

5- الغنى المطلق وهي المعروفة عندهم بـ(القيام بالنفس).

كما أثبتت تقسيماً آخر ذكره بعض أهل العلم إلى سبعة أقسام:

ثم أوردت عدة تعریفات للصفة السلبية، كما ذكرت أن هناك صفات سلبية غير السلبيات التي اصطلح عليها الأشاعرة، وهي الصفات التي ترد في سياق النفي، وأكملت أن هذا النوع كثير في القرآن، كما أكدت أن كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبت كمال ضده، مثل قوله تعالى: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}**، لكمال عدله، وقوله: **{لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}**، لكمال علمه إلى آخر الأمثلة. واستطردت بالنسبة إلى القول (يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً، ويأتي النفي بمحمل على عكس طريقة أهل الكلام، فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المحمل). وسردت أمثلة كثيرة لما ذكرت.

ب- في الصفات الثبوتية: هنا عرفت الصفة الثبوتية وهي التي تدل على معنى ثبوتي وجودي، وأنا الصفات السبعة المعروفة عند الأشاعرة بصفات المعانى من الصفات الثبوتية، وهذه الصفات مع دلالتها على المعانى الثبوتية بالمطابقة، وهي في الوقت نفسه تدل على نفي ما لا يليق بالله تعالى أي على ضدادها، وهي معروفة كالعجز والفناء والتعدد وغير ذلك.

ثم أتبعت الحديث عن الصفات الثبوتية بالحديث عن صفات الذات.

ج- وأوضحت هنا التداخل بين صفات الذات والصفات الثبوتية، إذ الصفات الثبوتية نفسها هي الذاتية نسبة إلى الذات، ملازمتها الذات العلية، وبينت أن الصفات

الثبوتية أو الذاتية قد تكون شرعية عقلية كالصفات السلبية، وصفات المعانٍ وقد تكون خبرية محسنة كالوجه واليدين وأمثالهما.

د- في صفات الفعل: تحدثت في هذه الفقرة عن اختلاف أهل العلم في تعريف صفة الفعل وفي التفريق بينها وبين الصفات الذاتية، فأوردت تعريفها عند الماتريدية الذين يمثلهم (ملا على قارئ) ثم تعريف المعتزلة فالأشعرية، حيث عرفت الأشعرية بقولهم ما لا يلزم من نفيه نقىضه كالأحياء والإماتة والخلق والاستواء مثلاً.

ورجحت القول بأن الصفة الفعلية هي التي تتعلق بها مشيئة الله، كالمجيء لفصل القضاء والاستواء على العرش والغضب، وغيرها.

الفصل الأول: في الصفات الشرعية العقلية والصفات الخبرية:

وتحدثت في هذا الفصل عن تنوع صفات الله تعالى من حيث ثبوتها إلى نوعين: النوع الأول: الصفات الشرعية العقلية التي يشترك فيها الدليل الشرعي السمعي. والدليل العقلي والفطرة السليمة، وهي أكثر صفات الله تعالى.

النوع الثاني: الصفات الخبرية وتسمى الصفات النقلية والسمعية وهي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله، أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام ومثلت لها بالآتي: الوجه واليدان والقدم وغيرها.

ثم قسمت الخبرية إلى قسمين:

أ- صفات الأفعال التي تتجدد حسب مشيئته تعالى مثل النزول والاستواء وغيرهما.

ب- صفات ذاتية قائمة بذاته تعالى، وهي قديمة قدم ذاته تعالى كالوجه والقدم والعين وغيرها وذكرت ملاحظة هامة وهي أن هذه الصفات وإن كانت تعد بالنسبة للمخلوق جوارح وأعضاء، وأبعاضاً وأجزاء، ولكنها بالنسبة لله تعالى صفات أثبتتها لنفسه سبحانه أو أثبتتها له رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام. ثم ختمت الفقرة بالتبني على عدم الخوض في هذه الصفات بأهوائنا وآرائنا.

الفصل الثاني: في مبحث التجدد في الصفات والأفعال

أثبتت في هذا الفصل أزلية الصفات الإلهية ذاتية كانت أو فعلية. معنى أنه لا يجوز

الاعتقاد بأنه تعالى اتصف بصفة من الصفات بعد أن لم يكن متصفًا بها، لأن صفات الله تعالى صفات كمال ولا يجوز أن يعتقد أنه كان متصفًا بضدتها أو يعتقد أنه حصل له الكمال بعد أن لم يكن. ثم تطرق البحث لصفات الفعل وأن الصفات الاختيارية كالخلق والاستواء والنزول ونحوها تتجدد حسب مشيئة الله وقدرته، وتحدث في وقت دون وقت، لأن مثل هذا الحدوث غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن إذ لم يكن ممتنعاً عليه قط، بل هو على كل شيء قادر. في كل وقت وفي كل لحظة. وكل الذي نريد أن نثبت هنا أن تحدد صفات الأفعال في وقت دون وقت لا يقال فيه: أنه تعالى اتصف بصفة كان فاقداً لها أو عاجزاً عنها، أو ممتنعة عليه، أو فعل فعلاً كان ممتنعاً عليه بل الفعل كان ممكناً في حقه تعالى في كل وقت، لأنه لا يجوز أن يعتقد أنه كان معطلاً عن الفعل في وقت من الأوقات، لأن الفعل كمال وعدمه نقص، وهو **{فعالٌ لِّمَا يُرِيدُ}**.

ثم تحدثت عن مسألة في غاية الأهمية وهو اعتقاد بعض الناس أن وصفه تعالى بصفات الأفعال التي تتجدد في وقت دون وقت، أن ذلك يؤدي إلى القول بحلول الحوادث في ذاته تعالى.

إن مثل هذا القول قد يجعل الإنسان يسلم لهذه الدعوة ظناً منه أنه نفي عن الله ما لا يليق به سبحانه. لأن هذا اللفظ المحمل يحتمل نفي حدوث مخلوق وحلوله في ذات الله وهو نفي صحيح. ويحتمل بأنه تعالى لا يفعل شيئاً إذا شاء كيف شاء، ولا يفرح ولا يغضب إلى آخر الأفعال التي تقدم تعدادها فيكون النفي باطلًا ولكن السيني قد يؤتى من حيث تسليمه للكلام المحمل الذي لا ينبغي التسليم له إلا بعد الاستفسار، ثم تطرق البحث لمسألة معروفة عند أهل الكلام.

وهي هل الصفة زائدة على الذات أم لا؟ وقد ناقشت المسألة مناقشة قد تكون طويلة. وملخصها: إن أريد أن الصفة زائدة على الذات يعني أن هناك ذاتاً مجردة عن الصفات أو هناك صفات قائمة بنفسها منفصلة عن الذات فهذا غير صحيح، بل باطل وغير واقع.

وإن أريد أن للصفات معنى غير معنى الذات ومفهوماً غير مفهوم الذات بيد أنها لا

تنفك عن الذات فهذا المعنى صحيح إلا أن الإطلاق خطأ، وهذا ملخص نتائج هذا الفصل.

الفصل الثالث: في معانٍ الصفات الخبرية وصفات الفعل عند السلف والخلف بالجملة تحدثت في هذا الفصل عن القاعدة العامة عند السلف في هذا الباب وخلاصتها أنهم لا يتجاوزون الكتاب والسنة في هذه الصفات وغيرها، ولا يرون التفريق بين الصفات بل كلها من باب واحد. ويقفون عندما جاءت به النصوص إيماناً منهم بأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله.

ولا يصفه من خلقه أعلم به من رسول الله عليه الصلاة والسلام. وأما الخلف وهم علماء الكلام في حديثنا هنا على اختلاف مشاربهم فموقفهم يتلخص فيما يلي:

1 - خلف ينفي هذه الصفات وغيرها دون مبالغة بنصوص الكتاب والسنة، بل يردها بدعاوى أنها أدلة لفظية لا تفيد العلم واليقين، ومع ذلك فهي مخالفة للأدلة العقلية، فهو لا قيمة عندهم للنصوص وهم المعتزلة والجهمية.

2 - الفريق الثاني من الخلف، وهم الأشاعرة، فناقشت الأشاعرة وانتقدتهم لوقوفهم على مفترق الطرق لم يثبتوا جميع الصفات على ضوء الأدلة، التي سبق ذكرها، فيكونوا مع السلف. ولم ينفوا جميع الصفات دون تفريق بين الذاتية والعقلية حتى يكونوا مع المعتزلة. ولكنهم فرقوا بين الصفات، فصاروا عرضة للمناقشة والانتقاد. بهذا الأسلوب تمت مناقشتهم كما تم الحكم على غلاة المعتزلة بأنهم من أبعد الطوائف الكلامية عن النصوص والاستفادة منها بل يحرفونها لتوافق أهواءهم.

الفصل الرابع: في معانٍ الصفات التي تحدثنا عنها بالإجمال في الفصل الثالث. أما في هذا الفصل فقد تحدثت عنها بالتفصيل، فقسمت الصفات التي هي محل النزاع بين السلف والخلف إلى فقرتين: أ، ب. ففي فقرة:

أ - تحدثت عن اثنتي عشرة صفة وكلها من صفات الفعل وهي التي خالف فيها الخلف قاطبة جماعة السلف وهي:

1 - صفة استواء.

2- صفة المعية والقرب.

3- صفة النزول إلى سماء الدنيا كما يليق به.

4- صفة المحبة يوم القيمة.

5- صفة الكلام.

6- صفة التعجب.

7- صفة الرحمة.

8- صفة الرضاء.

9- صفة الضحك.

10- صفة التعجب.

11- صفة الفرح.

12- صفة الغضب.

وأما في فقرة:

ب- تحدثنا عن الصفات الخبرية وهي ثمان صفات على الوجه التالي:

1- صفة الوجه.

2- صفة النفس.

3- صفة اليد.

4- صفة الأصابع.

5- صفة العين.

6- صفة الساق.

7- صفة القدم وفي بعض ألفاظ الحديث (الرجل بدل القدم).

8- إثبات الرؤية للمؤمنين في الدار الآخرة.

هذه عشرون صفة من الصفات التي هي محل النزاع بين الخلف والسلف كما قلت،

ولذا جعلتها محل عنايتي واهتمامي بل أقول: إن تحقيق القول فيها وبيان وجه الصواب هو

موضوع الرسالة الرئيسي، لأن الصفات الأخرى قد يوافق فيها كثير من الخلف الصفاتية

كالأشاعرة والماتريدية، بمعنى أن الخلاف فيما سوى هذه الصفات المختارة ينحصر في الجهمية والمعزلة التي تنفي جميع الصفات إذاً أستطيع أن أقول: إن إجماع الخلف على نفي هذه الصفات المختارة أو تحرير نصوصها هو الذي دفعني إلى انتخاب هذه الصفات العشرين لدراستها والكلام على معانيها بالإيجاز، وأوضحت في آخر هذه النقطة أنني لم أهمل الصفات الأخرى، وإنما أمسكت عن التوسيع فيها – أما الصفات العشرون فقد تحدثت عن كل صفة على حدة ببيان المعنى العام لها. ثم ذكرت رأي الخلف المخالف مع مناقشته وسوق الأدلة الدالة عليها من الكتاب والسنة غالباً ومن السنة فقط أحياناً مثل صفة الفرح والضحك وغيرها.

وقد ذكرت في آخر حديثي عن صفة الرؤوية أن الرؤوية ليست صفة لله تعالى بل المؤمنون هم الذين يرونه سبحانه، والله هو المرئي لهم، وإنما أدرجتها في الصفات الخبرية لأن إثبات الرؤوية محل نزاع بين السلف والخلف، هذه هي المناسبة التي جعلتني ضمت الرؤوية إلى الصفات العشرين.

الباب الثالث:

تحدثت في هذا الباب عن العلاقة بين الصفات والذات، وذكرت أن الإيمان بالذات يستلزم الإيمان بالصفات ضرورة عدم وجود ذات مجردة عن الصفات في الخارج، وكذلك العكس أي أن الإيمان بالصفات لا يتم إلا بالإيمان بالذات، وعبرت عن هذا المعنى بالتلازم، ثم تحدثت عن مبحث المعايرة بين الذات والصفات، وأكدت أن إطلاق المعايرة أو عدم المعايرة لا ينبغي إلا بعد التفصيل.

كما ذكرت عند هذه النقطة موقف السلف وهو عدم الخوض في مثل هذه البحوث، إلا ما تدعو الضرورة إليه، لأن الإيمان بالله هو الإيمان الشامل للذات والصفات معاً -هذا هو المفهوم الذي لا خلاف فيه عندهم، أخذنا من السنة العملية حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يختلف بأسمائه تعالى وصفاته ويستعيذ بها إذ يقول عليه الصلاة والسلام: "أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر"⁶⁹⁴. ويقول عليه الصلاة والسلام: "أعوذ برضاك

⁶⁹⁴ صحيح مسلم: باب الأدعية والتعوذات، وتقدم.

من سخطك" ، وكان المفهوم عندهم أن من قال: عبدت الله أو دعوت الله، أو حلفت بالرحمة أنها كلها من باب واحد، ولا يفهم منها إلا أنهم حلفوا واستعاذوا بالله، ولا يخطر بالبال هل من حلف بالله أو من حلف بصفة من صفات الله حكمهما واحد، أم يختلف؟ هذا مala عهد بهم به بل هو مفهوم مستحدث.

الباب الرابع:

تحدثت في هذا الباب عن طبيعة العلاقات بين الصفات بعضها بعض من حيث المعانى والآثار فقررت أن علاقات الصفات فيما بينها قد تكون متزادفة من حيث المعنى أو متقاربة مثل الحب والرحمة والفرح والتعجب مثلاً. أما هذه الصفات التي ذكرت آنفاً بعد الحبة فهي آثار من آثار الحبة وما أكثر آثارها. كما أوضحت أن هناك صفات متقابلة كالرفع والخفض، والإعزاز والإذلال وكثير غيرها كما بينت أن هناك صفات متضادة من حيث معانيها، مثل الغضب والسخط مع الرضا ومثل الكراهة مع الحب مثلاً.

الباب الخامس:

ناقشت فيه حكم من نفى صفة من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة وقد فصلت القول في هذه المسألة وخلاصة ما قلته: إن من كان معدوراً بجهله أو بشبهات حالت دون معرفة الصواب في المسألة أنه لا يكفر، ومن كان على خلاف ذلك فإنه يكفر، ثم أشرت إلى الخلاف القائم في المسألة: في هل يعذر الإنسان بالجهل في أصول الدين أم لا؟ وذهبت إلى القول بأنه يعذر لوجود ما يؤيده وفصلت القول في الموضوع ثم سقت أقوال العلماء وأدلة لهم أو وجهات نظرهم. ثم استطردت لذكر حقيقة الإلحاد وأنواعه في أسماء الله تعالى وبينت معناه لغة، كما تدل عليه مادته (لـ حـ دـ ... الخـ).

الباب السادس:

وقد لخصت في هذا الباب المقارنة التي قد أجريت سابقاً في عدة مواضع وملخص ذلك أن السلف موقفهم من الصفات واضح لا غموض فيه. فهم يفهمون معانى الصفات العامة ويفوضون الكيفية فقط فليسوا بالمتأولين المحرفين وليسوا بالمشبهين المحسنين ولا بالمفوظين الجاهلين، ولا الواقعين الحائرين بل هم أصحاب فهم دقيق، وقد توسلوا بين

نفي النفاة وتشبيه المشبهة فموقفهم إيمان بنصوص الصفات وعدم تحريفها وإثبات دون تشبيه وتنزيه دون تعطيل. ومن العبارات المأثورة عن أئمة السلف في نصوص الصفات: "أمروها كما جاءت" أو "أمروها كما جاءت بلا كيف" وهكذا.

ثم تحدثت عن موقف غريب يقفه بعضهم حيث يتظاهرون بمحبة السلف وينشون عليهم ومع ذلك يجهلون مذهبهم ومنهجهم وهو موقف كثير من الكتاب المعاصرين (المتسلفين).

الباب السابع:

في نهاية الرسالة تحدثت عن آثار صفات الله تعالى في النفس البشرية، وفي العبودية وفي حياة الإنسان وتصرفاته وفي الكون كله، حيث يجد المرء إذا فكر جيداً في نفسه وفي كل شيء حوله في أطوار حياته بل في حياته اليومية ثم في الكون كله، يجد آثار أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى وأوضحت أن أبرز تلك الآثار هي آثار الرحمة التي يعيشها كل مخلوق "وسعتم رحمتكم كل شيء" ومن آثار صفة الرحمة إرسال الرسل، وإنزال الكتب والبيان والتبيان، الذي جاءت به الكتب. وتحدثت عن آثار أسمائه: الملك، الودود، اللطيف، الغفار، التواب، العفو، بنوع من الإسهاب حتى اتضحت رجوع العبودية كلها إلى موجب أسمائه وصفاته بل ارتباط جميع شئون الخلق بها والعلم عند الله. هذه النقاط التي سطرنا هنا هي خلاصة نتائج الدراسة لهذه الرسالة.

وَصَلَى اللَّهُ وَسَلَمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ خَاتَمِ النَّبِيِّنَ وَإِمَامِ الْمَرْسُلِينَ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ وَصَحَّابَتِهِ أَجْمَعِينَ.

ملحق الرسالة:

ويقول الإمام الجويني (الأب) في رسالته التي وجهها إلى شيوخه بعد
رجوعه إلى مذهب السلف: صفات الله وأسمائه:

وبعد: فهذه نصيحة كتبها⁶⁹⁵ إلى إخواني في الله أهل الصدق، والصفاء، والإخلاص، والوفاء، لما تعين عليّ من محبتهم في الله ونصيحتهم في صفات الله عز وجل، فإنه لا يكمل إيمان العبد حتى يحب لأنبيائه ما يحب لنفسه. وفي الصحيحين عن حرير بن عبد الله البجلي قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.⁶⁹⁶ وعن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدين النصيحة"⁶⁹⁷ ثلاثة، قالوا: لمن؟ قال: "الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". أعرفهم - أيدهم الله بتأييده ووفقهم لطاعته ومزيده - أني كنت برهة من الدهر متخيراً في ثلات مسائل:

1- مسألة الصفات 2- ومسألة الفوقية 3- ومسألة الحرف والصوت في القرآن

المجيد.

و كنت متخيراً في الأقوال الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها أو إمارتها والوقوف أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، فأجد النصوص في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ناطقة منبئة لحقائق هذه الصفات، وكذلك في إثبات العلو والفوقيـة، وكذلك في إثبات الحرف والصوت. ثم أجـد المتأخرـين من المتكلـمين في كتبـهم منـهم من يـؤول الاستـواء بالـقـهـرـ والـاستـيـلاءـ، ويـؤول النـزـولـ بـنـزـولـ الـأـمـرـ، ويـؤولـ الـيـدـيـنـ بـالـقـدـرـيـنـ أوـ الـنـعـمـتـيـنـ، ويـؤولـ الـقـدـمـ بـقـدـمـ صـدـقـ عـنـدـ رـبـهـمـ، وـأـمـثـالـ ذـلـكـ.

ثم أجـدهـمـ معـ ذـلـكـ يـجـعـلـونـ كـلـامـ اللهـ تـعـالـىـ معـنىـ قـائـماـ بـالـذـاتـ بـلـ حـرـفـ وـلـ صـوتـ، وـيـجـعـلـونـ هـذـهـ الـحـرـوفـ عـبـارـةـ عـنـ ذـلـكـ الـمعـنىـ الـقـائـمـ.

وـمـنـ ذـهـبـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـقـوـالـ أـوـ بـعـضـهـاـ، قـوـمـ لـهـمـ فـيـ صـدـرـيـ مـنـزـلـةـ مـثـلـ طـائـفةـ مـنـ فـقـهـاءـ الـأـشـعـرـيـ الشـافـعـيـنـ، لـأـنـيـ عـلـىـ مـذـهـبـ الشـافـعـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ. وـعـرـفـتـ فـرـائـضـ

⁶⁹⁵ هذه الرسالة توجد ضمن مجموعة الرسائل (المنيرية)، وهي خير ما كتب في بابها، وكتابها خير من رجع إلى الحق، ثم نصح، كما فعل ذلك إمامه الأشعري قبله، ورسالته خير من الإبانة للإمام الأشعري في عرض منهجه السلف، وخاصة المسائل التي اختارها؛ فتحدد عنها رحمة الله عليه.

⁶⁹⁶ أخرجه البخاري في الإيمان 1/147، طبعة الحلبي مع الفتح.

⁶⁹⁷ أخرجه مسلم في صحيحه 1/37، شرح النووي، الطبعة الأولى.

الدين وأحكامه على هذا المذهب، فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الأجلة، يذهبون إلى مثل هذه الأقوال، وهم شيوخ يولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم.

ثم إنني مع ذلك أجده في قلبي من هذه التأويلات (حزارات) لا يطمئن قلبي إليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم ان شراحه مقروراً بها، فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره، المتململ في تقلبه وتغييره، وكانت أحاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول، مخافة الحصر والتшибيه، ومع ذلك فإذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعانى، وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرحت بها مخبراً عن ربه واصفاً له بها، وأعلم بالاضطرار أنه صلى الله عليه وسلم كان يحضر في مجلسه الشريف العالم والجاهل والذكي والبليد والأعرابي الجافى.

ثم لا أجده شيئاً يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها، لا نصاً ولا ظاهراً مما يصرفها عن حقائقها ويؤوها كما تأوها هؤلاء - مشايخي الفقهاء - المتكلمون، مثل تأويلهم الاستواء بالاستواء، والنزول بنزول الأمر، وغير ذلك.

ولم أجده عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفتة لربه، من الفوقية واليدين وغيرهما، ولم تنقل عنه مقالة تدل على أن هذه الصفات معانٍ آخر باطننة غير ما يظهر من مدلولها، مثل الفوقية القهرية، ويد النعمة، وغير ذلك.

وأجد الله عز وجل يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}⁶⁹⁸، {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ⁶⁹⁹
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}⁶⁹⁹، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}⁷⁰⁰،
{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}⁷⁰¹، {أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ}⁷⁰²،
{أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}⁷⁰³.

⁶⁹⁸ سورة طه آية 5.

⁶⁹⁹ سورة الأعراف آية 53.

⁷⁰⁰ سورة النحل آية 50.

⁷⁰¹ سورة فاطر آية 10.

⁷⁰² سورة الملك آية 16.

⁷⁰³ سورة الملك آية 17.

فسرد آيات كثيرة كلها تدل على فوقية الله وعلوه على خلقه، إلى أن قال: ثم أجد الرسول عليه الصلاة والسلام لما أراد الله أن يخسه بقربه عرج به من سماء إلى سماء، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ثم قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث للحارية: "أين الله؟" فقالت: في السماء⁷⁰⁴. فلم ينكر عليها بحضوره أصحابه، فلا يتوهمون أن الأمر على خلاف ما هو عليه، بل أقرها وقال: "اعتقها فإنها مؤمنة".

وفي حديث جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله فوق عرشه فوق سماواته، وسماواته فوق أرضه مثل القبة" وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى القبة.

وساق عدة أحاديث وسيأتي ذكرها في موضعها.

إلى أن قال: لا ريب إننا نحن وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام لله، ونحن قطعا لا نعقل عن الحياة إلا هذا العرض الذي يقوم ب أجسامنا، وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضاً تقوم بجوار حنا، فكما أنهم يقولون حياته ليست بعرض وعلمه كذلك وبصره كذلك، هي صفات كما تليق به، لا كما تليق بنا، فكذلك نقول نحن: حياته معلومة وليس مكيفاً، وعلمه معلوم وليس مكيفاً، وكذلك سمعه وبصره معلومان وليس جميع ذلك أعراضاً بل هو كما يليق به.

ومثل ذلك بعينه: فوقيته واستواوه ونزوله، ففوقيته معلومة، أعني ثابتة كثبوت حقيقة السمع وحقيقة البصر، فإنهما معلومان ولا يكيفان. وكذلك فوقيته معلومة ثابتة غير مكيفة كما تليق به، واستواوه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال يليق بالخلق، بل كما يليق بعظمته وجلاله.

وصفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت، غير معقوله من حيث التكييف والتحديد. فيكون المؤمن بها مبصراً من وجه أعمى من وجه، مبصراً من حيث الإثبات والوجود. أعمى من حيث التكييف والتحديد، وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف

⁷⁰⁴ أخرجه مسلم.

الله تعالى نفسه به، وبين نفي التحرير والتتشبيه والوقوف، وذلك هو مراد الرب تعالى منا في إبراز صفاته لنا لنعرفه بها ونؤمن بحقائقها وننفي عنها التشبيه ولا نعطلها بالتحرير والتأويل. ولا فرق بين الاستواء والسمع، ولا بين النزول والبصر، الكل ورد فيه النص. فإن قالوا لنا في الاستواء: شبّهتم، نقول لهم: في السمع شبّهتم، ووصفتكم ربكم بالعرض. وإن قالوا: لا عرض، بل كما يليق به. قلنا في الاستواء والفوقيّة: لا عرض، بل كما يليق به.

فجميع ما يلزموننا به في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك والتعجب، نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم، فكما لا يجعلونها أعراضًا كذلك نحن لا يجعلها جوارح، ولا مما يوصف به المخلوق. وليس من الإنفاق أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين، فيحتاجون إلى التأويل والتحرير.

إن فهموا من هذه الصفات ذلك، فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السبع، صفات المخلوقين من الأعراض، بما يلزموننا في تلك الصفات من التشبيه والجسمية نلزمهم في هذه الصفات من العرضية، وما ينزعون ربهم به في الصفات السبع وينفعونه عنه من عوارض الجسم فيها، فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسبوننا فيها إلى التشبيه سواء بسواء.

ومن أنصف عرف ما قلناه واعتقده، وقيل نصيحتنا ودان الله بإثبات جميع صفاته هذه وتلك، ونفي عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف، وهذا مراد الله تعالى منا في ذلك، لأن هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد، وهو الكتاب والسنة. فإذا أثبتنا تلك، وحرفنا هذه وأولنا، كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وفي ذلك بлаг وكمى إن شاء الله تعالى.

هكذا نصح هذا الإمام الصادق في نصحه الإمام الجويني شيخه الذين عاش معهم برهة من الزمن في التأويل والتحرير في صفات الله تعالى كلها، أو التصرف فيها بإثبات بعضها وتأويل البعض الآخر، ثم تاب الله عليه فتاب، وكتب هذه (الصحبة) التي انتخبنا

منها بعض النقاط من أولها ومن آخرها، وقد ناقشهم فيها بالأدلة النقلية والعقلية معاً، وطالبهم بالإنصاف - والإنصاف من الإيمان - وأوضح لهم أنه لا يوجد ما يفرق بين ما أولوه وحرفوا فيه الكلام، وبين ما أتبته من الصفات، لأن هذه وتلك جاءت في موضوع واحد وهو الوحي من كتاب أو سنة، ودرج على عدم التفريق بينها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وعلماء الحديث.

ثم أوضح السبب الذي حمل علماء الكلام على تأويلهم صفات الله تعالى عامة، والصفات الخبرية السمعية خاصة. وهو أنهم فهموا منها خطأ المعانى التي تليق بالخلق، ثم أرادوا تصحيح ذلك المفهوم الخاطئ فوقعوا في التأويل، أي شبهوا أولاً ثم عطلوا ثانياً، هذه هي حقيقة القوم وعقيدتهم.

فنسأل الله تعالى أن ي Hazel المثوبة لهذا الإمام وأمثاله على هذه النصيحة الهدائة والصادقة، إنه سميع قريب.

فليهنا أبو محمد الجوني بهذا التوفيق وهذه الهداء، ولعل الله علم من الرجل الإخلاص في علمه وجهاده الذي بذله في البحث عن الحق في فترة (حيرته وتردداته) تلك الفترة الصعبة على قصرها - فيما أحسب - فهذا الله ووفقه مصداقاً لقوله تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَهُدِينَهُمْ سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**، ولقد كاد حبه وتقديره لشيوخه أن يخلدها إلى أرض التقليد ليحولا بينه وبين رؤية الحق واتباعه **{وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ}** ووفقه بيده إلى بر السلام، وسلم ونحمد الله على ذلك.

إذ قارن الإمام بين ما يخوض فيه شيوخه من التأويل، وبين ما ينطق به الكتاب المبين والسنة المطهرة من إثبات حقائق الصفات، فتأكد أن شيوخه لم يفهموا نصوص الصفات الفهم الصحيح، لا سيما الصفات الخبرية، بل لم يفهموا منها إلا ما يليق بالخلق، ولذلك تورطوا في التحريف والتعطيل أو الوقوف دون محاولة للفهم، لذا بادر الإمام أبو محمد بتوجيهه تلك النصيحة فور توبته وسلوكه مسلك السلف على بصيرة من ربه⁷⁰⁵.

⁷⁰⁵ وقد نقلت مقتطفات من كلام هذا الإمام من (نصيحته) التي وجهها لشيوخه بعد أن تبيّن له الحق، فتاب، وربما أكثرت النقل عنه. والذي حملني على ذلك أنني لم أجده فيمن رجعوا إلى منهجه السلف من علماء الكلام بعد أن خاضوا فيه من الزمن، من هو أصرح منه رجوعاً، ولا أصدق منه نصجاً لمن تركهم خلفه من الشيوخ، ولا أدق منه فهماً لمنهج السلف

الصالح، ولا أشد منه حرصاً على رجوع مشايخه إلى منهج السلف، كما لم أجد من صور تصويراً دقيقاً الأسباب التي حملت شيوخه وأمثالهم على الإصرار على تأويل صفات الأفعال، والصفات الخبرية. بل لم أحد أحداً يقاربه في هذه المعاني. وهي المعانى التي امتاز بها والد إمام الحرمين، وبالتالي هي المعانى التي حملتني على إكثار النقل من كلامه، رحمه الله.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم:

1) الإبانة: للإمام أبي الحسن الأشعري المتوفي 322هـ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

2) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: ابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، تصحيف ومراجعة عبد الله حسن آل الشيخ وإبراهيم الشورى، إدارة الطباعة المنيرية 1351هـ.

3) إرشاد الفحول إلى علم الأصول: الشوكاني: محمد بن علي المتوفى 1250هـ طباعة مصر.

4) الأسماء والصفات: للبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى 458هـ، دار إحياء التراث الإسلامي - بيروت.

5) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: للشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار المتوفى 1393هـ، المؤسسة السعودية مؤسسة الصبحي.

6) الاعتقاد: للبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى 458هـ، تحقيق أحمد عصام الطالب، دار الأوقاف الجديدة - بيروت.

7) إعلام الموقعين: ابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ.

8) الأعلام: خير الدين الزركلي.

9) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: أحمد أبو جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله هشام الأنباري المتوفى 761هـ، تحقيق محي الدين عبد الحميد.

10) البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر المتوفى سنة 774هـ، طبعة مكتبة المعارف - بيروت ط 2 سنة 1971م.

11) بدائع الفوائد: لابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، مكتبة القاهرة، ط 2 392هـ.

12) البدع والنهي عنها: محمد بن وضاح القرطبي سنة 286هـ، تحقيق محمد أحمد

الدهمان، دار البصائر دمشق 1402هـ.

(13) بغية المريد في رسائل التوحيد: للغزالى محمد بن محمد أبو حامد، المتوفى 606هـ، المطبعة الخمودية التجارية بمصر.

(14) تاج العروس: للزبيدي محمد مرتضى المتوفى 1205هـ، دار مكتبة الحياة - بيروت.

(15) تأویل مختلف الحديث: لابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم المتوفى (ت 276هـ)، دار الجيل - بيروت عام 1393هـ.

(16) التدمرية: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية المتوفى 728هـ.

(17) تذكرة الحفاظ: للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى 748هـ، مصورة بيروت عن الطبعة العثمانية الهندية.

(18) الترغيب والترهيب: للمنذري عبد العظيم بن عبد القوي المتوفى 656هـ، تحقيق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي - بيروت طبع سنة 1388هـ.

(19) تقریب التهذیب: لابن حجر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى 852هـ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطیف، دار المعرفة - بيروت.

(20) تلخیص المستدرک (على هامش المستدرک): للذهبی المتوفى 748هـ، مصورة بيروت عن الطبعة العثمانية الهندية.

(21) التلخیص الحبیر: لابن حجر العسقلاني المتوفى 852هـ، تحقيق عبد الله هاشم الیماني، طبعة مصر.

(22) التمهید لما في الموطأ من المعانی والأسانید: لابن عبد البر المتوفى 463هـ، تحقيق عبد الله بن الصديق، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب.

(23) التوحید: لابن خزيمة محمد بن إسحاق المتوفى 311هـ، تحقيق خليل هراس، دار الكتب العلمية 1398هـ / 1978م.

(24) قذیب الأسماء واللغات: للنووی أبو زکریا محبی الدین بن شرف النووی توفي

- 676هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 25) ترجمة محمد بن عبد الوهاب: الشيخ أحمد بن حجر قاضي المحكمة بقطر.
- 26) رد الدارمي على بشر المرسي: للدارمي عثمان بن سعيد المتوفى 262هـ (ضمن عقائد السلف).
- 27) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر المتوفى 463هـ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- 28) جامع البيان في تفسير القرآن: للطبراني أبو جعفر محمد بن جريير المتوفى 310هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ط 3 1398هـ/1978م.
- 29) الجامع الصحيح: للبخاري، المتوفى 256هـ، (أ) الطبعة السلفية بمصر بتحقيق فؤاد عبد الباقي مع فتح الباري، (ب) طبعة الحلبي (مع الفتح)، (ج) طباعة مع حاشية السندي.
- 30) الجامع الصحيح: لمسلم بن الحجاج القشيري المتوفى 261هـ، (أ) بتحقيق فؤاد عبد الباقي المصور عن الطبعة السلفية بمصر، (ب) مع شرح النووي.
- 31) الجامع الصغير (مع فيض القدير): للسيوطى المتوفى 911هـ ط 2 بيروت، دار المعرفة 1391هـ.
- 32) الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم الرازى المتوفى 327هـ، مصورة بيروت عن الطبعة الهندية العثمانية.
- 33) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح: لابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، المكتبة الإسلامية التجارية بمصر.
- 34) حاشية الباجوري المسماة بتحقيق المقام على كفاية العوام في علم الكلام: للشيخ محمد الفضالى، طبعة مصطفى الحلبي بمصر 1341هـ.
- 35) حاشية الجمل على الجلالين.
- 36) حاشية الشرقاوى على السنوسية: المطبعة الأزهرية المصرية 1311هـ.
- 37) حاشية الفضالى على كفاية العوام: طباعة مصطفى الحلبي.

- (38) حل الرموز و مفتاح الكنوز لشارح الفصوص.
- (39) حلية الأولياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى 430هـ، دار الكتاب العربي - بيروت ط 2، 1967هـ.
- (40) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: بجت البيطار، طباعة المكتب الإسلامي - دمشق.
- (41) الخطط: للمقرizi: الجزء الثاني، المتوفى سنة 845هـ ط دار صادر - بيروت.
- (42) خلق أفعال العباد: للبخاري محمد بن إسماعيل المتوفى 256هـ، تحقيق علي سامي النشار و عمار الطالبي، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية 1971م.
- (43) دراسة حديث نصر الله رواية و دراية: لعبد المحسن بن حمد العباد، مطبع الرشيد، المدينة المنورة طبعت سنة 1402هـ.
- (44) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية 728هـ، تحقيق د. محمد رشاد سالم طبع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- (45) الرد على الزنادقة والجهمية: أحمد بن حنبل المتوفى 241هـ، تحقيق علي سامي النشار، عمار الطالبي، ضمن عقائد السلف، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- (46) الرد على لاجهمية: للدارمي عثمان بن سعيد المتوفى 262هـ، تحقيق علي سامي النشار، و عمار الطالبي (ضمن عقائد السلف طباعة مصر).
- (47) الرسالة: للشافعي المتوفى 204هـ، تحقيق أحمد شاكر، ط 1 مصطفى البابي الحلبي 1358هـ.
- (48) الرسائل والمسائل: ابن تيمية المتوفى 728هـ، تحقيق رشيد رضا.
- (49) الزهد: أحمد بن حنبل المتوفى 241هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- (50) الزبد (الخاتمة): أحمد بن رسلان الشافعي.
- (51) سلسلة الأحاديث الصحيحة: للألباني محمد ناصر الدين، ط المكتب الإسلامي - بيروت.
- (52) السنة: لابن أبي عاصم أبو بكر المتوفى 287هـ، تحقيق و تحرير محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.

(53) السنة: للمرزوقي أبو عبد الله محمد بن نصر المتوفى 294هـ، مطبع دار الفكر بدمشق.

(54) سنن الترمذى: للترمذى محمد بن عيسى بن سورة المتوفى 279هـ، تحقيق أحمد شاكر وإبراهيم عطوة، تصوير المكتبة الإسلامية - بيروت عن النسخة المصرية.

(55) سنن الدارمى: للدارمى أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الرحمن المتوفى 255هـ، مصورة - بيروت.

(56) سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى 275هـ، تحقيق عزت عبيد الدعايس، نشر وتوزيع محمد علي حمص، ط 1، 1388هـ.

(57) سنن ابن ماجه: لابن ماجه محمد بن يزيد القزويني المتوفى 273هـ، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

(58) سنن النسائي (مع التعليقات السلفية): للنسائي أحمد بن شعيب، المتوفى 303هـ، المكتبة السلفية بلاهور باكستان 1396هـ.

(59) سير أعلام النبلاء: للذهبي المتوفى 748هـ، تحقيق لجنة من المحققين مؤسسة الرسالة - بيروت.

(60) شرح أسماء الله الحسنى: للرازى فخر الدين محمد بن عمر المتوفى 606هـ، تعليق طه عبد الرؤوف سنة 1396هـ، طباعة مكتبة الكليات الأزهرية.

(61) شرح حديث النزول: ابن تيمية المتوفى 728هـ، ضمن مجموعة الفتاوى، طبع الرياض.

(62) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفى، تخريج الألبانى، ط المكتب الإسلامي - بيروت.

(63) شرح مسلم: للنووى، المطبعة المصرية الأزهرية 1347هـ.

(64) الشريعة: للأجري أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله المتوفى 360هـ، تحقيق محمد حامد الفقى، مطبعة السنة المحمدية 1369هـ.

(65) شفاء العليل: لابن قيم الجوزية المتوفى سنة 751هـ، دار الفكر - بيروت

1398هـ.

66) صحيح الجامع الصغير: للألباني محمد ناصر الدين، طبعة المكتب الإسلامي - بيروت.

67) صور المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام: بلال الدين السيوطي المتوفى 911هـ.

68) كتاب الصفات: للدارقطني المتوفى سنة 350هـ، تعليق عبد الله الغنيمان، ط مكتبة الدار - المدينة المنورة.

69) عقائد السلف: لعلي سامي النشار، عمر جمعه الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية - مصر.

70) العلم: لأبي خيثمة زهير بن حرب النسائي المتوفى 234هـ، ضمن رسائل من كنوز السنة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المطبعة العمومية - دمشق.

71) الغياثي: (غياث الأمم في التبات الظلم) لإمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجوهري المتوفي 478هـ، تحقيق د. مصطفى حلمي د. فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة بالإسكندرية.

72) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني المتوفى 852هـ (أ) ط، مصطفى الحلبي - مصر، (ب) ط المكتبة السلفية - مصر تحقيق فؤاد عبد الباقي.

73) فتح القدير: للشوكياني محمد بن علي المتوفى 1250هـ، ط مصطفى البابي الحلبي 1351هـ.

74) الفتوى الحموية الكبرى: لابن تيمية المتوفى 728هـ، تحقيق حامد الفقي، ط مكتبة السنة الحمدية - مصر.

75) الفرق بين الفرق: للبغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمد المتوفى 429هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدنى - القاهرة.

76) الفقه الأكبر: للإمام أبي حنفية مع شرحه ملا على القاري المتوفى سنة 1001هـ، ط مصطفى البابي الحلبي - مصر.

- 77) فلسفة ابن رشد: لابن رشد الأندلسي المتوفى 595هـ تحقيق مصطفى عبد الجواد عمران، المكتبة الحمدية التجارية - مصر ط 3، 1388هـ.
- 78) القاموس المحيط: للفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى 817هـ، ط الباب - مصر.
- 79) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي د. مصطفى حلمي، دار الأنصار بالقاهرة 1396هـ.
- 80) كشف الخفاء ومزيل الألباب عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: للعجلوني إسماعيل بن محمد المتوفى 1162هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ط 3، 1351هـ.
- 81) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة: لابن رشد 595هـ تحقيق مصطفى عبد الجواد عمران، المكتبة الحمدية التجارية، الطبعة الثالثة 1388هـ.
- 82) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ترتيب عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم ط الرياض.
- 83) مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: ترتيب وتحقيق عبد الصمد شرف الدين، الدار القيمة بهيوندي الهند 1374هـ.
- 84) مختار الصحاح.
- 85) مختصر الصواعق المرسلة: لابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، اختصره الشيخ محمد بن الموصلبي - تصحيح زكريا علي يوسف، مطبعة الإمام - مصر.
- 86) مختصر العلو: للألباني محمد ناصر الدين، ط المكتب الإسلامي.
- 87) مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، طبعة الشيخ محمد سرور الصبان - مصر.
- 88) المستدرك على الصحيحين: للحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله المتوفى 405هـ، مصورة بيروت عن المطبعة العثمانية الهندية.
- 89) المسند: لأحمد بن حنبل المتوفى 241هـ، تصوير المكتب الإسلامية - بيروت.
- 90) مسنن الشهاب (مخطوط) للقضاعي المتوفى 454هـ، مصورة عن النسخة

الخطية بخطوطات الجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة.

- 91) مشكاة المصايح: للخطيب التبريزي: محمد بن عبد الله، بتحقيق الألباني محمد ناصر الدين، ط المكتب الإسلامي - بيروت.
- 92) المعارضة والرد: لسهل بن عبد الله التستري - تحقيق عصافر، ط مصر.
- 93) معجم المؤلفين: عمر رضا كحال، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 94) المعجم الكبير: للطبراني أحمد بن سليمان المتوفى 360هـ - تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط بغداد.
- 95) مفتاح دار السعادة: لابن قيم الجوزية المتوفى 751هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 96) مقالات الإسلاميين: لأبي الحسن الأشعري، تحقيق محى الدين عبد الحميد، ط مصر.
- 97) مقدمة علوم الحديث: ابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المتوفى 642هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 98) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، ط مصر.
- 99) الملل والنحل: للشهرستاني المتوفى 548هـ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.
- 100) مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي المتوفى 597هـ.
- 101) مناقب الشافعي: للبيهقي ت 458هـ، تحقيق سيد أحمد صقر، ط مصر.
- 102) المنتقى في مختصر منهاج السنة: للذهبي ت 748هـ، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية بمصر.
- 103) منهاج أهل الحق والاتباع في مخالفة أهل الجهل والابتداع: للشيخ سليمان بن سحمان، دار مروان للطباعة والنشر، القاهرة سنة 1401هـ.
- 104) منهاج علماء الحديث والسنة من أصول الدين (علم الكلام) مصطفى حلمي،

دار الدعوة بالإسكندرية 1402هـ.

105) موافقة صحيح المقبول لصريح المعقول: لابن تيمية ت 728هـ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ودرء تعارض العقل والنقل: تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. 1399هـ/1979م.

106) المواقف في علم الكلام: للإيجي القاضي عبد الرحمن بن أحمد، ط عالم الكتب بيروت.

107) الموطأ (مع تنوير الحوالك) للإمام مالك ت 179هـ، ط عيسى البابي الحلبي - مصر.

108) ميزان الاعتدال: للذهبي ت 748هـ تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ط 1.

109) المنار المنيف: ابن قيم الجوزية.

110) النصيحة: الجويني (الأب) ط المكتب الإسلامي - بيروت.

111) نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع: للمستشرق هنري لاووست، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، وتقديم وتعليق: د. مصطفى حلمي، دار الأنصار - القاهرة.

112) نقض المنطق: لابن تيمية ت 728هـ، تعليق حامد الفقي، ط مصر.

113) النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير محمد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى، المتوفى 606هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة الإسلامية، بيروت.

114) هدي الساري مقدمة فتح الباري: لابن حجر ت 852هـ، تحقيق فؤاد عبد الباقي، ط السلفية - مصر.

115) الوضع في الحديث د. عمر حسن عثمان فلاتة، مكتبة الغزالي دمشق بيروت.

116) وفيات الأعيان: لابن خلkan ت 681هـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط 1376هـ.